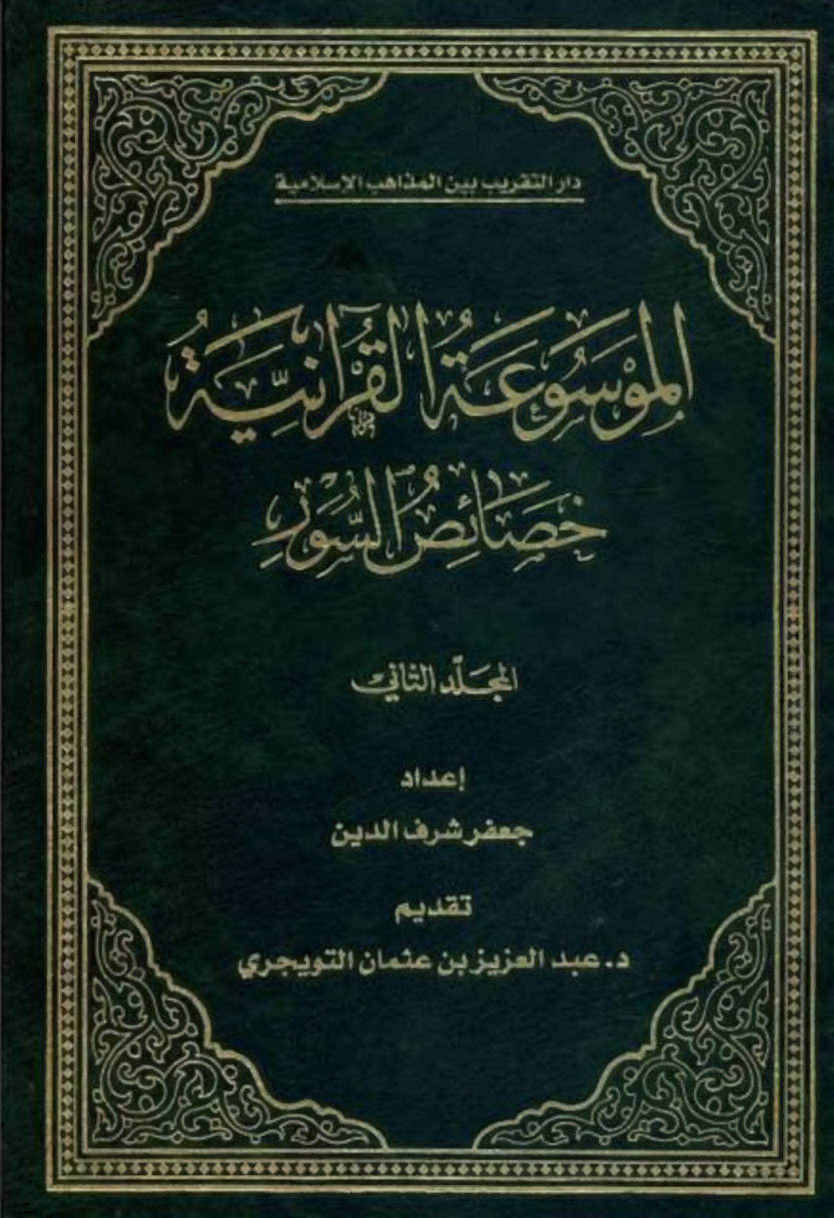


دار التقريب بين المذاهب الاسلامية
الموسوعة القرآنية
خصائص السور
المجلد الثاني
إعداد
جعفر شرف الدين
تقديم
د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية



المجلد الثاني

إعداد

جعفر شرف الدّين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة آل عمران

٣


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «آل عمران»(*)

سورة آل عمران سورة مدنية كلها، وهي مِائتا آية باتفاق. ومن سِماتها البارزة وَصْفُ غزوة أُحُد وتسجيل أحداثها، وتقديم الدروس والعِبَر للمسلمين من خلالها في نَحْو خمسين آية، (من الآية ١٢١ إلى الآية ١٦٨). وفي أعقاب غزوة أحد، فَضْل الشهادة ومنزلة الشهداء عند ربهم، وحديث عن غزوة حمراء الأسد، ودعوة إلى الصبر والثبات. وفي ختام السورة نجد لوحة رائعة من دعاء المؤمنين واستجابة الله ربِ العالمين.

(١)
قصة التسمية

جاء ذكر عِمران في هذه السورة مرتين في آيتين متتاليتين، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن عِمران، الذي سميت السورة باسمه، هو عمران أبو موسى. والراجح أنه عمران والد مريم، وكان بين العِمرانين، فيما يقول الرواة، أمد طويل.

ونحن، إذا تتبعنا أسماء السور في القرآن الكريم، نجدها تشير إلى أهمّ ما اشتملت عليه السورة وأَغْرَبِهِ، فسورة

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاتة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

البقرة سمّيت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرةٍ أُمِرَ بنو إسرائيل بِذَبْحها، وكان ذلك سبيلاً لمعرفة الجاني في حادثة قتلٍ لم يُعرف مرتكبها. وسورة المائدة سميت بهذا الاسم لقصة المائدة التي طلب الحَوَارِيُّون إنزالَها من السماء. وسورة النساء سميت بذلك لأنّ أهم ما عرضت له هو الأحكام التي أراد الله بها تنظيمَ أحوال النساء، وحِفْظَ حقوقهنّ، وعدمَ الإضرار بهنّ، وهكذا. وسورة الأنعام عَرَضت لذكر الأنعام وأنواعها من الإبل والبقر والغنم. وسورة الأعراف عَرَضَت لذكر الأعراف، وهو حاجز مرتفع بين الجنة والنار، عليه رجال استوت حَسَناتهم وسيئاتهم. وسورة الأنفال عرضت لذكر الأنفال، وهي الغنائم وطريقة توزيعها. وسورة التوبة عرضت لذكر توبة الله على المؤمنين وعلى الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تَبُوك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب اللّه عليهم ليتوبوا.

وسورة يونس عرضت لذكر نبي الله يونس، وإيمان قريته كلها به. وسورة هود تَعَرَّضت لذكر نبي الله هود ورسالتِه إلى قومه في قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود].

وتتابعت السورة تَصِف رسالات السماء إلى ثَمُودَ قوم صالح، وإلى مَدْيَنَ قومِ شُعَيْب، ورسالةَ إبراهيم ولوط وموسى إلى قومهم. وسورة يوسف دارت كلها تقريباً حول قصة يوسف عليه السلام من بدايتها إلى نهايتها.

وهكذا نجد أنّ الأساس العام في تسمية السور هو أهم شيء ذُكِر فيها، أو أغربُ شيءٍ تَحَدَّثت عنه. وإذا رجعنا إلى تسمية السورة الثالثة[1] من القرآن بسورة آل عمران، وراعينا أننا، إذا قرأنا السورة من أولها إلى آخرها، لا نجد فيها شيئاً غريباً أو مُهِمّاً يتعلق بموسى وهارون، بل نجدُ أنّ أبرز ما فيها وأَغْرَبَ شؤونها هو ما عُنِيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه، لَدَعَانا ذلك إلى موافقة رأي مَنْ رَأَى مِنْ

---

(١) السورة الأولى هي سورة الفاتحة والسورة الثانية هي سورة البقرة.

المفسرين أنَّ عِمْران الذي سميت السورة بآله هو عمران أبو مريم، لا أبو موسى وهارون. فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم الله من آدمَ ونوحٍ وآلِ إبراهيم وآل عمران، لِتُبَيِّنَ للقوم، من أول الأمر، أنّ اصطفاء الله من آل عمران عيسى وأمه، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما مِمَّنِ اصطفى، وأنّ ما ظَهَر على يد عيسى من خوارق العادات التي يتخذونها دليلاً على ألوهيته أو نبوته أو حلول الله فيه، لم يكن إلا أثراً من آثار التكريم الذي جرت به سُنَّةُ الله في من يصطفي من الأنبياء والمرسلين. ويقوّي هذا أنّ الله يقول، عَقِبَ هذه الآية، بياناً لاصطفاء آل عمران:

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

وأنه يقول في جانب مريم:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وهكذا نجد أنّ اصطفاء آل عمران ذُكر أولاً مُجْملاً ضمن من اصطفى الله، ثم بُيِّن باصطفاء مريم أو عيسى. ومن هذا يتبين أنّ عمران الذي سُمّيت السورة بآله هو أبو مريم، لا أبو موسى وهارون.

(٢)
مقاصد سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية، وليست من أوائلِ ما نَزَل بالمدينة، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد أن تقلبت عليهم فيها أحوالٌ من النصر والهزيمة في غَزَوات متعددة، واختلطوا اختلاطاً واضحاً بأهل الكتاب من يهود ونصارى، وجرى بينهم، من الحِجاج والنقاش ما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها.

وقد ذُكرت فيها غَزَوات بدر وأحد وحمراء وبدر الأخيرة. وكانت هذه في شعبان من السنة الرابعة. وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال التي تكفلت بالكلام على بدر. ونزلت بعدها سورة الأحزاب التي نزلت في آخر السنة الخامسة.

العناية بأمرين عظيمين:

ونحن، إذ نقرأ السورة، نجد أنها عُنيت بأمرين عظيمين:

أحدهما: تقرير الحق في قضية العالم الكبرى وهي مسألة الألوهية، وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحي والرسالة، وبيان وحدة الدين عند الله.

والثاني: تقرير العِلَّة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به[1].

الأمر الأول:
قضية الألوهية وتقرير الحق فيها

ولقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول فذَكَرت وحدانية الله، وأنه وحده هو الحي الذي لا يدركه الفناء، القيوم الذي له الهيمنة والتدبير والقيام على شؤون الخلق بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والإعزاز والإذلال. وقَرَّرت، في سبيل ذلك، علمه المحيط وقدرته النافذة القاهرة:

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾.

تقرر السورة هذا في كثير من أمثال هذه الآيات ثم تؤكد اصطفاء الله لبعض خلقه:

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء/ ١٦٥].

يعرفون مهمتهم التي كلفهم الله إياها، وهي دعوة الخلق إلى الحق، وأنهم أعقل وأحكم من أن يقولوا للناس اتخذونا آلهة من دون الله:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا

(١) انظر رقم ٤ فيما يأتي.

﴿رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد أخذ الله العهد على الرسل أن يصدق بعضهم بعضاً في الحق ودعوة الناس إليه، وأن يصدق السابق منهم اللاحق. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

هذا هو العهد الذي حفظه عيسى (ع) وتُوفّي عليه، وسيجيب به ربه يوم القيامة، وسيتبرأ المسيح عليه السلام ممن عبده أو اتخذه إلهاً.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة].

(٣)
وحدة الدين عند الله

أبرزت سورة آل عمران وحدة الدين عند الله وكررت هذه الحقيقة على لسان رسله جميعا:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وتقرر أن هذا هو الدين الذي جاء من عند الله:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم تتجه السورة إلى الذين غلَبت عليهم شِقْوتهم فحاربوا الله في دينه، وأعرضوا عن رسله، وأخذوا يناوئون الحق على وضوحه، فتَذْكُر كثيراً من أساليب ضلالهم، وألوان شُبَهِهم، التي كانوا يعززون بها مراكزهم، ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم، حسداً وبغياً لا طلباً للحق، ولا التماساً للهدى.

المسرفون في شأن عيسى (ع)

وقد خصت السورة جماعة المسرفين في شأن عيسى (ع) الزاعمين له الألوهية والبنوّة أو الحلول، فذكرت السورة أن عيسى خُلِق بقدرة الله ليكون معجزة للبشرية ودليلاً على تفرد الله بالألوهية. فقد خلق الله آدم بلا أب ولا أم؛ ثم خلق حواء من أب وبلا أم، ثم خلق عيسى من أم وبلا أب.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

فظهور الخوارق والمعجزات أمرٌ مِنْ سُنّة الله في خلقه. فقد خلق الله يحيى لزكريا على كِبَرٍ من أبيه، ويأسٍ من أمه. وبشرت الملائكة زكريا بيحيى. وتَعجب زكريا من هذه البشارة مع حالته، فرده الله إلى مشيئته:

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

وهكذا كان شأن عيسى وُجد بلا أب بمشيئة الله، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله، وعجبت مريم لهذه البشارة:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [مريم/ ٢٠].

فرد الله ذلك إلى مشيئته:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم تعرض السورة بعد هذا أن الخوارق، التي ظهرت على يد عيسى، لم تكن إلا من سنة الله في تأييد رُسُله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد الله، علّمهم الله الكتاب والحكمة وأن الله أرسله إلى بني إسرائيل بآيات من ربه. وعلى لسان عيسى يقول القرآن الكريم:

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

(٤)
بيان أسباب انصراف الناس عن الحق

المقصد الثاني من مقاصد سورة آل

عمران: بيان أسباب انصراف الناس عن الحق، وشرح أسباب العلة التي تستحوذ على عقول الناس، وتستولي على قلوبهم، فتصرفهم عن الاستماع للحق والالتفات إليه.

وقد بينت السورة أن هذه العلة هي غرور الناس بما لهم من أموال وأولاد وجاه وسلطان، فقد كانوا يتصورون أن في إيمانهم بصاحب الدعوة الجديدة زَلْزَلَةً لِمَا لهم من جاه وسلطان، وأنهم في غِنًى عن هذه الدعوة بما لهم من الأموال والأولاد. ويظنون أن ذلك كان لهم عن استحقاق ذاتي وأنه دائم لا يزول، ولا يؤثر فيه إيمان ولا كفر، وكثيراً ما حدثنا القرآن عن مثل هذا الوهم الفاسد الذي خدع كثيراً من الناس فأضلهم وأعمى أبصارهم، قال تعالى:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف].

وقال سبحانه:

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص].

وعلى هذا الأساس الذي أرشدنا الله إليه في كثير من آيات كتابه، أخذت سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التي يتوارثها الجبارون، وترشد إلى أن حب المال والغرور بمتاع الحياة هما علة العلل، وهما الحائل بين الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق. وفي ذلك تقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

وجدير بالمسرفين في كل زمان ومكان أن يلتفتوا إلى أن الأموال التي ينفقونها في لذاتهم وشهواتهم وبَسْطِ سلطانهم على الناس بغير حق، لا بد أن تُفْسد عليهم في نهاية الأمر أخلاقهم

وعقولهم وتَهْدِمَ ما بَنَوا من حضارات وما شيدوا من قصور.

وبينما تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال والأولاد، نراها تقرر الحق في شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه الحياة. وتقول إنه شيء فُطروا عليه، ولكنه ليس هو المقصد الأسمى من هذه الحياة، وإنما هو متاع وزينة، وهو في الوقت نفسه وسيلة للحصول على المتاع الخالد في الحياة الخالدة، إذا أحسن استعماله، قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء بأنهم هم الذين أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ابتغاء مَرْضاة الله، وصبروا على ما انتابهم من بلايا ومِحَنٍ ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾.

(٥)
عظمة القرآن
في تربية المؤمنين

تمثل سورة آل عمران قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، إلى ما بَعْدَ غزوة أُحُد في السنة الثالثة، وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتَّى خلال هذه الفترة الزمنية، وفِعْلِ القرآن، إلى جانب الأحداث، في هذه الحياة وتفاعلها معه في مختلف الجوانب.

والنصوص هي، من القوة والحيوية، بحيث تستحضر صورة هذه الفترة وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة، وصورة الاشتباكات والملابسات التي أحاطت بهذه الحياة.

ويتنزل القرآن ليواجه الكيد والدس

ويُبطل الفِرْية والشُبهة ويثبّت القلوب والأقدام، ويوجه الأرواح والأفكار ويعقب على الحادث ويبرز فيه العبرة، ويبني التصور ويزيل عنه الأوهام، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر، والكيد الماكر، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكنّ الصدور.

وإذا أعدنا قراءة سورة آل عمران وقصة بَدْر وأُحُد فيها، أدركنا أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة في أي مكان وأي زمان، وهو دستور هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل، وهو حادي الطريق وهادي السبيل على توالي القرون.. ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان في جميع العصور.

***

في هذه الفترة التي نزلت فيها السورة كانت الجماعة المسلمة في المدينة قد استقرت بعض الاستقرار في موطنها الجديد في مدينة الرسول (ص)، وكانت غزوة بدر الكبرى قد وَقَعت وكَتَب الله فيها النصر للمسلمين على قريش، وكان هذا النصر بظروفه التي تَمّ فيها، والملابسات التي أحاطت به، تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة، ومن ثم اضطُرّ رجل كعبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول، من عظماء الخزرج، أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ولنبيّه الكريم، وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم، وأن ينضم منافقاً للجماعة المسلمة وهو يقول: «هذا أمر قد توجه»، أي ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يردُّه عنها رادّ.

بذلك وُجِدت بذرة النفاق في المدينة أو نمت وأفرخت. وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود الذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين مثل ما يجد المنافقون بل أشد.

ولذلك نزل القرآن الكريم يوضح حقيقة الألوهية، ويبيّن الحق في الرسالة، ثم يوضح العلة التي أعمت الناس عن رؤية الحق، وهي علة الغرور بالمال والولد. وقد استنفدت سورة آل عمران أكثر من نصفها في توضيح هذين المفصلين.

ثم توجهت السورة إلى جماعة المؤمنين الذين جمعهم الحق، وتكوّنوا على أساس الرحمة بالخلق لتحذرهم

من دسائس المنافقين، وحِيَل المُبْطِلين وخداع اليهود والمشركين، وتذكّرهم أن يظلوا إخوة معتصمين بحبل الله متحدين برباط الأخُوَّة والمودة، متضامنين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تدوم لهم وحدتهم وتستقر دولتهم، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

(٦)
القرآن
كتاب الوجود والخلود

هذا القرآن هو كتاب الدعوة الإسلامية، هو روحها وباعثها، هو قوامها وكيانها، هو حارسها وراعيها، هو بيانها وترجمانها، هو دستورها ومنهجها، هو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة، كما يَستمد منه الدعاة، وسائل العمل ومناهج الحركة وزاد الطريق..

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسِّنا، ونستحضر في تصورنا، أن هذا القرآن، خوطبت به أمة حية، ذاتُ وجود حقيقي، ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة، ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الأرض، وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية، وفي رقعة من الأرض كذلك، معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابة.

***

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن، مادمنا نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه الإنسان والتي تواجه الأمة الإسلامية، في حين أن هذه الآيات قد نزلت لتواجه نفوساً ووقائع وأحداثاً حية، ذاتَ وجود واقعي حي، ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعياً حياً تنشأ عنه وجود ذو خصائص في حياة (الإنسان) بصفة عامة، وفي حياة الأمة الإسلامية بوجه خاص.

***

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين، في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حوّلت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها، ولكنه، مع هذا، يعارض ويواجه، ويملك أن يواجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الأعداء من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل الناس وفي عالم الضمير بالحيوية نفسها، والواقعية نفسها، التي كانت له هنالك يومذاك.

***

وإذا كان من المضحك أن يقول قائلٌ عن الشمس مثلاً: هذا نجم قديم رجعي يحسن أن نستبدل به نجماً جديداً تقدُّمياً. أو أن هذا الإنسان مخلوق قديم رجعي يحسن أن يُستبدل به كائن آخر تقدمي لعمارة هذه الأرض.

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك، فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن، خطاب الله الأخير للإنسان.

لقد عاش القرآن في ضمير الجماعة المسلمة، وأخذ بيدها خطوة خطوة، وسار معها وهي تتعثر وتنهض، وتحيد وتستقيم وتضعف وتقاوم، وتتألم وتحتمل وترقى في الدرج الصاعد في بطء ومشقة، في صبر ومجاهدة. تتجلى فيها خصائص الإنسان كلها، وضعف الإنسان كله، وطاقات الإنسان كلها.

لقد واكب القرآن نصر المسلمين في بدر، وهزيمتهم في أحد، فكان القرآن في التربية السلوكية قد أعلمهم أن النصر من عند الله، وأن النصر سلاحه الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والثقة بالله والاعتماد عليه، والعمل الدائب المخلص. وفي أعقاب الهزيمة في أُحُد كان القرآن يبلسم الجراح، ويمسح الآلام، ويوضح أن الأيام دول، وأن الحرب سجال: يوم لك ويوم عليك.

وكانت للقرآن دعوات متكررة في سورة آل عمران تحث على الصبر والمصابرة والرباط والمرابطة، وتبين شرف الشهادة وأجر المجاهدين وثواب الصابرين، فيقول سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

(٧)
دروس من غزوة أحد

لقد عُنِيَت سورة آل عمران بمقصدين عظيمين استغرقا نصفها الأول، هما الصدق في الإيمان، وعدم الاغترار بزخارف الحياة. وفي النصف الثاني من هذه السورة نجد دروساً عملية عن أسرار النصر في بدر والهزيمة في أحد.

تلفت السورة نظر المسلمين إلى موقعة بدر، وكيف انتصروا فيها بالإيمان والصبر والتقوى، مع قلتهم وضعفهم في المال والعدة، ومع كثرة أعدائهم ووفرة مالهم وقوة عددهم، فيقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وتلفت السورة نظر المسلمين إلى موقعة أحد وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم، وخَطَفَ أبصارَهم شيء من زخارف الدنيا. وفيها انهزموا بسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول، فتزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين، وفيها أفصح المنافقون عن نياتهم، وفي ذلك كله تقول سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [الآية ١٥٢].

(والمعنى إذ تقتلونهم وتبطلون حسّهم بإذن الله).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

***

ثم تنبه السورة إلى أن الشأن في أرباب الحق أن ينالهم من نصراء الباطل كثير من الأذى بالقول والعمل، وأن واجب المؤمنين أن يتلقوا كل ذلك الصبر والاحتمال. قال تعالى:

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

بعد هذا كله تختم السورة بأمرين عظيمين:

أحدهما: رسم الطريق الذي يصل به الإنسان إلى معرفة الحق والإيمان به، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

والثاني: هذه النصيحة الغالية التي ما تمسكت بها أمة إلا تركزت وسمت وعزّت، وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال والتدهور والانحطاط والذل والهوان، وتتمثل هذه النصيحة في الآية الأخيرة من سورة آل عمران:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

(٨)
سنن الله ماضية وقوانينه عامة

انتصر المسلمون في غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة نصراً كاملاً باهرا بأيسر الجهد والبذل. فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين غير مزودين بعدة ولا عتاد، إلا اليسير، فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش في عدتهم وعتادهم. ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزّر الباهر.

وكان هذا النصر في الواقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك قَدَراً من الله ندرك اليوم طرفاً من حكمته، ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة لتأخذ بعد ذلك طريقها.

ولعلّه قد وَقَعَ، في نفوس المسلمين، من هذا النصر، أنه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره، وأنه لا بد مُلازِمُهم على أي حال في كل مراحل الطريق، أليسوا بالمسلمين؟ أليس أعداؤهم بالكافرين؟ وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين.

غير أن سُنَّة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة. فلهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس وتكوين الصفوف، وإعداد العدة واتباع المنهج والتزام الطاعة والنظام، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان. وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في (غزوة أحد) على النحو الذي تعرضه سورة آل عمران عرضا حيا مؤثراً عميقاً، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين، وتوجه في ظله العظات البناءة للنفس وللصف المسلم على السواء.

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالاً وجراحات وشهداء من أعز الشهداء، على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه، وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم، كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته، وتكسر سنه، ويسقط في الحفرة، ويغوص حلق المغفر في وجنته (ص)؛ الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين. ويسبق استعراض (غزوة أحد) وأحداثها في السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية

التصور الإسلامي من كل شائبة، ولتقرير حقيقة التوحيد جَلِيَّةً ناصعة، والرد على الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب، سواء منها ما هو ناشئ من انحراف في معتقداتهم، وما يتعمدون إلقاءه في الصف المسلم من شبهات ماكرة لخلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة.

وتذكر عدة روايات أن الآيات [١ ـ ٨٣] نزلت في الحوار مع وفد نَصَارَى نجران من اليمن، الذي قَدِمَ المدينة في السنة التاسعة للهجرة. ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة زمنَ نزول هذه الآيات، فواضح، من طبيعتها وَجَوِّها، أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة حيث كانت الجماعة المسلمة بَعْدُ ناشئةً، وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وسلوكها. وسواءٌ أَصَحَّت رواية أن الآيات نزلت في وفد نصارى نجران، أم لم تصح، فإنه واضح، من الموضوع الذي تعالجه، أنها تواجه شُبُهات النصارى وخاصة ما يتعلق منها بعيسى (ع)، وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء بها الإسلام، وتُصَحِّح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وَخلط وتشويه، وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن يُصَدِّقها.

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين المسلم أن هذا القرآن هو كتاب الحياة صَحَّحَ أوضاعها للمسلمين وصحح العقيدة، وناقش عقائد الآخرين، وحذَّر المسلمين من كيد الأعداء ودسائسهم، وهذا القرآن مأدُبةُ الله معروض للمسلمين، مفتوح للقارئين، دليلٌ للحيارَى ورحمة للضالين، وهداية للمسترشدين. إنه النور المبين، والركن الركين، والصراط المستقيم. من تركه من جَبّار قَصَمَهُ الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، لم تسمعه الجن حتى قالت:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

(٩)
منهج القرآن في بناء العقيدة والدفاع عنها

القارئ لسورة آل عمران يتضح له أن أعداء الأمة الإسلامية كانوا يحاربونها في عدة ميادين، منها ميدان المعركة،

ومنها ميدان الفكرة والإيمان؛ وأنهم حاولوا تشكيك المسلمين في عقيدتهم وتوهين إيمانهم لأنهم كانوا يدركون ـ كما يدركون اليوم تماماً ـ أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تَهِن إلا إذا وَهَنَت عقيدتها، ولا تُهزم إلا إذا هُزِمت روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، ممثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده.

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يُلْهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويَحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي، قبل كل شيء، معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات والطاقة، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة، لأنهم يعلمون، بالتجارب الطويلة، أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً. والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها.

ومن ثَمّ يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور. وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة، ولكن للغاية القديمة نفسها:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [الآية ٦٩].

فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة. لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولاً. كان يأخذ الجماعة المسلمة بتثبيتها على الحق الذي هي عليه، وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب، ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية.

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين، ويكشف لها نِيّاتهم المستترة ووسائلهم القذرة، وأهدافهم الخطرة، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين.

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هذا الوجود، فيبيّن لها هُزال أعدائها وهَوَانهم على الله، وضلالَهم وكُفْرَهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء. كما يبين لها أن الله معها، وهو مالك الملك المُعِزّ المُذِلّ وحده بلا شريك. وأنه سيأخذ الكفار، ويقصد بهم هنا اليهود، بالعذاب والنَّكَال كما أخذ المشركين في بدر من عهد قريب.

وكانت هذه التوجيهات تتمثل في نحو هذه النصوص من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

(١٠)

أعداء يكيدون للإسلام

القارئ لسورة آل عمران، والمتتبع لأهدافها، يتبين من خلالها عدة أمور:

أولها: ضخامة الجهد الذي كان يبذله أهل الكتاب في المدينة وغيرها، وعمق الكيد وتنوع أساليبه، واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها.

ثانيها: ضخامة الآثار التي كان هذا الجهد يحدثها في النفوس وفي حياة الجماعة المسلمة، مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب.

ثالثها: ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة، من أن هؤلاء الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها في الأرض كلها، وهم الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها.

ومن ثم اقتضت إرادة الله الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادي

الضخم البعيد المطارح، لتراه الأجيال المسلمة قوياً واضحاً عميق التركيز على كشف الأعداء التقليديين لهذه الأمة ولهذا الدين.

(١١)
ثلاثة خطوط عريضة

ولا يتحقق التعريف بسورة آل عمران حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها تتناثر نُقَطُها في السورة كلها، وتتجمع وتتركز في مجموعها، حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد.

أول هذه الخطوط: بيان معنى الدين ومعنى الإسلام، فليس الدين هو كل اعتقاد في الله. وإنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع، توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية. وتوحيد القِوَامة على البشر وعلى الكون كله. فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى. ومن ثم يكون الدين والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب، وهو في صميمه كتاب واحد، وهو في صميمه دين واحد...، هو الإسلام. بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء، والذي يلتقي عليه كل المؤمنين أتباع الرسل، كل في زمانه، متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة، والطاعة والاتباع في منهج الحياة كله بلا استثناء. ويتكئ سياق السورة على هذا الخط، ويوضحه في أكثر من ثلاثين موضعاً من السورة بشكل ملحوظ. نضرب له بعض الأمثلة بالآيات الآتية:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [الآية ١٩].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٣١].

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [الآية ٨٥].

ونصوص أخرى كثيرة تؤكد وحدانية الله، وأن الإسلام هو الدين الحق عند الله، وأن دعوة الرسل واحدة، وهدايتهم واحدة، هي الدعوة إلى توحيد الله وتدعيم الأخلاق، والحث على الفضائل، والتحذير من الرذائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الآية ١١٠].

أما الخط الثاني الذي يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم، واستسلامهم له، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق، ونضرب له بعض الأمثلة من آيات سورة آل عمران:

يقول الله تعالى:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

ويقول سبحانه في بيان صدق المؤمنين وثقتهم بربهم وتَوَكُّلهم عليه، حين سمعوا عن كثرة أعدائهم بعد غزوة حمراء الأسد، فلم يزدهم ذلك إلا ثقة ويقيناً وإيماناً واعتماداً على الله بعد الأخذ بالعُدَّة والأسباب:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

والخط الثالث العريض في سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله، ولا يتبعون

منهجه في الحياة. وهذه نماذج من هذا الخط العريض.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ (١٥٠)﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧)﴾.

هذه الخطوط الثلاثة متناسقة فيما بينها متكاملة في تقرير التصور الإسلامي، وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه في حياة البشر وفي شعورهم بالله، وأثر ذلك في موقفهم من أعداء الله الذي لا موقف لهم سواه.

والنصوص في موضعها من السياق أكثر حيوية وأعمق إيحاء. لقد نزلت في معمعان المعركة، معركة العقيدة، ومعركة الميدان. المعركة داخل النفوس والمعركة في واقع الحياة. ومن ثم تضمنت ذلك الرصيد الحي العجيب من الحركة والتأثير والإيحاء، فلو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال أو كُلِّم به الموتى لكان هذا القرآن، فإنه كتاب الحياة وكتاب الوجود وكتاب الخلود.

ترابط الآيات في سورة «آل عمران»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة آلِ عمران بعد سورة الأنفال، وكان نزولها في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة أحد، فتكون من السور التي نزلت بين غزوة بدر وصلح الحُدَيْبِيَة. وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة آل عِمْران فيها، وهي قصة امرأته وابنتها مريم، وتدخل فيها قصة عيسى أيضاً، ويبلغ عدد آياتها مائتي آية.

الغرض منها وترتيبها

نزل صدر هذه السورة في وفد نَصَارَى نَجْران، وكانوا قد وفدوا على النبي (ص)، فدخلوا عليه المَسْجِد وعليهم ثياب الحبَرات وأردية الحرير، مختتمين بالذهب، ومعهم بُسُطٌ فيها تماثيل، ومسوح، جاؤوا بها هدية له، فَقَبِلَ المُسوح ولم يقبل البُسُط، ثم جادلوه في الدين، وانضموا بهذا إلى أحبار اليهود في الشغب على الإسلام، فجاء صدر هذه السورة في تصوير ذلك الجدال الذي دار بينهم، وقد جاء أغلبه في جدال النصارى مع النبي (ص)، وجاء قليل منه في جدال اليهود معه، وقد أشبهت سورة آل عمران سورة البقرة في ذلك الجدال، كما أشبهتها أيضاً في طولها، ولهذا جُعلت بعدها.

وقد مَهَّدَ السياق في أول السورة لذلك الجدال ببيان ما يجب لله من الأوصاف، ثم انتقل من هذا إلى الرد على مقالاتهم في ذلك الجدال. ثم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز. المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، غير مؤرخ.

انتقل من الرد على مقالاتهم إلى تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من التأثر بها. ثم انتقل من هذا إلى تثبيت المؤمنين بعد هزيمتهم في غزوة أُحُد. وقد استغلوها أيضاً في التأثير عليهم، ثم خُتِمت السورة بالتنويه بالمؤمنين كما ختمت سورة البقرة.

وقد قُصد من ابتداء هذه السورة ببيان ما يجب لله تعالى من الأوصاف أن يكون هذا أساساً للجدال مع وفد نجران في شأن عيسى (ع).

ما يجب لله سبحانه من الأوصاف الآيات [١ ـ ٦]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ فذكر أنه يجب له أن يكون واحداً حياً قيّوماً، ومهّد بهذا لما سيذكره من نفي الألوهية عن عيسى في الجدال مع وفد نجران، ثم ذكر أنه نزّل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب، وأنزل التوراة والإنجيل من قبله هدًى للناس، وأنزل الفرقان وهو البرهان الذي لا بد منه مع النقل، ومهد بهذا أيضاً لذلك الجدال، ليرجع فيه إلى ما اتفقت عليه هذه الكتب من التوحيد، وإلى تأييد العقل لها في ذلك، ثم ذكر مما يجب له أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يصورنا في الأرحام كيف يشاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾.

الرد على مقالة النصارى الأولى الآيات [٧ ـ ١٨]

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [الآية ٧]. فرد على مقالتهم الأولى وهي قولهم: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروحٌ منه؟ فقال: بَلَى. فقالوا: حَسْبُنا. فرد عليهم بأن القرآن منه محكم، ومنه متشابه، وأن المتشابه يجب تأويله بما يوافق المُحْكَم، فالذين في قلوبهم زَيْغٌ يَتّبعون المتشابه ويُؤولونه بما يوافق أهواءهم. والراسخون في العلم يؤولونه ذلك التأويل السابق، أو يفوضون الأمر فيه لله تعالى، ثم حذّر الأولين من عذابه الذي لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادُهم منه شيئاً، كما لم تُغْنِ أموال آل فرعون شيئاً عنهم، وأنذرهم بأنهم سيُغلبون وإن اغتروا بأموالهم وقوتهم، وساق لهم ما جرى

في غزوة بدر عِبْرةً يعتبرون بها، فقد غَلَبَ المسلمون فيها، على قلتهم، قريشاً على كثرة عددها، ثم ذكر أنهم قد زُيِّنَ لهم حُبُّ أموالهم، وإنما هي متاع الحياة الدنيا، ولا قيمة لها بجانب ما أعد الله للمؤمنين من نعيم الآخرة. ثم خَتَم ذلك بتقرير أن تَفَرُّده بالألوهية معروف قد شَهِدَ به في كتبه، وهذا في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾﴾.

الرد على مقالتهم الثانية الآيات [١٩ ـ ٦٤]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [الآية ١٩]. فذكر الرد على مقالتهم الثانية، وكان النبي (ص) قد قال لهم: أَسْلِموا فقالوا: قد أسلمنا. فقال لهم: كَذَبْتُم، يمنعكم من الإسلام ادّعاؤكم أن لله ولداً، وعبادَتُكم الصليبَ، وأكلُكُم لحم الخِنْزير. وقد احتجوا أمامه على ألوهية عيسى بأنه كان يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص، إلى غير ذلك مما ذكروه، وعلى أنه ابن الله بأنه لم يكن له أبٌ يُعلم، فرد عليهم ذلك أوّلاً بإثبات أن الدين عنده هو الإسلام له وحده، لا ما هم عليه مِنْ جَعْلِه ثالثَ ثلاثة، وقد نزل كتابهم بذلك فحرفوه وبدلوا آياته، فإن حاجُّوا في ذلك بمثل ما ذكروه فإنما هي شُبَهٌ واهية لا قيمة لها، وعلى النبي (ص) والمسلمين أن يَمْضُوا في إسلامهم ولا يلتفتوا إلى تلك الشبه الواهية. فإذا أسلم أهل الكتاب ومشركو العرب كإسلامهم، فقد اهتَدَوا؛ وإن تولوا، فلا عُذْرَ لهم بعد تبليغهم. ثم ذكر ما ينفي الإيمان به عن أهل الكتاب، مِنْ كُفْرِهم بآياته، وقَتْلِهم الأنبياءَ بغير حق، وأَوْعَدهم بما أَعَدَّ لهم من عذابه، ثم ذكر من كفرهم أنهم يُدْعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، فيتولَّون عنه وهم معرضون، وأنهم يَزْعُمون أن النار لا تَمَسُّهم إلا أياماً معدودات بِقَدْر أيام الخلق، ثم أوعدهم بأنه سيجمعهم ويعاقبهم على ما كَسَبُوا من ذلك الكفر، ثم أَمَرَ النبي (ص) أن يذكر لهم أنه مالكُ الملكِ وحدَه، يُعز من يشاء من خلقه، ويُذل من يشاء منهم، فلا يمتاز أهل الكتاب بشيء على غيرهم، ثم أكد هذا بأنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويُخرج الحي من المَيِّت ويخرج الميت من الحي،

ويَرْزق من يشاء بغير حساب، ثم نهى المؤمنين أن يغتروا بهم ويوالوهم. وذكر أن من يفعل ذلك فليس منه في شيء، وأنه يعلم ما يُخْفونه من ذلك وما يُظهرونه. فإذا كانوا يحبونه، فليتبعوا رسوله ويوالوه وحده، وليطيعوه هو ورسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم رد عليهم ثانياً بذكر قصة عيسى(ع) على حقيقتها من أولها إلى آخرها، فذكر اصطفاءه لآبائه الأولين، من آدَمَ إلى نوحٍ إلى آل إبراهيمَ إلى آل عِمرانَ على العالمين. ثم ذكر ما كان من أمر أمه مريم وكَفَالة زكريا لها، وقَصَّ خَبَرَها مع زكريا وخبرَ زكريا إذ وَهَبَ له يحيى، ثم ذكر مريم وإخبارَ الملائكة لها بأن الله اصطفاها على نساء العالمين، وبأنه يُبَشِّرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، يَخْلُقه منها بأمره، ويُعَلِّمه الكتاب والحكمة، ويرسله إلى بني إسرائيل، فيخلق لهم من الطين طيراً بإذن الله، ويُبْرِئ الأكمه والأبرص ويُحْيي الموتى بإذن الله، ثم ذَكَر ما كان من أمر بني إسرائيل معه إلى أن أرادوا قتله وصَلْبَه فرفعه الله. ولما وصل بذلك إلى نهاية قصته، ذكر أن ما قَصَّه فيها، من الآيات والذكر الحكيم، لا يُقبل غيره في أمر عيسى، وأن مَثَلَ عيسى، إذْ خَلَقَه من غير أب، كَمَثَلِ آدم إذ خلقه من تراب، وهذا هو الحق في أمر عيسى، وليس أمره فيه بأعجبَ من أمر آدم، فإذا حاجُّوا النبي (ص) بعد هذا في أمره فَلْيَدْعُهُمْ هم وأبناءهم ونساءهم لِمُباهَلَتِهِمْ هو وأبناؤه ونساؤه فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين. ثم ذكر أن ما جاء به في أمر عيسى هو القَصَص الحق، وأنه ما من إلهٍ إلا الله، فإن تَوَلَّوْا بعد ذلك فهم مفسدون لا طُلاَّبُ حق، ثم ختم ذلك بدعوتهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه الرسالات ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

الرد على مقالتهم الثالثة
الآيات [٦٥ ـ ٧٨]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾، فذكر الرد على

مقالتهم الثالثة، وهي قول النصارى إن إبراهيم كان على ديننا. وكذلك قال اليهود مِثْلَ قولهم، فرد عليهم بأن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعده، فلا يعقل أن يكون يهودياً أو نصرانياً. وإذا كان لهم وَجْهٌ أن يحاجُوهُ في مخالفة شريعة القرآن لِمَا يعلمونه من شريعتهم، فإنه لا وَجْهَ لهم أن يحاجوه بمخالفتها لشريعة إبراهيم وهم لا يعلمونها، ثم قرر لهم أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ولم يَكُ من المشركين كما أشرك النصارى بتأليه المسيح، وأن أَوْلَى الناس به الذين اتَّبَعُوه ممن لم يُحَرِّف دينه من أهل الكتاب، ومن النبي وأتباعه من المؤمنين، ثم ذكر أن أهل الكتاب يودون أن يُضِلُّوا المسلمين بهذه المقالات، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون ثم وَبَّخهم على كُفْرهم بآياته وهم يعلمون صدقها بما عندهم من البشارات بها، وعلى أنهم لا يريدون بهذه المقالات إلا أن يُلْبسوا الحق بالباطل وهم يعلمون. ثم ذكر نوعاً آخر من تلبيساتهم أَقْبَحَ من هذه المقالات، وهو إظهار بَعْضِهم الإيمانَ بالقرآن أول النهار، والكفْرُ به آخِرَه ليؤثر بهذا في أتباعه، وذكر أنهم يتواصَوْنَ عند إظهار هذا الإيمان الكاذب ألاَّ يُخْلصوا فيه، ولا يؤمنوا إلا بنبي يقررُ شرائعهم. ثم رد عليهم بأمر النبي (ص) أن يذكر لهم أن الهدى هدى الله لا هداهم، فلا يليق بهم أن يفعلوا هذا، لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم به عند ربهم، ويأمره أن يذكر لهم أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء وليس وقفاً عليهم. ثم ذكر أن هذه الأَثَرةَ فيهم في أمور الدين قد تعدَّتْ بكثير منهم إلى أمور الدنيا. فمنهم من إنْ تأمنه بقنطار يؤدِّه إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يُؤدِّه إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائماً، لأنهم يعتقدون أن الله سبحانه لم يجعل عليهم سبيلاً في الأميين من العرب، وهم يَكْذِبون بذلك عليه، لأنه يحب الوفاء بالعهد لكل الناس، والذين لا يُوفون بعهدهم لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة. ثم ذكر أن منهم مَن يستبيح في سبيل ذلك ما هو أقبح مما سبق، فيكتبون بأيديهم ما يدل على أن النبي (ص) ليس هو النبيَّ المُبشَّرَ به، ويقولون هو من عند الله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

الرد على مقالتهم الرابعة
الآيات [٧٩ ـ ٩٢]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧٩]. فذكر الرد على مقالتهم الرابعة، وهي زعمهم أن عيسى (ع) كان يدّعي الألوهيةَ، ويأمر قومه بعبادته، فرد عليهم بأنه ما كان لبشر أن يؤتيه الكتاب والحكمة والنبوة ثم يأمر الناس بمثل ذلك، فيصير بهم إلى الكفر بعد الإسلام الذي كانوا عليه من قبله، ثم ذكر أن هذا الإسلام كان ميثاقه على النبيين وأتباعِهم أن يُصدِّقوا الرسول المنتظر الذي يجيء به، فمن تَوَلّى عنه بعد ذلك يكون فاسقاً. ثم أنكر عليهم أن يبغوا غير هذا الإسلام، لأنه دين الفطرة الذي يؤمن به كل من في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم طوعاً وكَرْهاً، إذ يخضعون جميعاً لله وحده. ثم أمر النبي (ص) أن يذكر لهم أنه هو الدين الذي أنزل على إبراهيم والأنبياء بعده من ذريته، وأنه يؤمن بهم جميعاً ولا يفرّق بينهم، وأن من يتبع غير الإسلام الذي دُعُوا إليه فلن يُقْبل منه، ثم ذكر أن مثل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول المنتظر حق، لا ترجى هدايتهم، وأن جزاءهم على ذلك اللعنةُ الخالدة والعذاب الشديد، وأن من تاب منهم بعد ذلك وأصلح فإن الله يغفر له ما سبق منه، وأن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا بعد ظهور الإسلام كفراً لن تُقْبل توبتهم، ولن يُقْبَل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً إذا تقرّب به إلى الله مع كفره، ولو افتدى به يوم القيامة لم ينفعه، فلن ينالوا البِرّ حتى ينفقوا في دنياهم مما يحبون ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

الرد على مقالتهم الخامسة
الآيات [٩٣ ـ ٩٩]

ثم قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾. فذكر الرد على مقالتهم الخامسة، وهي قولهم للنبي (ص): إنك تَدَّعي أنك على مِلّة إبراهيم، فكيف تأكل لحوم الإبل مع أنها حرام في تلك الملة؟ وقد رد عليهم بأن ذلك كان حلالاً في مِلّة

إبراهيم إلى أن حرّمه إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، على نفسه، فبقيت تلك الحرمة في أولاده، وذكر أن التوراة تَشْهَد بذلك عليهم، ثم أمرهم بعد هذا أن يتبعوا ما جاء به النبي (ص) من ملة إبراهيم، وذكر أن البيت الحرام الذي يتوجه المسلمون إليه من بِنَاء إبراهيم وابنه إسماعيل، وفيه آيات بينات، مقامُ إبراهيم وأمن الناس عنده وفرض الحج إليه على الناس جميعاً. ثم وبخهم على كفرهم بآياته بعد هذا كله، إلى أن قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾.

تثبيت المؤمنين بعد رد مقالاتهم
الآيات [١٠٠ ـ ١٢٠]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠)﴾، فأخذ يُثَبِّت المؤمنين ويحذرهم من التأثر بمقالاتهم، وذَكَرَ أنهم إن يطيعوهم يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم، ولا يليق بهم أن يعودوا إلى الكفر بعد هدايتهم. ثم أمرهم أن يتقوه حَقَّ تُقَوَاه فلا يسمعوا لأعدائه، وأن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يعودوا إلى ما كانوا عليه من التفرق، وأن يذكروا نعمته عليهم إذ كانوا أعداءً فألّف بينهم، وأن يجعلوا منهم أمة متحدة تأمرُ بالمعروف وتَنْهَى عن المنكر، ولا تكونُ كأهل الكتاب الذين ضَلُّوا فجعلوا يَدْعُون إلى الكفر، فاستحقوا عذاب الله في يوم تَبْيضُّ فيه وجوه المؤمنين، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين، ثم نَوَّه بشأن ما يتلوه من هذه الآيات الداعية إلى خير الناس، وَذَكَرَ أن له ما في السماوات وما في الأرض وإليه تُرْجَع الأمور كلها، ليحاسِبَ الناس على خيرها وشرها.

ثم ذكر أن المؤمنين كانوا بهذه الهداية خير أمة أخرجت للناس، وأن أهل الكتاب لو آمنوا مثلهم لكان خيراً لهم، لأن أكثرهم فاسقون يُفْسِدون في الأرض، ثم ذكر أنهم ضعاف لا يضرونهم إلا بمثل تلك المقالات، وأن اليهود منهم قد ضُرِبَت عليهم الذلة إلا أن يدخلوا في عهدهم، ثم ذكر أنهم ليسوا في هذا سواء، لأن منهم قوماً انقطعوا لعبادته، ولم يدخلوا في ما دخل فيه جمهورهم من كُفْرهم، وذكر

أنه لن يضيع عنده ما يفعلونه من خير، ثم ذكر أن الكافرين منهم لن تغني عنهم أموالهم شيئاً من عذابه، وأن مَثَلَ ما ينفقون في مَلاذُهِمْ كَمَثَلِ ريح فيها صِرٌّ أصابت حَرْثَ قوم ظلموا أنفسهم فلم تُبْقِ منه شيئاً.

ثم نَهَى المؤمنين أن يتخذوا بطانة منهم بعد أن حَذَّرهم من إطاعتهم، لأنهم يُضْمِرون لهم العداوة، ولا يليق بهم أن يُحبوهم وهم لا يحبونهم، وإن تمْسَسْهم حسنة تَسُؤْهم، وإن تُصبهم سيئة يفرحوا بها ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

تثبيت المؤمنين بعد أُحُد
الآيات [١٢١ ـ ١٨٩]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾، فذكر هزيمة المؤمنين في غَزْوَة أُحُد، وهي المصيبة التي ذكر أن أهل الكتاب فرحوا بإصابتهم بها، وقد حاولوا أن يؤثروا بها في إيمانهم، كما حاولوا أن يؤثروا في هذا الإيمان بمقالاتهم، فأمرهم أن يَذْكُروا إذْ غدا النبي (ص) يُبَوِّئُ المؤمنين مقاعِدَ للقتال، وإذ هَمَّت طائفتان منهم أن تفشلا في أول القتال بتأثير المنافقين من اليهود والمشركين، وكان المنافقون قد انهزموا عمداً ليؤثروا فيهم، ثم ذكر لهم أنه نَصَرهم ببدر، وهم في ذلة وقلة، والمشركون في عزة وكثرة، لِيُخَطِّئَهم في تأثرهم بانهزام المنافقين، ثم ذكر أنه نصرهم في بدر ليكون بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم به، وليقطع طرفاً من المشركين أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم. فالأمر في ذلك له وحده يتصرف فيهم كما يشاء، وهو الذي له ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

ثم ذكر بعد هذا تحريم الربا على المؤمنين، لأنه هو الذي كان يصل بينهم وبين اليهود، فأراد أن يقطع هذه الصلة بينهم بعد أن ظهرت في هذه الغزوة عداوتهم، لينقذهم من دسائسهم وتَحَكُّمهم فيهم بأموالهم، ولينهض بهم في هذه المِحْنَة التي حَلَّت بهم، وكان اليهود يقرضونهم بالربا الفاحش الذي أفقرهم وأضعفهم، وقد بدأ بهذا التدبير اهتماماً بعد ذكر هذه الغزوة، ثم أمرهم أن يسارعوا إلى مغفرة تمحو ما حصل

من مخالفاتهم فيها، وتُوصِلهم إلى جنة عَرْضُها السماواتُ والأرض أعدت للمتقين، وهم الذين ينفقون في السَّرَّاء والضَّرَّاء، إلى غير ذلك مما ذكره من أوصافهم. ثم ذكر لهم أنه قد حصلت سُنَنُ مَنْ قَبْلَهم فيما بين المؤمنين والمكذبين انتهت بهلاك المكذبين، وذَكَر أن في هذا بياناً وهدى وموعظة لهم، ونهاهم أن يَهِنُوا ويَحْزنوا لِمَا أصابهم وهم الأعْلَوْن، وإذا كانوا قد مَسَّهم قَرْحٌ في غزوة أُحُد، فقد مس المشركين قَرْحٌ مِثْلُه في غزوة بدر، والأيام دُوَلٌ بين الناس، ومثل هذا يميز الله به بين المؤمنين الصادقين وغيرهم، ويتخذ به شهداء يكونون قُدْوةً في الشهادة لِمَنْ بعدهم، وقد كانوا يتمنون الشهادة فقد رأوها في إخوانهم وهم ينظرون. ثم ذكر لهم أن محمداً (ص) ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، ووبخهم على فرارهم إلى المدينة حينما أشيع أنه قد قتل، وذكر أن كل نفس لها أجل لا يقدمه القتال ولا يؤخره الفرار، وأن من يُرِدْ ثوابَ الدنيا فَيَفِرّ من القتال يُؤْتِه منها ويحرمْهُ ثوابَ الآخرة، ومن يُرِدْ ثواب الآخرة يؤتِهِ منها ولا يحرمه ثواب الدنيا، ثم ذكر أن كثيراً من الأنبياء قاتَلَ معهم رِبِّيُّون كثيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أصابهم في سبيل الله، فنصرهم الله على أعدائهم، وآتاهم ثواب الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة. ثم أخذ يحذر المؤمنين من إطاعة الكافرين في التأثير عليهم بهزيمتهم، لأنهم قالوا لهم: لقد وعدكم النَصْرَ ولو كان صادقاً ما هُزمتم. فذكر لهم أنه مولاهم وهو خير الناصرين، وأنه سَيُلْقي في قلوب الكافرين الرُّعْبَ مع انتصارهم في أُحُد فلا ينتصرون بعده، وأنه صَدَقَهُمْ وعْدَهُ في أُحُدٍ فَنَصَرهم في أول الأمر، ولم يُهْزموا إلا بعد أن خالف الرُّماة أَمْرَه، فلم يَثْبُت إلا قليل منهم في أماكنهم التي أمروا بالثبات فيها ولو نُصِروا، وتَرَكَها أكثرهم إلى جمع الغنائم فَأُخِذُوا مِن ورائهم، ثم ذكر أنهم انهزموا بعد هذا لا يلوون على أحَدٍ ولا يسمعون دعاء النبي (ص) لهم بالرجوع إليه، فأثابهم الله غَمَّ أُحُد بدل غم المشركين في بدر، لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم. ثم ذكر أنه بعد هذا ثبّت قلوب الذين ثبتوا مع النبي (ص) فصمدوا للمشركين، وأن الذين انهزموا أهمتهم أنفسهم وظنوا بالله غير الحق فيما وعدهم به، ورددُوا ما قاله المنافقون في هزيمتهم، وما كان ذلك

منهم إلا زلةً من الشيطان وقد عفا عنهم.

ثم رجع إلى تحذيرهم من أولئك الكافرين، وكانوا يقولون لهم: لو تركتم الغزو وأقمتم عندنا كما أشرنا عليكم ما مُتُّمْ وما قُتِلتُمْ، فأمر المؤمنين ألا يسمعوا لهم ولا يشاركوهم في مقالهم، ليكون ذلك حسرة في قلوبهم. وذكر أن كل إنسان يحيا ويموت على حسب ما قُدِّرَ له، وأن مَن يُقتلُ أو يموت في سبيله، فله عنده خير من أموالهم التي يحرصون على الحياة من أجلها، وأنه لا بد مِنْ حَشْرِ كل من يموت أو يُقتَل ليلقى جزاءه على ما قَدَّم.

ثم ذكر أن لين النبي (ص) لهم بعد ما حصل منهم كان بما فطره الله عليه من الرحمة، وأمره أن يعفو عنهم ويستغفر لهم، وأن يستمر في مشاورته لهم وإن أخطأوا في هذه المرة. فإذا عزم بعد المشاورة فليتوكل عليه لأن النصر بيده، وإذا أراد نصرهم فلا غالب له، وإذا أراد أن يخذلهم فلا ناصر لهم.

ثم ذكر أنه ما كان لنبي أن يَغُلَّ في الغنائم ويحتجزها لنفسه، حتى يبادر رماتهم إليها ويكشفوا ظهرهم لعدوهم، ومن يَغْلُلْ يأت بما غَلَّ يوم القيامة، ثم تُوَفَّى كل نفس ما كسبت ولا يكون من غَلَّ كمن لم يَغُلَّ، لأنه لا يصح أن يكون من اتبع رضوانه بترك الغلول كمن غَلَّ فباء بسخط منه؛ ثم ذكر أنه قد مَنَّ عليهم بأن بعث فيهم رسولاً منهم يطهرهم من الرذائل ويعلمهم ما ينفعهم. ومَنْ هذا شأنه لا يمكن أن يَغُلَّهم في غنائم.

وذكر أنه يلومهم على استكثارهم لمن قُتلوا منهم بعد أن قتلوا أضعافهم من المشركين في بدر، وقد قالوا في استكثارهم (أنى هذا) فأجابهم بأنه من عند أنفسهم لِمَا حصل منهم من المخالفات، وأنه حصل بإذنه ليميز المؤمنين من المنافقين الذين أبوا أن يقاتلوا، وقالوا فيمن قتل من المسلمين لو أطاعونا ما قُتِلوا، وقد أمر النبي (ص) أن يجيبهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم لو أطاعوهم نجوا من القتل، ثم نهى النبي (ص) والمسلمين أن يحسبوا هؤلاء الشهداء أمواتاً، وذكر أنهم أحياء عنده، وأنهم فرحون بما آتاهم من فضله، وأنهم مستبشرون

بنجاة إخوانهم الذين ثبتوا في القتال، واستجابوا للنبي (ص) من بعدما أصابهم القرح، وكان قد طلب منهم الذهاب وراء المشركين، حين بلغه أنهم أرادوا أن يرجعوا إليهم ثانياً ليقضوا عليهم، فلما علموا أن المسلمين يطلبونهم رجعوا عن عزمهم، وقد وعدهم على ذلك عظيمَ الأجر، وذكر أن بعض الناس ثبطوهم عن طلب المشركين وخوفوهم منهم فلم يسمعوا لهم، وأنهم مضوا في طلبهم ثم انقلبوا بِنعمةٍ منه وفَضل، إلى غير ذلك مما ذكره في أمرهم.

ثم نهى النبي (ص) أن يحزن لمسارعة المنافقين واليهود في مناصرة الكفر، لأنهم لن يَضُرُّوا الله شيئاً، وإنما يجنون على أنفسهم الحرمان من الثواب في الآخرة، ولهم فيها عذاب عظيم، ثم نهاهم أن يحسبوا أن إملاءه لهم خير لأنفسهم، لأنه إنما يُمْلِي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين. ثم ذكر أنه ما كان ليترك المؤمنين على ما كانوا عليه حتى يَميزَ الخبيث من الطيب بهذه المحنة، وأنه ما كان ليطلعهم على غيب القلوب، ولكنه يجتبي من رسله من يشاء للاطّلاع على ذلك الغيب، فيجب عليهم أن يؤمنوا بما يخبرونهم به من أسرارهم. ثم نهى الذين يبخلون من المنافقين بالجهاد بأموالهم أن يحسبوه خيراً لهم، لأنهم سيطوَّقونَ ما بَخِلُوا به في آخرتهم. وذكر أن ميراث السماوات والأرض من أموالهم وغيرها له دون غيره، فلا يصح لهم أن يبخلوا بها عليه. ثم ذكر أنه سمع ما تهكم به اليهود منهم حين طلبوا إلى بذل أموالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [الآية ١٨١]، وأنه سيكتب ما قالوا من ذلك وما حصل منهم قديماً مِنْ قَتْل الأنبياء بغير حق، ثم يذيقهم عليه في الآخرة عذاب الحريق، ثم ذكر أنهم تعللوا في ذلك بأنه عهد إليهم ألاّ يؤمنوا ويجاهدوا إلا مع رسولٍ يأتيهم بقربان تأكله نار تنزل من السماء، وكذبهم في ما تعللوا به بأنهم قد جاءتهم رسلهم بذلك فكذبوهم وقتلوهم. ثم ذكر أنهم إذا كَذَّبُوه فليس هو بأولِ من كُذِّبَ من الرسل، فقد كُذِّب رُسُلٌ من قبله جاؤوا بالمُعْجزات والكتب والكتاب المنير، ثم هَدَّدَهُم بأن كل نفس ذائقةُ الموت، وإنما يُوَفَّوْنَ أجورَهم يوم القيامة، فالفائز من فاز في ذلك اليوم، ولا قيمة للحياة الدنيا التي يحرصون عليها.

ثم ذكر للمؤمنين أنهم سَيُخْتَبَرُون في أموالهم وأنفسهم بالجهاد بعد أُحد، وأنهم سيسمعون من أهل الكتاب والمنافقين أذىً كثيراً كما سمعوا في هذه الغزوة، وأنهم، إذا صبروا على ذلك وَدَاروهم، فإن ذلك من عزم الأمور، وصواب التدبير. ثم ذكر لأهل الكتاب أنه قد أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا ما عندهم من البشارات بالنبي المنتظر، ثم نَهى النبيَّ (ص) أن يَحْسَبَ الذين يفرحون منهم بما أوتوا من التلبيس والكيد للمسلمين ويحبون مع هذا أن يحمدوهم بمفازة من عذاب الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

الخاتمة

الآيات [١٩٠ ـ ٢٠٠]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾. فختم السورة بالتنويه بالمؤمنين بعد أن انتهى من المعاندين من أهل الكتاب والمنافقين، فَذَكَر أن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب من المؤمنين. وهم الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، إلى غير هذا مما ذكره من أفعالهم وأقوالهم. ثم ذكر ما وعدهم به أن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عنده، وذكر ما أوعد به أولئك الكافرين على غرورهم بدنياهم وترك التفكر في آياته، وأنهم يتمتعون بذلك قليلا ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. ثم عاد إلى وعد المؤمنين فذكر أن لهم من تلك الجنات نعيماً خالداً لا يزول، وذكر أن من أهل الكتاب الذين لم يقعوا في ذلك الغرور مَنْ هُوَ مثل أولئك المؤمنين في إيمانهم وخشوعهم، وأن لهم أيضاً أجرهم في آخرتهم، ثم ختم ذلك بأمر المؤمنين بالصبر على ما بيّنه من الأذى في هذه السورة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

أسرار ترتيب سورة «آل عمران»(*)

قد تقدم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها.

قال الإمام: لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة، وكالمكملة لها، افتُتحت بتقرير ما افتُتحت به تلك، وصُرِّح في منطوق مطلعها بما طُوِي في مفهوم تلك[1].

وأقول: قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات.

أحدها: مراعاة القاعدة التي قررتها، مِنْ شرح كل سورة لإجمال ما في السورة التي قبلها، وذلك هنا في عدة مواضع.

منها: ما أشار إليه الإمام، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه. وقال في آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية ٣]. وذلك بَسْطٌ وإطنابٌ، لنفي الريب عنه.

ومنها: أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملا، وقسمه هنا إلى آيات محكمات، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله[2].

ومنها: أنه قال في الآية ٤ من سورة البقرة: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقال هنا: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) مفهوم مطلع البقرة: الدعوة إلى الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة/ ٣]. وهو مصرح به في مطلع هذه السورة بقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾.

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [الآية ٧].

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ مفصلا. وصرح بذكر الإنجيل هنا، لأن السورة خطابٌ للنصارى، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة، لأنها خطاب لليهود.

ومنها: أن ذكر القتال وَقَعَ في سورة البقرة مجملا بقوله المكرر في الآيتين ١٩٠ و٢٤٤: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقوله في الآية ٢١٦: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾. وفصلت هنا قصة أُحُد بكاملها[1].

ومنها: أنه أوجز في الآية ١٥٤ من سورة البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله: ﴿أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ وزاد هنا: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴿١٧٠﴾﴾. وذلك إطناب عظيم.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية ٢٤٧]. وقال هنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾، فزاد إطنابا وتفصيلا.

ومنها: أنه حذر من الربا في البقرة، ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً[2]. وزاد هنا قوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [الآية ١٣٠]، وذلك بيان وبسط.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ﴾ [الآية ١٩٦]، وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالا. وفصله هنا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [الآية ٩٧]، وزاد: بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [الآية ٩٧]. ثم زاد: تكفير من جحد وجوبه بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

ومنها: أنه قال في البقرة في أهل الكتاب: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ [الآية ٨٣]، فأجمل القليل. وفصله هنا بقوله: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [الآية ١٥٢] إلى ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(٢) وذلك في قوله تعالى من «البقرة»: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [الآية ٢٧٥]، وقوله منها: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [الآية ٢٧٦].

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾. فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً، وكذلك قوله في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [الآية ١٤٣]. في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام، وأتى في هذه بصريح البيان فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [الآية ١١٠]. فقوله: ﴿كُنتُمْ﴾، أصرح في تقدم ذلك من ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾. ثم زاد وجه الخيرية بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الآية ١١٠][1].

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [الآية ١٨٨]. وبسط الوعيد هنا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية ٧٧]. وصدّره بقوله: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [الآية ٧٥].

فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة، وفي آل عمران مفصّلة.

الوجه الثاني: أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحاداً، وتلاحماً مُؤكّداً، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب: من إنزال الكتاب، وتصديقه للكتب التي قبله، والهدى إلى الصراط

(١) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران: أن الصراط المستقيم ذكر مجملا في الفاتحة، ثم عينه في الآية الثاني من البقرة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله، بالاعتصام بحبل الله، فلما كان الصراط المستقيم دقيقاً جداً، ويحتاج السائر عليه الى غاية اليقظة، حث الله على الاعتصام بكتاب الله، وسماه حبلا ليناسب الصراط الدقيق، حيث يَحْمَى السائر عليه من الزلل. وحذر من الفرقة، ودعا الى التذكير الدائم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر بمثابة التعليم الدائم، وتصحيح الأخطاء الناشئة عن الهوى. وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاعي الجزء الأول ورقة: ١١٧٧، ب).

المستقيم[1]. وتكررت في البقرة آية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ [الآية ١٣٦] بكمالها، ولذلك أيضا ذكر في هذه ما هو تالٍ لما ذكر في تلك، أو لازم في تلك، أو ملازم له.

فذكر هناك خَلْقَ الناس، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام[2]. وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده[3]. وألطف من ذلك: أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب، وهو عيسى (ع)[4]، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم، لأنها أول السور، وآدم أول في الوجود وسابق، ولأنها الأصل، وهذه كالفرع والتتمة لها، فمختصة بالإعراب [والبيان].

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود وَلَدٍ بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم، لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها.

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم في قوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ [الآية ٥٩]. والمقيس عليه لا بد من أن يكون معلوماً، لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم.

ومن وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الآية ٢٤]، ولم يقل في الجنة: أعدت للمتقين مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً[5]، وقد ورد ذلك في سورة آل عمران بقوله جل وعلا: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾. فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة.

---

(١) وذلك قوله سبحانه وتعالى في أول آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾.

(٢) وذلك قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية٦].

(٣) خَلْق آدم في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [الآية ٣٠] وخَلق أولاده في آل عمران في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [الآية ٦].

(٤) وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾.

(٥) وذلك قوله تعالى في البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها.

وأمر آخر استقرأته، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسباً لأولها. وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة، فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الآية ٢٠٠].

وافتتحت البقرة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الآية ٤] وختمت آل عمران بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ١٩٩]. فـ لله الحمد على ما ألهم.

وقد ورد أنه لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة/٢٤٥]. قال اليهود: يا محمد، افتقرَ ربُّك، فسأل القرضَ عباده، فنزل قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [الآية ١٨١][1]. فذلك أيضاً من تلازم السورتين.

ووقع في البقرة حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [الآية ١٢٩]. ونزل في هذه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ١٦٤]. وذلك أيضاً من تلازم السورتين.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير: ٧/ ٤٤٢، وعزاه الى ابن أبي سلم وابن مردويه.



مكنونات سورة «آل عمران»(*)

٥٨ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [الآية ١٢].

هم يهود بني قَيْنقاع[١].

٥٩ ـ ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ﴾ [الآية ١٣].

هم أهلُ بَدْر، ثلاث مئة وثلاثة عشر[٢].

٦٠ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [الآية ١٣].

كانوا ألفاً. أخرجه ابنُ جَرير عن ابن مسعود.

وأخرج عن الربيع قال: كانوا تسع مئة وخمسين.

٦١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ﴾ [الآية ٢٣].

سُمّي منهم: النعمان[٣] بنُ عَمْرو، والحارثُ بن زيد، أخرجه ابنُ جَرير[٤] وابنُ أبي حاتِم عن ابن عباس.

٦٢ ـ ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [الآية ٣٣].

أراد: موسى وهارون.

وقيل: عيسى وأُمّه. حكاه الكَرماني، ورجّحه ابن عَسْكَر والسُّهَيلي.

٦٣ ـ ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [الآية ٣٥].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) كما رواه ابن إسحاق: انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٥٢.

(٢) تخريجه في الفقرة التالية، وانظر البخاري (عدة أصحاب بدر)، وانظر الفقرة رقم ٤٧ وقد سقط هذا المبهم من النسخ المطبوعة.

(٣) كذا في «الدر المنثور» ٢/ ١٤، وفي «الطبري»: «نعيم» والاختلاف في أسماء يهود كثير مشكل!.

(٤) ٣/ ١٤٥، وابن إسحاق وابن المنذر. «الدر المنثور» ٢/ ١٤.

أخرج ابنُ المنذر، عن عِكْرِمة أن اسمها حَنَّة[1]. وقال ابنُ إسحاق: اسمها حنَّة بنت قابوذ[2]؛ وقيل: فاقوذ بن قبيل[3]. أخرجه ابنُ جَرير.

٦٤ ـ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الآية ٣٩].

قال السُّدِّي: جبريل. أخرجه ابنُ جَرير.

٦٥ ـ ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [الآية ٤٠].

اسمها: إشياع بنت فاقوذ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن شُعيب الجَبائي[4] قال: كان اسمها أشيع.

٦٦ ـ ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [الآية ٤٤].

أخرج ابنُ عساكر في «تاريخه»، عن سعيد بن إسحاق الدمشقي في قوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ قال: على نهر بحلب يقال له قُوَيْق[5].

٦٧ ـ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [الآية ٣٩].

قال ابنُ عباس: عيسى بن مريم. أخرجه ابنُ أبي حاتم[6].

٦٨ ـ ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [الآية ٤٩].

هو الخفاش. أخرجه ابنُ جَرير [عن ابن جريج].

٦٩ ـ ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ [الآية ٥٢].

سمي منهم: قطرش، ويعقوبس، ولحيس، وانْدَرَابيس، وقيلس، وابن تُلما، ومتنا، ويوقاس، ويعقوب ابن حلقيا، ويداوسيس، وقياسا، ويودس، وكدمابوطا، وسرجس، وهو الذي أُلقي عليه شبهه. أخرج ذلك ابنُ جرير عن ابن إسحاق[7].

---

(١) وهو موافق لما في روايات «الدر المنثور» ٢/ ١٨ و ١٩، «الطبري» ٣/ ١٥٨، و«حنة»: اسم عبري، معناه: «حنان، حنون، نعمة»، كما في «قاموس الكتاب المقدس» ص: ٣٢٤.

(٢) كذا في النسخ الخطية؛ وفي «الطبري» ط شاكر وغيرها: «فاقوذ».

(٣) كذا في النسخ الخطية، وفي «تفسير الطبري» ط شاكر ٦/ ٣٢٨: «فاقوذ بن قبيل» وفي ط الحلبي ٣/ ٢٣٥ والخشاب: «قتيل» بدل «قبيل».

(٤) بلا تشديد للباء، راجع «الأنساب» ٣/ ١٧٦ للسمعاني، وهي نسبة إلى جبل في بلاد اليمن

(٥) راجع «معجم البلدان» و «تهذيب ابن عساكر» ٦/ ١٢١.

(٦) و«الطبري» ٣/ ١٧٢.

(٧) انظر أسماء الحواريين في «سيرة ابن هشام» ٢/ ٦٠٨، وفيها اختلاف عما هو مثبت في الخطيتين، وانظر أسماء الاثني عشر في «قاموس الكتاب المقدس» ص: ٤٠٣.

٧٠ ـ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟﴾ [الآية ٧٢].

وقال السُّدِّي: هم اثنا عشر حَبْراً من اليهود. أخرجه ابنُ جرير. وسمي منهم: عبدُ الله بن الصَّيف، وعَدي بن زيد، والحارث بن عوف[1]. أخرجه ابنُ جرير عن ابن عباس.

٧١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧٧].

قال عِكْرِمة: نزلت في أبي رافع، وكنانة بن أبي الحُقيق، وكعب بن الأشرف، وحُيَي بن أخطب.

٧٢ ـ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الآية ٨٦].

سُمِّيَ منهم: الحارث بن سُوَيد الأنصاري. أخرجه عبدُ الرزاق عن مجاهد، وابنُ جرير عن السُّدِّي.

وأخرج عن عِكْرِمة: أنها نزلت في اثني عشر رجلاً، منهم: أبو عامر الراهب، والحارث بن سويد بن الصامت، ووَحْوَح بن الأسلت.

زاد ابن عَسْكر: وطعمة بن أُبيرق.

٧٣ ـ ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية ١٠٠].

قالَ زيدُ بنُ أَسْلَم[2]: عَنَى به شاسَ بنَ قَيْس اليهودي. أخرجه ابنُ جَرير.

قال السُّهَيْلي: هم عمرو بنُ شاس، وأوس بنُ قبطي، وجبار بن صخر.

٧٤ ـ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [الآية ١١٣].

قال ابنُ عباس: نَزَلَتْ في عبد الله بنِ سَلاَم، وثَعْلَبَة بنِ سَعْيَة، وأُسَيْد بنِ سَعْيَة، وأسد بنِ عبيد، ومَنْ أَسْلَمَ معهم من يهود. أخرجه ابنُ جَرير، وابنُ أبي حاتِم.

وأخرج ابنُ جَرير عن ابن جريج قال: هم عبد الله بن سَلاَم، وأخوه ثعلبة بن سلام، وسَعْيَة[3]، ومبشر، وأسيد، وأسد ابنا كعب.

٧٥ ـ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ [الآية ١٢٢].

---

(١) في «الإتقان» ٢/١٤٩: «عمرو».

(٢) زيد بن أسلم: أبو عبد الله (أو أبو أسامة) المدني، ثقة عالم، فقيه مفسر، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، روي عنه الكثير من الآثار، توفي سنة ١٣٦.

(٣) «الطبري»: «شعية».

هما: بنو حارثة، وبنو سَلِمة. أخرجه البخاري ومُسْلِم، عن جابر بن عبد الله[1].

٧٦ ـ ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية ١٤٩].

قال السُدِّي: يَعْنِي أبا سُفيان بنَ حَرب. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[2].

٧٧ ـ ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [الآية ١٥٤].

هم المنافقون. أخرجه البخاري[3] والترمذي، وغيرهما عن أبي طلحة.

٧٨ ـ ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [الآية ١٥٤].

قال ذلك عبدُ الله بنُ أُبيّ. أخرجه ابنُ جرير[4]، عن ابن جُريج.

٧٩ ـ ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [الآية ١٥٤].

قال ذلك معتِّب بن قشير. أخرجه ابنُ أبي حاتِم، وغيرهُ عن الزُّبير.

و[5]: عبد الله بن أُبيّ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن الحَسَن[6].

٨٠ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ [الآية ١٥٥].

أخرج ابنُ مَنْدَه في «الصّحابة»[7] من طريق الكَلْبي، عن أبي صالح[8]. عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ قال نزلت في عُثمان[9]. ورافع بن المُعَلّى، وخارجة بن زيد.

(١) البخاري: (٤٠٥١) في المغازي و(٤٥٥٨) في التفسير، ومسلم (٢٥٠٥) في فضائل الصحابة.

(٢) وابن جرير في «تفسيره» ٤/ ٨٠.

(٣) الحديث في البخاري في التفسير، باب ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ برقم: (٤٥٦٢) وفي المغازي: (٤٠٦٨)، والترمذي (٣٠١١) في التفسير؛ لكن تعيين المنافقين جاء في الترمذي فقط.

(٤) في «تفسيره» ٤/ ٩٤.

(٥) أي وممن قال ذلك أيضاً.

(٦) انظر «الطبري» ٤/ ٩٤.

(٧) كتاب «الصحابة» هو «معرفة الصحابة» لم يطبع بعد ونسخه الخطية عزيزة.

(٨) هذا الإسناد من أوهى الأسانيد وأضعفها، حتى إن الحافظ بن حجر قال عنه: هذه سلسلة الكذب، لا سلسلة الذهب.

(٩) هو ابن عفان، كما في رواية ابن إسحاق عن «الطبري» ٤/ ٩٦.

زاد عِكْرِمة: والوليد بن عقبة، وأبي حذيفة بن عتبة، وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان، أخوين من زريق.

أخرجه عَبْدُ بن حميد، وابن جرير[1]، وابنُ المنذر.

٨١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١٥٦].

قال ذلك عبد الله بن أُبيّ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن مُجاهِد.

٨٢ ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ [الآية ١٦٧].

القائل ذلك: عبد الله والِدُ جابر بن عبد الله الأنصاري.

والمقول لهم: عبد الله بن أُبيّ، وأصحابه. أخرجه ابنُ جرير عن السُّدِّي.

٨٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ [الآية ١٦٨].

قال الرَّبيع وغيرُه[2]: نزلت في عبد الله بن أُبيّ وأصحابِه.

أخرجه ابنُ أبي حاتِم، وابنُ جَرير.

٨٤ ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [الآية ١٦٩].

قال أبو الضُّحى[3]: نَزَلَتْ في قَتْلى أُحُد؛ وهم سَبْعُون: أربعة من المهاجرين، وسائرهم من الأنصار.

أخرجه[4] سعيدُ بنُ منصور.

٨٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [الآية ١٧٢].

سُمِّي منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزُّبَيْر، وسَعْد، وطَلْحة، وابنُ عوف، وابنُ مسعود، وحُذَيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح، في سبعين رجلاً.

---

(١) ٩٦/٤. لكن عكرمة لم يزد إلا أبا حذيفة بن عتبة. وأما سعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، فقد زاده ابن إسحاق، فهو سبق نظر من المؤلف رحمه الله تعالى. ولم أرَ في «الطبري» ذكراً للوليد بن عقبة.

(٢) ابن إسحاق، والسُّدِّي، وابن جريج.

(٣) أبو الضُّحى: مسلم بن صبيح الهمداني الكوفي، ثقة فاضل، مات سنة (١٠٠) هـ.

(٤) والأربعة الذين هم من المهاجرين، حمزة بن عبد المطلب: ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبد الله بن جحش. «الدر المنثور» ٩٤/٢ ـ ٩٥. وانظر «تفسير الطبري» ١١٣/٤.

أخرجه ابنُ جرير[1] من طريق العَوْفي عن ابن عباس.

وسمّى عِكْرِمةُ: جابرَ بنَ عبد الله. أخرجه ابنُ جرير.

٨٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [الآية ١٧٣].

قائل ذلك أعرابيٌّ من خزاعة. أخرجه ابنُ مَرْدُوْيَه عن أبي رافع.

وقال ابنُ إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: رَكْبٌ من عبد القيس. أخرجه ابن جرير.

وقال السُّهَيْلي: نُعيم بن مسعود الأشجعي.

٨٧ ـ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [الآية ١٨١].

قائل ذلك: فِنْحاص اليهودي من بني مَرْثَد.

أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن ابن عباس، وابنُ جَرِير عن السُّدِّي.

وأخرج[2] عن قَتَادة: أنه حُيَيّ بن أَخْطَب.

قال ابنُ عَسْكَر: وقيل: هو كعب بن الأشرف.

٨٨ ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ [الآية ١٨٨].

قال ابنُ عباس: يعني فِنْحاص، وأشيع، وأشباههما من الأحبار.

أخرجه ابنُ جرير.

٨٩ ـ ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الآية ١٩٣].

قال محمدُ بنُ كعب[3]: هو القرآن.

---

(١) ٤/ ١١٧ ـ ١١٨. بسند ضعيف. وروى الحميدي في «مسنده» برقم (٢٦٣) والطبري (٨٢٣٩) عن عائشة فذكرت: أبا بكر، والزبير بن العوام.

وروى نحو حديث الحميدي البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها برقم (٤٠٧٧) في المغازي، وابن ماجه، وأحمد، والحاكم ٢/ ٢٩٨، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» كما في «الدر المنثور» ٢/ ١٠٢. وقال الحافظ في «فتح الباري» ٧/ ٣٧: وعند ابن أبي حاتم من مرسل الحسن ذكر الخمسة الأولين [أي: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمار بن ياسر] وعند عبد الرزاق من مرسل عروة ذُكر ابن مسعود».

ملاحظة: في «فتح الباري» زيادة عمار بن ياسر؛ وهي ليست في «تفسير الطبري».

(٢) «ابن جرير» ٤/ ١٣٠.

(٣) محمد بن كعب القُرَظِيّ: ثقة عالم، قال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن سعد: كان ثقة، ورعاً، كثير الحديث، روى له الأئمة الستة.

وقال ابنُ جُرَيج: هو محمد (ص).
أخرجهما ابنُ أبي حاتم وغيرُه[1].

٩٠ ـ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [الآية ١٩٩].

نَزَلَتْ في النَّجاشي. كما أخرجه النَّسائي من حديث أنس، وابنُ جرير[2] من حديث جابر.

وقال ابن جُرَيْج: نزلت في عبد الله بن سَلاَم وأصحابه. أخرجه ابنُ جَرِير.



(١) «الطبري» ٤/١٤١.

(٢) ٤/١٤٦ = رقم (٨٣٧٦) ط شاكر. وقال الشيخ أحمد شاكر: وهذا الحديث ضعيف. انتهى. وانظر تفسير «ابن كثير» ١/٤٤٣.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «آل عمران»(*)

١ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

أقول: القَيّومُ من أسماء الله ـ عز وجل ـ وكذلك القَيّام، وهو الذي لا نِدَّ له. والقَيُّوم: فَيْعُول، فهو قَيْوُوم، فأُعِلّت الواو، وأُبدلت ياءً، وأُدغمت فيها. وكأنَّ القَيّوم مبالغة القائم. وأكثر ما جاء على فَيْعُول يفيد الوصف في «يَوْمٌ صَيْخُودٌ»: شديد الحرّ، و«أتانٌ قَيْدُودٌ»: طويلة.

وقد يأتي عَلَماً، نحو طَيْفُور، وهو طُوَيْفِر، واسمُ أبي يزيد البسطامي، وسَيْحُون اسم نهر في ما وراء النهر. ومَيْسُون اسم الزبّاء الملكة، وبنتِ بَحْدَل أم يزيد بن معاوية.

ومن الأعلام الحديثة: صَيْهُود وشَيْبُوب.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾.

أقول: لقد انتهت الآية الثالثة كما في المُصْحف الشريف بكلمة الإنجيل، وكان يمكنها أن تنتهي بقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، لأنها متعلقة بها، متصلة بالمعنى محتاجة إلى ذلك. غير أن هذه التكملة الضرورية كانت من الآية ٤، في حين كان يمكن الآية الرابعة أن تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، ولكن بسبب من الحرص على أن تكون الآيات متناسبة في طولها كان ما هو ثابت في المصحف.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل» لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ [الآية ٧].

جاء في «لسان العرب»، مادة «شبه»:

وفي التنزيل العزيز: ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ﴾.

قيل: معناه يشبه بعضها بعضاً.

قال أبو منصور: وقد اختلف المفسرون في تفسير قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ﴾، فروي عن ابن عباس أنه قال: المتشابهات: الم، الر، وما اشتبه على اليهود من هذه ونحوها.

قال أبو منصور: وهذا لو كان صحيحاً عن ابن عباس كان مُسَلَّماً له، ولكنَّ أهل المعرفة بالأخبار وهَّنوا إسناده، وكان الفرّاء يذهب إلى ما رُوي عن ابن عباس.

ورُوِي عن الضحاك أنه قال: المحكمات ما لم يُنسَخ، والمتشابهات ما قد نُسِخ.

وقال غيره:

المتشابهات: هي الآيات التي نزلت في ذِكْر القيامة والبعث، ضَرْبَ قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ﴾ [سبأ].

وضَرْبَ قوله جلّ وعلا:

﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة].

فهذا الذي تشابه عليهم، فأعلمهم الله الوجهَ الذي ينبغي أن يستدلوا به على أن هذا المتشابِهَ عليهم كالظاهر لو تدبَّروه، فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس].

أي: إذا كُنتُم أقررتم بالإنشاء والابتداء فما تنكرون من البعث والنشور، وهذا قول كثير من أهل

العلم، وهو بيّن واضح، ومما يدلّ على هذا القول قوله عزّ وجل:

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [الآية ٧].

أي: أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعْلَمَ الله أنّ تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ، والدليل على ذلك قوله:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف/٥٣] يريد قيامَ الساعة وما وُعِدوا من البعث والنشور.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة/٢٥] فإنّ أهل اللغة قالوا: معنى «متشابهاً» يشبه بعضُه بعضاً في الجودة والحسن.

وقال المفسرون: «متشابهاً» يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ويختلف في الطعم، ودليل المفسرين قوله تعالى من الآية نفسها: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾.

وفي الحديث في صفة القرآن: «آمنوا بمتشابهه واعملوا بِمُحكميه»، المتشابه: ما لم يُتلَقَّ معناه من لفظه، وهو على ضَرْبَين:

أحدهما إذا رُدَّ إلى المحكم عُرِفَ معناه. والآخر ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته، فالمتتبِّع له مُبْتَغٍ للفتنة لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيء تَسْكُنُ نفسه إليه.

أقول: لقد صرفت لغة القرآن مادة «تشابه» إلى مصطلح علمي من مصطلح التنزيل، ابتعاداً عن الأصل في قولنا: تشابَه الشيئان مثل اشتَبَها، أي: أشْبَهَ كل واحد منهما صاحبه.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الآية ٩].

قال الزمخشري «في الكشاف ١/ ٣٣٩»:

﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ﴾، أي: تجمعهم لحساب يومٍ، أو لجزاء يومٍ كقوله تعالى:

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التغابن/٩]. وقُرِئ: (جامعٌ الناسَ)، على الأصل.

أقول: والقراءة الشهيرة والمثبتة في التنزيل العزيز هي بإضافة «جامع» إلى الناس. وهذا يعني أنه، سبحانه، سيجمعهم في يوم لا ريب فيه، وهو قيام الساعة.

والدلالة على الاستقبال، وهذا يخالف ما ذهب إليه النحويون كما سنبيّن:

قال النحويون:

لا يخلو اسم الفاعل من أن يكون مقروناً بـ«أل» أو مجرّداً، فإن كان مجرّداً عَمِل عَمَلَ فعله، من الرفع والنصبِ إن كان مستقبلاً أو حالاً، نحو:

هذا ضاربٌ زيداً الآن، أو غداً، وإنما عَمِل لِجَرَيانه على الفعل الذي هو بمعناه، وهو المضارع. ومعنى جريانه عليه أنه موافق له في الحركات والسكنات، لموافقة «ضارب» ليضرب، فهو مشبه للفعل الذي هو بمعناه لفظاً ومعنًى.

وإن كان بمعنى الماضي لم يعمل لعدم جريانه على الفعل الذي هو بمعناه، فهو مشبه له معنًى لا لفظاً، فلا تقول: «هذا ضاربٌ زيداً أمسِ» بل يجب إضافته، فتقول: «ضارب زيدٍ أمس»، وأجاز الكسائي إعماله، وجعل منه قوله تعالى:

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف/١٨]، فذراعيه منصوب بباسط وهو ماض، وخرّجه غيره على أنه حكاية حال ماضية.

وقالوا:

وإذا وقع اسم الفاعل صلة للألف واللام، عمل ماضياً ومستقبلاً وحالاً، لوقوعه موقع الفعل، إذ حَقُّ الصلة أن تكون جملة فتقول هذا الضاربُ زيداً الآن أو غداً أو أمس، هذا هو المشهور من قول النحويين. وزعم جماعة ومنهم الرُّمّاني: أنه إذا وقع صلة للألف واللام، لا يعمل إلاّ ماضياً ولا يعمل مستقبلاً ولا حالاً...

أقول: وعلى هذا يكون اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ دالاً على المضي لأنه أضيف إلى (الناس)، ولكن الحقيقة أنه دالّ على الاستقبال، ومع ذلك كانت الإضافة.

وهذا يدل على أن استقراء النحاة غير وافٍ، فلم يستوفوا ما ورد في لغة التنزيل.

ومثل هذا ما ورد في هذه السورة نفسها، وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية/١٨٥].

فالدلالة على المستقبل حاصلة، ومع ذلك أضيف اسم الفاعل.

وقرأ اليزيدي: (ذائقةٌ الموتَ) على

الأصل. وقرأ الأعمش: (ذائقةُ الموتَ) بطرح التنوين مع النصب كقول أبي الأسود:

فذكرتُهُ ثم عاتبتُهُ
عتاباً رقيقاً وقولاً جميلاً

فألفيتُهُ غيرَ مستعتبٍ
ولا ذاكرَ اللهَ إلاّ قليلا

وقد أضيف اسم الفاعل (ذائقة) إلى (الموت) في آيتين أخريين هما: [الأنبياء/ ٣٥، والعنكبوت/ ٥٧].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [الآية ١٨].

قال الزمخشري في «الكشاف ١/ ٣٤٣»:

«﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، مُقيماً للعدل فيما يَقْسِمُ من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضِهم لبعض، والعمل على السوِيّة فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكّدة منه كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة/ ٩١].

فإن قلت لِمَ جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟ ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ قلت إنما جاز لعدم الإلباس كما جاز في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء/ ٧٢] أن انتصاب ﴿نَافِلَةً﴾ حال عن يعقوب.....

أقول: هذه المشكلات اللغوية التاريخية من النماذج التي تقدمها لغة القرآن، والتي تدل على أن لبناء العربية أسلوباً قد أحكم إحكاماً لأداء المعاني، فهو طوراً واضح بيِّن، وطوراً فيه إشكال، وجماع هذا أمر يقتضيه البيان القرآني.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [الآية ١٩].

قال الزمخشري في «الكشاف ١/ ٣٤٥»:

«..... إن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه، كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيّن جليّ كما ترى.....

وقد رد الشيخ محمد عليان على قولة الزمخشري من أن الإسلام هو

العدل والتوحيد فقال في حاشيته: «قوله: «فقد آذن أن الإسلام هو العدل تعسف لا يقتضيه النظم الكريم، لكن دعا إليه التعصب..... وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا في مذهب المعتزلة».

٧ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الآية ٢٠].

القول في «اتَّبَعَنِ» أن الأصل هو «اتبعني» بالياء التي هي ياء المتكلم.

فلِمَ اجتزئ بالنون المكسورة عن مدة الياء التي يقتضيها المعنى، كما يقتضيها سَنَنُ العربية؟ ولِمَ خرج خط المصحف على الأصل؟

لن يكون القول بأن خط المصحف توقيف لا يقاس عليه، جواباً عن هذين السؤالين على صدق هذا القول وأصالته.

وأرى أن لغة القرآن قد أصابت كل الإصابة في هذا الرسم، ذلك أن المسألة ليست مسألة رَسْم خاصة بلغة التنزيل، بل إنها مسألة تتصل بإجادة النظم والحفاظ على نسق موقَّع موزون، يخدم الكلمة في بنائها الخاص، كما يخدمها في مجاورتها لما بعدها. ألا ترى أن الاجتزاء بهذا المدّ القصير الذي توفره الكسرة بعد النون عن المد الطويل الذي يتحقق بالياء، يخدم الآية من قوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، فيجنّبها شيئاً من الطول، وبذلك يحسن الوقف، والوقف هنا شيء جائز لأرباب التلاوة الفنية، والوقف أحسن من الوصل على جوازه. كل ذلك من تمام حسن الأداء لهذه اللغة الشريفة المختارة.

ولو أنك استقريت النماذج الكريمة في آي القرآن التي صِير فيها إلى المدّ، وإلى قِصَرِه ابتغاءَ حُسْنِ الأداء لوجدتَ من ذلك الشيء الكثير الذي يُثبت أن العربية في القرآن، على إصابتها الفائقة في المعاني، والتحليق في مدارج الفكر، قد عُنيت باللفظ وبنائه عنايةً توفر الحُسْن والجمال والفن والإبداع. ألا ترى أن الهاء من «فيهِ» محركةٌ بالكسرة، وأنها في «عنه» محركة بالضمة، ولكنك تجد هذه الهاء في «بهِ» محركةً بالكسرة تتبعها في الرسم المصحفي ياء صغيرة؟

إن هذه الياء الصغيرة بعد الهاء من («به» ي)، إشارة إلى القارئ: أنه مُلزَم

أن يطيل قليلاً جداً من الكسرة بعد الهاء، بحيث يتولد من ذلك شيء من مدٍّ طويل. كل هذا يرمي إلى أن تُجَوَّد التلاوة فيتأتى من ذلك عربيّة فائقة الأداء ناصعة البيان.

ثم إنّ هذا يُظْهر أن للعربية نظاماً في أصوات المد واللين، قصيرِها وطويلها، وأن هذا النظام أداة حكيمة في مجيء هذه اللغة رشيقة البناء في مفرداتها وجملها، فقد يَقْصُر الصوت حتى يَؤُول إلى حركة هي الفتحة والكسرة والضمة، وقد يطول فيكون أصوات المد التي تدعى ألفاً وواواً وياءً[1].

على أن طول ما يدعى بـ«الحركات» ليس ثابتاً، فقد يختلف نفر عن آخر في هذا الطول، وقد تختلف الفتحة في طولها عن نظيرتها الفتحة الأخرى في الكلمة الواحدة، ومثل ذلك يقال في الكسرة والضمة، ألا تَرَى أن الضمة في «حُسام» غير الضمة في «كُسِرَ» المبنيّ للمجهول.

وإذا كان الناس متفاوتين في إخراج هذه الأصوات القصيرة بحسب طولها، فهم متفاوتون أيضاً في إعطاء شيء من هذه الفتحة إلى شيء من تلك الكسرة. وهم متفاوتون أيضاً في الأصوات الطويلة، فقد يختلف اثنان في مدّ كلمة «شاعر» مثلاً، فبعضهم يمد الفتح فيكون الألف، وآخر يقصر الفتح قليلاً، فيحمل الضم على كسرة «العين» فتطول قليلاً[2].

ومن أجل حُسن الأداء يُصار إلى القَصْر كما أشرنا في أصوات اللين، ألا ترى أن «يا»، أداة النداء يتحقق فيها المدّ كاملاً، إذا وَلِيَها صوت متحرك فتقول: «يا عبدَ الله»، ولكنها تَقْصُر كثيراً حتى تتحول إلى صوت قصير هو الفتحة إذا وَلِيَهَا صوت ساكن نحو: «يا ابْنَ مالكٍ».

ولقد كان مقدار المدّ مظهراً من مظاهر اللَّهَجات الخاصة في العربية الواسعة الرقعة. وما أظن أن كلمة «سَلْسَل»، وكلمة «سَلسال»، وهما بمعنًى، إلاّ شيء من هذا.

---

(١) لعل من أهم المشكلات اللغوية الصوتية، عدم التفريق في التسمية بين طبيعتين مختلفتين في الأصوات، فالواو والألف والياء، وهي من أصوات المد أو اللين غير الأصوات الصامتة الأخرى في «أمَرَ» و«وَجَدَ»، و «يَنَعَ» فالألف في الأولى هي همزة، والواو في الثانية صوت صامت، ومثل ذلك الياء في الثالثة.

(٢) قد يتبين هذا واضحاً في نطق المغاربة لهذه الألفاظ الفصيحة.

ثم ألا ترى أن طائفة من العرب في عصرنا يقولون «عمود»، وآخرين يقولون: «عامود» في نطقهم الدارج.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

تشتمل هذه الآية على فِقَر متسقة النظام، متساوقة يكاد يتصل بعضها ببعض، وهذا النظام يتيح لمن يتلو أن يعمد إلى ضرب من التقسيم يُسْعفه بوَقَفَات إن شاء، لا تنال من الوحدة الموضوعية التي تجعل من هذه الأقسام ما يأخذ بعضُها بِرِقاب بعض.

ومِثْلُ هذا يتحقق في الآية اللاحقة ٢٧:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قلت: إن هذه الفِقَر تُتيحُ لمن يتلو أن يقف وَقَفات، إنْ أحسَّ أنَّ الوقف يَحْسُن في تجويد التلاوة، والوقف جائز، على أنه أحسن من الوصل، وقد يكون العكس، وهو جواز الوقف في حين يكون الوصل أولى.

هذا كله من الرُّخَصِ فسحة للقارئ في تجويد التلاوة المحكمة.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [الآية ٣٧].

أقول: لا بد من وقفة على الفعل «دخل»، واستعماله في لغة التنزيل. لقد دلّ استقراؤنا للآيات التي اشتملت على هذا الفعل أنه لا بد أن يتطلب ما يتعلق به من الأسماء التي تفيد «المكانية». وفي هذه الحالة، يصل الفعل إلى مدخوله من غير أداة واسطة كحروف الخفض، ولنجتزئ من الآيات الكثيرة التي تفيد هذه الخصوصية بالآيات التي سنوردها:

قال تعالى:

١ ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص/١٥].

٢ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة/٢١٤].

٣ ـ ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب/٥٣].

٤ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر].

ومثل هذه الآيات آياتٌ أخرى استعمل فيها الفعل هذا الاستعمال.

وقد يُطوَى ذكر المكان الذي يصير إليه الداخل، فيكون الدخول على الآدميين، وهنا لا بد من حرف الجر «على» كما في الآيات التي نوردها:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف/ ٦٩].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص/ ٢٢].

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد].

وقد يظهر المكان المدخول فيه مع ذكر الآدميين كقوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [الآية ٣٧].

وقد استعمل فعل الدخول في بضع آيات، قاصراً لازماً غير متصل بمتعلق به كقوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾. [الأعراف/ ٣٨].

﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ [الأحزاب/ ٥٣].

﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف/ ٦٧].

ومن غير شك أن المتعلق وهو الاسم المكاني، أو المدخول عليهم من الآدميين قد طُوي ذكره في هذه الآية لعدم الحاجة إليه، وعلى هذا فالاستعمال واحد.

هذا كله يتصل باستعمال فعل الدخول في المحسوسات من الأسماء الدالة على الأمكنة والظروف المكانية، واستعماله في الدخول على العاقل من الآدميين، فإذا كان الدخول في الأمور العقلية، أو ما يدعى بأسماء المعاني فالاستعمال يختلف، وذلك أن الفعل يتطلب في هذه الحال حرف الجر «في» أو «الباء» كقوله تعالى:

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ [النصر].

﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة/ ٦١].

وقد يحمل على استعمال الفعل في الأمور المعنوية قوله تعالى:

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

والمراد بالدخول في العباد الاتصال بهم والعيش بينهم فجاز استعمال «في»، في حين عُطف عليه قوله:

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ وذلك لأن المدخول فيه من الأسماء الدالة على المكان.

ومن المفيد أن نشير إلى أن استعمال هذا الفعل يجاوز حقيقته مجازاً لعلاقة من العلاقات، فيصير الدخول بالزوج أي: المرأة بمعنى البناء بها، والتزوج منها كقوله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء/ ٢٣].

١٠ ـ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أقول: لا أُريدُ أن أعرض لمكر بني إسرائيل، وكيف قابلهم الله على مكرهم جزاءً وعقوبة، ولكني أود أن أقف على المكر ومعناه، وكيف ساغ أن يُنسَب إلى الله، جلّ شأنه.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل].

قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاءٌ سُمّيَ باسم مَكْر المُجازَى، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى/ ٤٠].

فالثانية ليست بسيئةٍ في الحقيقة، ولكنها سُمِّيَت سيئة لازدواج الكلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة/ ١٩٤].

فالأول ظلم، والثاني ليس بظلم، ولكنه سُمّيَ باسم الذنب لِيُعلَمَ أنّه عقابٌ عليه وجزاءٌ به، ويجري مَجرى هذا القول قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء/ ١٤٢].

وفي حديث الدعاء: «اللهم امكُرْ لي ولا تمكُرْ بي».

قال ابن الأثير: مَكْر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه.

أقول:

هذه حقيقة المكر، وهذه حقيقة نسبته إلى الله، جلّ وعزّ، ولم يلتفت أهل العربية في عصرنا إلى حسن استعمال هذه الكلمة في لغة التنزيل، بل ظلّت الكلمة على ما نعرف من دلالة الخديعة والاحتيال.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الآية ١١٢].

الفعل «ثقف» بهذه الدلالة عرفته لغة التنزيل في ست آيات، في أربع منها جاء مبنياً للمعلوم، وفي اثنين ورد

مبنياً للمجهول، والآية التي ذكرناها إحدى هاتين، والفعل فيها بمعنى الوجود. وقد كنا أشرنا إلى هذا بإيجاز كما في الآية ١٩١ من سورة البقرة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ بمعنى أينما وُجِدوا.

أقول:

لم يبق هذا الفعل بهذه الدلالة في العربية المعاصرة، على أننا لا نجده بهذه الدلالة في العربية القديمة، ولم يرد من ذلك إلا بيت واحد ذكره أهل المعجمات غير منسوب إلى قائل. إن هذا يعني أن لغة القرآن قد أكدت هذا الفعل بهذا المعنى الواضح.

أما دلالة الفعل الأخرى فهي قولنا: ثَقِفَ الشيء ثَقْفاً وثِقافاً وثُقوفةً، أي: حَذِقَه.

ورجلٌ بيِّنُ الثَّقافة وهو ثَقِفٌ وثَقْفٌ إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به.

وثَقُفَ الخَلُّ ثَقافةً فهو ثَقِفٌ وثَقيفٌ، أي: حَذَقَ وحَمُضَ جداً. والثِّقافة والثَّقافة: العمل بالسيف.

والثِّقاف: ما تُسَوَّى به الرماح، وتثقيفها تسويتُها.

أقول:

هذا أكثرُ ما أُثِرَ في العربية من هذه الكلمة فما حالها اليوم. لعل من حياة المواد اللغوية، والمسيرة التي تنتابها، ما يذكّرنا بمختلف نماذج الكائن الحي في دنيانا هذه، فمن نشأة وحياة واستمرار إلى نكوص وانزواء ففناء، أو إلى استحالة أخرى تقطع الصلة بين الأول والآخر. ولعل من هذا أيضاً ما كتب لمادة «الثقافة» في عصرنا هذا. إن «الثقافة»، في موادنا اللغوية المعاصرة، كلمة ذات مدلول كبير واسع، يتصل بالحضارة والفكر والعلم والخُلُق وسائر ضروب السلوك البشري. ولعل من الصعب أن يُصار إلى تعريفها تعريفاً يُستوفَى فيه ما يجب أن يشتمل عليه. وما كان لهذه الكلمة أن تنال ما نالته لولا الأثر الأجنبي، الذي عرض لما يحزبنا نحن العرب في شؤون الفكر والعلم، وسائر مواد الحضارة المعاصرة.

إن هذا الأثر الأجنبي هو ما نعانيه من الرغبة في ترجمة المعاني الأجنبية، وأخصّ منها الغربية في عصرنا الحديث. لقد واجه أهل الفكر في عصرنا مادة culture: وعَرَفوا شيئاً من

دلالاتها في اللغات الغربية، وقد أفضى إلى هذه الدلالات، من غير شك، علاقاتٌ عدة هي المشابهة والقرينة، كما أفضى إليها التطور اللغوي التاريخي، الذي يندرج في حقول مختلفة.

إذا كانت هذه الكلمة تعني «الفلاحة»، أو «الزراعة»، فلا شك أنها، بسببٍ من المشابهة بعد مسيرة تطورية، إنما تعني التربية والسلوك والمرانة.

ومن أجل هذا، اقتضى جماع هذه المواد والأفكار أن يَثقُل رصيد هذه الكلمة ويزداد ثِقَلاً يوماً بعد يوم.

فماذا صنع المترجمون العرب؟

لقد أخذوا هذه الكلمة الواسعة فنظروا إليها بما يخدم السلوك والتربية، فدخلت في عداد المعجم التربوي التعليمي، ثم كتب لها أن تتسع فتغزو دوائر أخرى.

ثم كيف اختاروا مادة «ثقف» للدلالة الجديدة الوافدة؟

لقد وجدوا أن في هذه المادة العربية كلمة «ثِقاف»، وهو من أسماء الآلات والأدوات، والثِّقاف ما تُقوَّم به الرماح وتُسَوَّى، فاشتقوا منه مصدراً هو «الثقافة»، لما في الأصل، وهو اسم الآلة، من معنى التقويم والتسوية والتعديل، وكل ذلك يدخل في معاني التربية القائمة على تقويم السلوك البشري.

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن العربية البَدَوية، بثروتها القديمة ذات الأصول البدوية، قد أمدَّت العربية الحضارية بمصدر لغوي كبير، أفضى إلى مواد الحضارة المشهورة، كالعقل والحكمة، والحكم والحكومة، والنقد والبناء، والجمال وغير ذلك مما عُرف في المعاني الحضارية. ولو أنك أعملت الفكر لاهتديت بيسر إلى تلك الأصول البدوية التي أوشك أن يَمَّحي أثرها.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [الآية ١١٨].

أريد أن أقف على الفعل «ألاَ، يألو».

قالوا: ألاَ يألو ألواً وأُلُوّاً وأُلِيّاً، وألَى يُؤلِّي تَألِيَةً.

ومثلهما إئتَلَى بمعنى قَصَّر وأبطأ، قال:

وإنْ كَـنـائـنـي لَـنِـسَـاءُ صِـدقٍ
فـمـا أَلَّـى بَـنِـيَّ ولا أسـاؤوا

والعرب تقول: أتاني فلان في حاجةٍ فما أَلَوْتُ ردّه، أي: ما استطعتُ. وآتاني في حاجةٍ فألَوْتُ فيها، أي: اجتهدت.

وقال الأصمعي: يقال: ما أَلَوْت جَهْداً، أي: لم أدع جُهداً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ الآية، أي: لا يقصِّرون في فسادكم.

وقولهم: لا آلوكَ نُصحاً ولا آلوكَ جَهْداً، والمعنى: لا أمنعك نُصحاً ولا أنقُصُكَهُ.

أقول: هذا هو المعنى الذي ما نزال نستعمله في عربيتنا المعاصرة فنقول: فلان لا يألو جَهْداً في عمله، أي: لا يقصر، ولا ينقص من جهده.

ولـكـنـي أمـيـل إلـى أن أقـرر أن المعاصرين التزموا، في عربيتهم المعاصرة، في الألفاظ والجمل والأبنية والصفات، نماذجَ لا يَحيدون عنها قيد أنملة، وكأنّ العربية خلت من وجوه القول في هذه المسألة إلا ما أَلِفوا استعماله وسنشير إلى هذا الالتزام كلما عَرَضَ شيء من ذلك.

ألا تَرَى أنهم لَزِموا في الاستعمال الفعل المضارع المنفي بـ «لا»، ولم يدركوا أن الماضي «ألا» قد استعمله أهل الفصاحة طوال العصور. ولعل نفراً من العارفين بشيءٍ من العلم اللغوي يقولون: «لم يَألُ جَهداً» إذا ما أرادوا المُضيّ.

وكنا قد مررنا بإيجاز على هذه المادة الغنية المعطاء.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [الآية ١٢٢].

أقول: لنا في هذه الآية قولان: الأول في كلمة «هَمَّت»، والثاني في قوله: «تفشلا».

فأما الأول، فقد قالوا: هَمَّ بالشيء يَهُمُّ همّاً: نَواه وأراده وعزم عليه.

وأهمَّه الأمر: أقلقه وحَزَنَه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف/ ٢٤].

غير أني أريد أن أشير إلى الفعل «هَمَّ» في الآية ١٢٢ من سورة آل عِمْران. في قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ ومثله في [الآية ١١٣

من سورة النساء]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

إن الفعل «همّ»، في كلتا الآيتين، قد أُتبع بالمصدر المؤوّل من «أنْ والفعل»، وهذا الاستعمال يُذكّرنا بطائفة من الأفعال، أفرد لها النحاة باباً أسموه أفعال المقاربة والرجاء والشروع، وهي كاد وكرب وأوشك، وعَسَى وحَرَى واخلولق، وجَعَل وأخذ وشرع وقام وأنشأ ونحوها.

قلت: إن الفعل «همّ» في الآيتين يذكرنا بهذه الأفعال في استعمالها من حيث أنها يليها «أنْ والفعل»[1].

ألا تَرَى أن في قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ شيئاً من معنى «أوشك» واستعمالهما واحد.

وكان على النحاة الأوائل أن يقفوا على هذا الاستعمال، ويشيروا إلى هذه العلاقة كما أفصحت عنها لغة التنزيل العزيز.

وأما القول الثاني، فهو في معنى «الفشل»، لقد قالوا:

الفَشِلُ: الرجل الضعيف الجبان، وفَشِلَ الرجل فَشَلاً، أي: كَسِلَ وضَعُفَ وتَراخَى وجَبُنَ..

وعلى هذا يخرّج الفعل في الآية المذكورة.

ومثله في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الآية ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال/ ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال/ ٤٦].

أقول: فكيف آل الفعل في العربية المعاصرة؟ لقد صار الفعل «فشِلَ»، بمعنى خابَ وأخفَقَ في مَسعاه، يقال: فشل الولد في المدرسة، وفشل المشروعُ الفلاني، وفشِلَت التجربة.

أيكون هذا التحول في المعنى والدلالة ضرباً من الاتساع صارت

---

(١) إن قول النحاة إن لهذه الأفعال عملاً كعَمَل الفعل «كان»، أي: أنها تقتضي الاسم والخبر، وخبرها هو أن والفعل، قولٌ ضعيف متهافت، ولا يمكن أنْ يكون أنْ والفعل مسنداً كحال الخبر في «كان» من قولنا: كان زيدٌ شاعراً.

الكلمة به تعني الإخفاق والخيبة من الضعف والجبن والتراخي؟[1].

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [الآية ١٢٥].

قال الزمخشري: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من قولك: قَفَلَ من غزوته، وخَرَجَ من فوره إلى غزوةٍ أخرى، وجاء فلان ورَجَع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة، رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من: فارت القدر، إذا غَلَتْ، فاستعير للسرعة، ثم سُمّيت به الحالة التي لا رَيْثَ فيها، ولا تفريج على شيء من صاحبها. فقيل: خَرَجَ من فوره، كما تقول: خَرَجَ من ساعته، لم يلبث.

أقول: إن الاستعمال الجديد في العربية المعاصرة «على الفور» في قولهم مثلاً: جاء فلان وخرج على الفور، أو فوراً، ليس جديداً ذلك أن العربية في العصر العباسي عرفت هذا ودليلنا قول أبي حنيفة المذكور قبل قليل.

(١) ولشيوع هذا التجاوز في الاستعمال المعاصر للفعل «فشل»، ذهبوا إلى المزيد منه فقالوا: «أفشل» كقولهم: أفشلَ خطط العدو، بمعنى «أبطل»، وكل ذلك تجاوز جديد.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «آل عمران»(*)

أما قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ فإنّ ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على زنة: «الفَيْعُول» ولكن الياء الساكنة إذا كانت قبل واو متحركة قلبت الواو ياء. وأصله «القَيْوُومُ» و«الدَّيَّانُ»: «الفَيْعَال» و«الدَّيَّارُ»: «الفَيْعال» وهي من «دَارَ» «يَدُورُ» وأصله «الدَّيْوارُ» ولكن الواو قلبت ياء.

وأما ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية ٣] فنَصْبٌ على الحال.

وقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٤] فـ ﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال ولكن ﴿هُدًى﴾ مقصور فهو متروك على حال واحد.

وقال ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الآية ٧] ولم يقل: «أُمّهاتُ» كما تقول للرجل: «ما لِي نَصيرٌ» فيقول: «نَحْنُ نَصِيرُكَ» وهو يشبه «دَعْنِي من تَمْرَتان». قال(١) [من الرجز وهو الشاهد الثاني والخمسون بعد المئة]:

تَعَرَّضَتْ لي بمكانٍ حِلِّ
تَعَرُّضَ المُهْرَةِ في الطِّوَلِ
تَعَرُّضاً لم تَأْلُ عَنْ قَتْلاً لي(٢)

فجعله على الحكاية لأنه كان منصوباً

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن»، للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو منظور بن مرثد الأسدي، مجالس ثعلب، النشرة الثانية ص٥٣٤، واللسان «طول» و«قتل» وفي اللهجات، ٢٨٣، أنه رجل من بني فقعس.

(٢) في «مجالس ثعلب» «بمجاز» بدل «بمكان» و«قتلي» بدل «قتلالي» وفي اللسان «عرض» بـ «تعرضت لم تأل عن قتل لي» وتقديمه على المصراع الثاني وبلا نسبة. وفي «اتن» كما أورد الأخفش ولكن بلا نسبة أيضاً. وفي «طول» و«قتل» معزوا بـ «قتلي» وجاء في «طول» بتقديم المصراع الثالث على الثاني.

قبل ذلك كما ترى، كما تقول: «نُودِيَ» «الصلاةَ الصلاةَ» أي: تحكي قوله: «الصلاةَ الصلاةَ» وقال بعضهم[1]: إنَّما هِيَ «أَنْ قَتَلاَلِي» ولكنه جعله عيناً لأنَّ مِنْ لُغته في «أَنْ» «عَنْ»[2]. والنصب على الأمر كأنك قلت: «ضَرْباً لِزَيْدٍ».

وقال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [الآية ٧] لأن «كُلّ» قد يضمر فيها كما قال: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ [غافر/٤٨] يريد: كُلُّنا فِيها. ولا تكون «كلّ» مضمراً فيها وهي صفة انما تكون مضمراً فيها اذا جعلتها اسماً فلو كان «إِنَّا كُلاً فِيها» على الصفة لم يَجُزْ لأن الاضمار فيها ضعيف لا يتمكن في كل مكان.

وقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية ١١] يقول: «كَدَأْبِهِم في الشَرِّ» من «دَأَبَ» «يَدْأَبُ» «دَأْباً».

وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ١٢] أي: أَنَّكُمْ سَتُغْلَبُون. كما تقول: «قُلْ لِزيد»: «سَوْفَ تَذْهَبُ» أي: أنَّكَ سَوْفَ تَذْهَبُ. وقال بعضهم: (سيغْلَبون)[3] أي: قل لهم الذي أقول. والذي أقول لهم «سيُغْلَبُون». وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟﴾ [الأنفال/٣٨] فهذا لا يكون إلا بالياء في القرآن لأنه قال: ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾[4]. ولو كان بالتاء قال: (يُغْفَرْ لَكُم)[5] وهو في الكلام جائز

---

(١) هو الخليل بن أحمد. العين ١/ ٣١.

(٢) هي العنعنة وهي قلب الهمزة عيناً، وهي لغة تميم وقيل قيس أيضاً وقيل بل تميم وأسد قيل بل بني كلاب وقيل هذيل؛ اللهجات ٢٨٤.

(٣) القراءة بالياء كما في الطبري ٦/ ٢٢٦ الى جماعة من أهل الكوفة وفي السبعة ٢٠٢، والكشف١/ ٣٣٥ والتيسير ٨٦ والبحر ٢/ ٣٩٢ الى حمزة والكسائي وفي الجامع ٤/ ٢٤ الى نافع. وفي معاني القرآن ١/ ٥٤ و٦٣ و١/ ١٩١ و١٩٨٢ وحجة ابن خالويه ٨٢ بلا نسبة. اما القراءة بالتاء ففي الطبري ٦/ ٢٢٧، الى عامة قراء الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين. وفي السبعة ٢٠١ الى ابن كثير وابي عمرو وعاصم وابن عامر ونافع وفي الكشف١/ ٤٣٥ و٤٣٥ الى غير حمزة والكسائي، وان اجماع الحرميين وعاصم عليها، وفي التيسير ٨٦ والبحر ٢/ ٣٩٢ الى غير حمزة والكسائي وفي الجامع ٤/ ٢٤ الى عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس. وفي معاني القرآن١/ ٥٤ و٦٣ و١٩١ و١٩٢ وفي حجة ابن خالويه ٨٢ بلا نسبة.

(٤) في معاني القرآن١/ ١٩٢ نسبها الفراء الى من هو منهم، فقال في قراءتنا، ولعله قصد قراءة الكوفة والكسائي وحمزة في مقدمتهم.

(٥) في معاني القرآن ١/ ١٩٢ الى ابن مسعود.

بالتاء. وتجعلها «لَكُمْ» كما فسرت لك.

وقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [الآية ١٣] على الابتداء رفع، كأنه قال: «إحداهُما فئةٌ تقاتل في سبيلِ اللهِ»[1] وقُرِئَت جرّاً على أول الكلام على البدل[2] وذلك جائز. قال الشاعر[3] [من الطويل وهو الشاهد الثالث والخمسون بعد المئة]:

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ: رِجْلٌ صَحِيحَةٌ
وَرِجْلٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الحَدَثَانِ[4]

فرفع. ومنهم من يجرّ على البدل ومنهم من يرفع على: احداهما كذا واحداهما كذا. وقال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الرابع والخمسون بعد المئة]:

[و] إنَّ لها جارَيْنِ لَنْ يَغْدِرا بها
رَبِيبُ النَّبِيِّ وابْنُ خَيْرِ الخَلائِفِ[5]

رفع، والنصب على البدل. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [ص] وان شئت جعلت «جنات» على البدل أيضاً. وان شئت رفعت على خبر «إنَّ»، أو على «هُنَّ جنّاتُ» فيبتدأ به. وهذا لا يكون على «إحداهما كذا» لأن ذلك المعنى ليس فيه هذا ولم يقرأه أحد بالرفع[6]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام/ ١٠٠] فنصب على البدل[7] وقد يكون فيه الرفع على «هُم الجِنّ»[8].

---

(١) في الجامع ٤/ ٢٥ والبحر ٢/ ٣٩٣ الى الجمهور، وفي الطبري ٦/ ٢٣١ أن إجماع الحجة من القراء على هذا، وفي معاني القرآن ١/ ١٩٢ بلا عزو.

(٢) في الشواذ ١٩ الى الزهري ومجاهد، وفي الجامع ٤/ ٢٥ الى الحسن ومجاهد، وفي البحر ٢/ ٣٩٣ الى مجاهد والحسن والزهري وحميد، وفي معاني القرآن ١/ ١٩٢ وفي الطبري ٦/ ٢٣٢ بلا نسبة.

(٣) هو النجاشي الحارثي قيس بن عمرو بن مالك، النوادر ١٠ الحماسة الشجرية ١/ ١٢٧ والوحشيات ١١٣ والخزانة ١/ ٤٠٠.

(٤) في النوادر: ورجل رمت فيها يد الحدثان، وفي الحماسة بـ وكنتم «وسليمة» وفي الوحشيات به «وكنتم» أيضاً.

(٥) استشهد به في معاني القرآن كما سبق من غير عزو. وجاء في ديوان معن بن أوس ص٣٥ بـ «إنّ».

(٦) قراءة الجر في البحر ٧/ ٤٠٤ الى الجمهور، وفي الكشاف ٤/ ١٠٠ بلا نسبة، وقراءة الرفع في الشواذ الى عبد العزيز بن رفيع وأبي حيوة، وفي البحر ٧/ ٤٠٥ زاد زيد بن علي.

(٧) في البحر ٤/ ١٩٣ الى الجمهور، وفي معاني القرآن ١/ ٣٤٨ والطبري ١٢/ ٧ بلا نسبة.

(٨) الرفع في الشواذ ٣٩ الى أبي حيوة، وزاد في البحر ٤/ ١٩١ يزيد بن قطيب.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام/ ١١٢] على البدل ورفع على «هُمْ شَيَاطِينُ» كأنه اذا رفع قيل له، أو عُلِمَ أنه يقال له «ماهُمْ»؟ أوْ «مَنْ هُمْ» فقال: «هُمْ كَذا وكَذا». واذا نصب فكأنه قيل له أو علم أنه يقال له «جَعَلَ ماذا» أو «جَعَلُوا ماذا» أو يكون فعلاً واقعاً بالشياطين ﴿عَدُوًّا﴾ حالاً، ومثله ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق] كأنه قيل أو علم ذلك فقال «بناصية»[1] وقد يكون فيه الرفع على قوله: «ما هي» فيقول (ناصيةٌ)[2] والنصب على الحال. قال الشاعر [من البسيط وهو الشاهد الخامس والخمسون بعد المئة]:

إنّا وَجَدْنا بَنِي جُلَّانَ كُلَّهُمُ
كَسَاعِدِ الضَّبِّ لا طُولٌ وَلا عِظَمُ[3]

على البدل أي كـ «لا طول ولا عظم» ومثل الابتداء ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الحج/ ٧٢].

وقوله: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [الآية ١٥] كأنه قيل لهم: «ماذا لَهُمْ»؟ و«ماذاكَ»؟ فقيل: «هُوَ كَذا وَكَذا». وأمّا ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة/ ٦٠] فإنما هو على «أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ حَسَباً» و«بِخَيْرٍ مِنْ ذلكَ حسباً». وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة/ ٦٠] موضع جرّ على البدل من قوله ﴿بِشَرٍّ﴾ ورفع على «هُوَ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ».

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [الآية ١٤] مهموز منها موضع الفاء لأنه من «آبَ» «يَؤُوبُ» وهي معتلة العين مثل «قُلْتَ» «تَقُولُ» «والمَفْعَلُ» «مَقال». تقول: «آبَ» «يَؤُوبُ» «إياباً» قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية] وهو الرجوع. قال الشاعر[4] [من الطويل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد المئة]:

---

(١) الجر هو في البحر ٨/ ٤٩٥ الى الجمهور.

(٢) في الشواذ ١٧٦ الى الكسائي في رواية.

(٣) في الحيوان ٦/ ١١٢ بغير نسبة، وفي الخزانة ٢/ ٣٦٤ كذلك وبلفظ «قصر» بدل «عظم».

(٤) هو مضرس الاسدي، البيان والتبيين ٣/ ٤٠، وقيل معقر بن حمار البارقي او سليم بن ثمامة الحنفي، او عبد ربه السلمي، اللسان «عصا»، وفي الاشتقاق ٤٨١ انه لمعقر، وكذلك في «المؤتلف والمختلف» ١٢٨.

فَأَلْقَتْ عَصاها وَٱسْتَقَرَّ بِها النَّوى

كَما قَرَّ عَيْناً بِالإِيابِ المُسافِرُ

وأمّا «الأوّابُ» فهو الراجع إلى الحق وهو من: «آبَ» «يَؤُوبُ» أيضاً. وأمّا قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ/١٠]، فهو كما يذكرون التسبيح أو هو - واللهُ أَعْلَمُ - مثلُ الأوّلِ يقول: «ارْجِعِي إِلى الحَقِّ» و «الأوّابُ» الراجعُ إلى الحَقِّ.

وقال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الآية ١٧] الى قوله ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ [الآية ١٧] موضع جر على ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ [الآية ١٥] فجرّ بهذه اللام الزائدة.

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [الآية ١٨] إنما هُوَ «شَهِدُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إلاّ هُوَ قائِماً بالقِسْطِ» نصب ﴿قَآئِمًۢا﴾ على الحال.

وقال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ١٩] يقول ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية ١٩] ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الآية ١٩][1].

وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية ٢٨] بكسر ﴿يَتَّخِذُ﴾ لأنه لقيته لام ساكنة وهي نهي فكسرته.

وقال الله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [الآية ٣٠] لأنَّ «البَيْنَ» هُهُنا ظرف وليس باسم. ولو كان اسماً لارتفع «الأمَدُ». فاذا جئت بشيء هو ظرف للآخر وأوقعت عليه حروف النصب فانتصب نحو قولك: «إنَّ عِنْدَنا زَيْداً» لان «عِنْدَنا» ليس باسم ولو قلت: «إنَّ الذِي عِنْدَنا» قلت: «زَيْدٌ» لأن «الذي عندنا» اسم.

وقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية ٣٤] فنصبه على الحال[2]: ويكون على البدل[3] على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [الآية ٣٣] وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [الآية ٣٥] فقوله ﴿مُحَرَّرًا﴾ على الحال.

وقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ

---

(١) نقله عنه في إعراب القرآن ١/١٤٩ و١٥٠، واعراب القرآن للزجاج ٢/٧١٩، والجامع ٤/٤٤.

(٢) نقله في اعراب القرآن ١/ ١٥٤ والجامع ٤/ ٦٤. وفيهما ان الكوفيين يرون النصب على القطع. و«القطع» يشير الى معنى الحال عند الكوفيين، وقد جاء النصب على القطع في هذا الموضع في معاني القرآن ١/ ٢٠٧.

(٣) نَسَبَهُ في الجامع ٤/ ٦٤ الى الزّجاج، والاخفشُ أسبق منه.

حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [الآية ٣٧][1] وقال بعضهم (وَكَفَلَها[2] زكرياءُ[3]) و(كَفَلَها)[4] أيضاً ﴿زَكَرِيَّا﴾[5] وبه نقرأ وهما لُغَتانِ[6] وقال بعضهم (وَكَفِلَها زَكرياء) بكسر الفاء. ومن قال: «كَفَلَ» قال «يَكْفُلُ» ومن قال «كَفِلَ» قال[7] «يَكْفَلُ». وأما «كَفُلَ» فلم أسمعها وقد ذكرت[8].

وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ [الآية ٣٨] لأن النون [في «لَدُنْ»] ساكنة مثل نون «مَنْ» وهي تترك على حال جزمها في الاضافة لأنها ليست من الأسماء التي تقع عليها الحركة، ولذلك قال: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ [النساء/٦٧][9]، وقال تعالى ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل/٦] فتركت ساكنة.

---

(١) تضعيف فاء «كفّلها» في الطبري ٦/ ٣٤٥ الى عامة قراء الكوفيين، وفي السبعة ٢٠٤ و٢٠٥ الى عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي، وفي الكشف ١/ ٣٤١، والتيسير ٨٧، والجامع ٤/ ٧٠، والبحر ٢/ ٤٤٢ الى الكوفيين، وفي معاني القرآن ١/ ٢٠٨ وحجة ابن خالويه بلا نسبة والاملاء ١/ ١٢٢ كذلك.

(٢) في الطبري ٦/ ٣٤٥ الى عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة، وفي السبعة ٢٠٤ الى ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو، وفي الكشف ١/ ٣٤١، والتيسير ٨٧، والجامع ٤/ ٧٠ الى غير الكوفيين، وفي البحر ٢/ ٤٤٢ الى السبعة غير الكوفيين، وفي حجة ابن خالويه ٨٣، ومعاني القرآن ١/ ٢٠٨، والاملاء ١/ ١٣٢ بلا نسبة.

(٣) رفع «زكرياء» ولا يظهر إلا مع المد والهمز هو في السبعة الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، وفي التيسير ٨٧ الى غير ابي بكر وحفص وحمزة والكسائي.

وفي الاصل (زكريا).

(٤) في الجامع ٤/ ٧٠ الى عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المزني، وفي البحر ٢/ ٤٤٢ اقتصر على المزني.

(٥) قصر «زكريا»، في الطبري ٦/ ٣٤٧ الى عامة قراء الكوفة، وفي الكشف ١/ ٣٤١ الى حفص وحمزة والكسائي، وكذلك في البحر ٢/ ٤٤٢ والتيسير ٨٧ وسماه في الأخير ترك إعراب «زكريا»، وفي معاني القرآن ١/ ٢٠٨، وحجة ابن خالويه ٨٣، والمشكل ٩٣ بلا نسبة. أما همز «زكرياء» ونصبه، ففي التيسير ٨٧ الى أبي بكر، وفي حجة ابن خالويه ٨٣ ومعاني القرآن ١/ ٢٠٨ بلا نسبة.

(٦) في «اللهجات» ٤٣٨، أن مدّ زكريا وقصرها لغتان حجازيتان، ويرى المؤلف أن المدّ لغة أهل الحضر والقصر لغة أهل المدر ٤٤٠. وفي إعراب القرآن ١/ ١٥٧ عن الفرّاء أن المد والقصر لغة أهل الحجاز، وأن حذف الالف لغة أهل نجد.

وفي معاني القرآن ١/ ٢٠٨، أن في «زكرياء» ثلاث لغات.

(٧) مجاز القرآن ١٥/ ٩١ ذكرت اللغتان.

(٨) نقل عنه في إعراب القرآن ١/ ١٥٧ والجامع ٤/ ٧٠.

(٩) ورد في ستة مواضع في المصحف الشريف أولها [النساء ٤/ ٦٧] وآخرها [القصص/ ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الآية ٣٧] فهذا مثل كلام العرب «يأكُلُ بِغَيْرِ حسابٍ» أي: لا يَتعصَّبُ عَلَيْه ولا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ. و﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1] و﴿أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ﴾ [الانعام/ ٦٢] يقول: «ليس في حسابه فكر ولا روية ولا تذكّر».

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ مثل «كثيرُ الدُّعاءِ» لأنه يجوز فيه الألف واللام تقول: «أنتَ السَّميعُ الدُّعاءِ» ومعناه «إِنَّكَ مَسْمُوعُ الدُّعاءِ» أي: «إِنَّكَ تَسْمَعُ ما يُدْعَى بِهِ».

وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ [الآية ٣٩][2]. ويقول من كسر همزة «إنَّ»: لأنَّهُ كأنه قال ﴿نادَتْهُ الملائِكَةُ﴾ فقالت: (إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ) وما بعد القول حكاية. وقال بعضهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾[3] يقول: «فنادته الملائكة بذلك».

وقال تعالى: ﴿يَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [الآية ٣٩] وقوله ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ معطوف على «مُصَدِّقاً» على الحال.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ [الآية ٤٠] كما تقول «وَقَدْ بَلَغَنِي الجَهْدُ» أي: أنا في الجَهْدِ والكِبَر.

وقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [الآية ٤١] يريد: «أَنْ لا تُكَلِّمَ الناسَ إلاّ رَمْزاً» وجعله استثناء خارجاً من أول الكلام[4]. والرمز: الايماء.

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ [الآية ٤٢] فـ «إِذْ» ها هنا ليس له خبر في اللفظ.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [الآية ٤٥] و﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [الآية ٣٠] وأشباهُ هذا في «إِذْ» و«الحِين» وفي «يَوْم» كثير. وإنما حسن ذلك للمعنى،

---

(١) ورد في سبعة مواضع في الكتاب الكريم أولها [البقرة/ ٢٠٢] وآخرها [غافر/ ١٧].

(٢) في المصحف بفتح همزة «أنّ» وكسرها قراءة هي في الطبري ٦/ ٣٦٦ الى بعض أهل الكوفة، وفي السبعة ٢٠٥، والكشف ١/ ٣٤٣، والتيسير ٨٧، والبحر ٢/ ٤٤٦ الى حمزة وابن عامر، وفي الجامع ٤/ ٧٥، إلى الكسائي وابن عامر، وفي معاني القرآن ١/ ٢١٠ بلا نسبة.

(٣) هي القراءة الموافقة لرسم المصحف، وهي في الطبري ٣/ ٣٦٦ الى عامة القراء، وفي السبعة ٢٠٥ والكشف ١/ ٣٤٣، والتيسير ٨٧، والبحر ٢/ ٤٤٦ الى غير حمزة وابن عامر، وفي معاني القرآن ١/ ٢١٠ بلا نسبة.

(٤) نقله في الجامع ٤/ ٨١.

لأن القرآن انما أنزل على الأمر والذي كأنه قال لهم: «اذكُروا كذا وكذا» وهذا في القرآن واردٌ في غير موضع و«اتّقُوا يومَ كذا» أو «حينَ كذا».

وقال الله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [الآية ٤٤] لأنَّ كل ما كان من طلب العلم فقد يقع بعده الاستفهام. تقول: «أزيدٌ في الدارِ»؟ و: «لَتَعْلَمَنَّ أَزَيْدٌ فِي الدّارِ». وقال: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف/١٢] أي: لننظر. وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود/٧ والملك/٢] وأمّا قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم] فلم يرتفع على مثل ما ارتفع عليه الأول لأن قوله ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ ليس بطلب علم. ولكن لما فتحت «مَنْ» و«الذي» في غير موضع «أي»، صارت غير متمكّنة، إذ فارقت أخواتها تركت على لفظ واحد وهو الضم[1] وليس بإعراب. وجعل ﴿أَشَدُّ﴾ من صلتها وقد نصبها قوم وهو قياس[2]. وقالوا: «إذا تُكُلِّمَ بها فإنَّه لا يكونُ فيها إلاَّ الإعمال». وقد قرئ (تَماماً على الذي أَحْسَنُ) [الأنعام/١٥٤] برفع «أحسن» وَجَعْلِه من صلة «الذي»[3] وفتحه على الفعل أحسنَ[4]. وزعموا ان بعض العرب قال: «ما أنَا بِالَّذِي قائلٌ لكَ شَيْئاً» فهذا الوجه لا يكون للاثنين إلا «ما نَحْنُ بِاللَّذَيْنِ قائِلانِ لَكَ شَيْئاً».

وقال تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ [الآية ٤٥] نصبه على الحال ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الآية ٤٥] عطفه على ﴿وَجِيهًا﴾ وكذلك ﴿وَكَهْلًا﴾ [الآية ٤٦] معطوف على ﴿وَجِيهًا﴾ لأن ذلك منصوب. وأما قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [الآية ٤٥] فانه جعل «الكلمة» هي «عيسى» لأنه في المعنى

---

(١) في الجامع ١١/ ١٣٣، انها قراءة القراء كلهم إلا هارون القارئ الأعور.

(٢) في الجامع ١١/ ١٣٣، الى هارون القارئ الاعور، والبحر ٦/ ٢٠٩ الى معاذ بن مسلم الهراء والى زائدة عن الأعمش، وفي الشواذ ٨٦ الى معاذ أيضاً وطلحة بن مصرف، وفي الكتاب ١/ ٣٩٧ بلا نسبة وقصرها في المشكل على هارون القارئ ٢/ ٤٥٨.

(٣) في الطبري ١٢/ ٢٣٦ والمحتسب ٢٣٤ الى يحيى بن يعمر، وزاد في الجامع ٧/ ١٤٢ و٤/ ٢٥٥ ابن أبي اسحاق. وفي معاني القرآن ١/ ٣٦٥ والكشف ١٠١ بلا نسبة، وكذلك في الكتاب ١/ ٢٧٠.

(٤) في الطبري ١٢/ ٢٣٦ الى قراء الامصار، وفي الجامع ٧/ ١٤٢ ومعاني القرآن ١/ ٣٦٥ بلا نسبة، وزاد في الأخير أن «أحسن» منصوب على نية الخفض صلة لـ «الذي» وليس فعلا.

كذلك كما قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر/٥٦] ثم قال: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزمر/٥٩] وكما قالوا: «ذو الثُدَيَّة» لأن يَدَهُ كانت مثل الثدي. كانت قصيرة قريبة من ثديه[١] فجعلها كأن اسمها «ثُدَيَّة» ولولا ذلك لم تدخل الهاء في التصغير.

وأما قوله: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٤٧] فَكَسَر الكاف لأنها مخاطبة امرأةٍ. وإذا كانت الكاف للرجل فُتحت. قال للمؤنث ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف/٢٩].

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[٢] [الآية ٤٨] موضع نصب على ﴿وَجِيهًا﴾. و﴿وَرَسُولًا﴾ [الآية ٤٩] معطوف على ﴿وَجِيهًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ [الآية ٥٠] على قوله ﴿وَجِئْتُكُم﴾ [الآية ٥٠] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ [الآية ٥٠] لأنه قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية ٤٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [الآية ٥١] فـ ﴿إِنَّ﴾ على الابتداء[٣]. وقال بعضهم: (أَنّ)[٤] فنصب على «وَجِئْتُكُم بأَنَّ الله رَبِّي ورَبُّكُم» هذا معناه.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [الآية ٥٢] لأنَّ هذا من: «أَحَسَّ» «يُحِسُّ» «إِحْساساً» وليس من قوله ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [الآية ١٥٢] اذ ذلك من «حَسَّ» «يَحُسُّ» «حَسّاً» وهو في غير معناه لأن معنى «حَسَسْتُ» قتلت، و«أَحْسَسْتُ» هو: ظَنَنْتُ[٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية ٥٩] رفع على الابتداء ومعناه: «كُنْ» «فكانَ» كأنَّهُ قال: «فإذا هُوَ كائِنٌ».

وقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ يقول: «هو الحقُّ من ربِّكَ».

---

(١) هو حرقوص بن زهير السعدي الخارجي، قتل في النهروان، وأخباره في مروج الذهب ٢/ ٤١٧ وشرح نهج البلاغة ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧، والملل والنحل ١/ ١٠٦، والكنى والألقاب ٢/ ٤١٥.

(٢) في الأصل: ونعلمه بالنون، وهي قراءة الإملاء ١/ ١٣٥.

(٣) وهي في الطبري ٦/ ٤٤١ الى عامة قراء الأمصار.

(٤) في الطبري ٦/ ٤٤١، والشواذ ٢٠، والبحر ٢/ ٤٦٩ بلا تعيين لمن نسبت اليه.

(٥) نقله في الصحاح «حسس»، ونسب اليه أيضاً رأي الفرّاء في أن أحسّ معناها وجد.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الآية ٦٤] فجر ﴿سَوَاءٍ﴾[1] لأنها من صفة الكلمة وهو «العَدْل»[2]. أراد «مُسْتَوِيَة» ولو اراد «اَستواء» لكانَ النَّصب[3]. وإنْ شاء ان يجعله على الاستواء ويجرّ جاز، ويجعله من صفة الكلمة مثل «الخَلْق»، لأن «الخَلْق» قد يكون صفة ويكون اسماً، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج/٢٥] لأن «السَّواء» للآخر وهو اسم ليس بصفة فيُجرى على الأول، وذلك إذا أراد به الاستواء. فان أراد «مُستوياً» جاز أن يجري على الأول، فالرفع في ذا المعنى جيد لأنها صفة لا تغير عن حالها ولا تثنى ولا تجمع على لفظها ولا تؤنث، فأشبهت الأسماء. وقال تعالى: ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية/٢١] فـ«السواءُ» للمَحْيا والمَمَاتِ، فهذا المبتدأ. وإنْ شئتَ أَجْرَيْتَهُ على الأول وجعلته صفة مقدمة من سبب الأول فجرى عليه، فهذا اذا جعلته في معنى مستوٍ فالرفع وجه الكلام كما فسرته لك من قوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الآية ٦٤] فهو بدل كأنه قال «تَعالَوْا إلى أنْ لا نَعْبُدَ إلاّ الله».

وقال عز وجل: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية ٧٧] فهذا مثل قولك للرجل «ما تَنْظُرُ إليّ» إذا كان لا ينيلك شيئاً.

وقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [الآية ٧٢] جعله ظرفاً.

وقال تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [الآية ٧٣] يقول: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [الآية ٧٣] أي: وَلا تُؤمِنوا أنْ يُحاجُوكُم[4].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [الآية ٧٥] لأنها مِنْ «دُمْتَ»

---

(١) في البحر ٢/ ٤٨٣ الى الجمهور، وفي الطبري ٦/ ٤٨٦، والمشكل ٩٧ بلا نسبة.

(٢) «عدلة» بدل «سواء» قراءة عبد الله، معاني القرآن ٢٢٠.

(٣) في الشواذ ٢١ والمشكل ٩٧ والبحر ٢/ ٤٨٣ الى الحسن، وفي الطبري ٦/ ٤٨٦ بلا نسبة.

(٤) نقله في إعراب القرآن ١/ ١٦٩، والجامع ٤/ ١١٤. وكلامه على تتمة الآية ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [الآية ٧٣].

«تَدُومُ». ولغةٌ لِلْعَرَبِ[1] «دِمْتَ» وهي قراءة[2] مثل «مِتَّ» «تَمُوتُ» جعله على «فَعِلَ» «يَفْعُلُ» فهذا قليل.

وقال تعالى: ﴿بِدِينَارٍ﴾ [الآية ٧٥] أي: على دينار كما تقول: «مررتُ بِهِ» و«عليه».

وقال تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ﴾ [الآية ٧٨] بفتح الياء[3]. وقال (يُلَوُّونَ[4]) بضم الياء وأحسبها ﴿يَلْوُونَ﴾، لأنه قال ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء/٤٦][5] فلو كان مِنْ (يُلَوُّونَ) لكانت «تَلْوِيَة بألسنتهم».

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ [الآية ٧٩] نصبٌ على ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾ [الآية ٧٩] ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ لأَنَّ «ثُمَّ» من حُروف العطف.

و﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ [الآية ٨٠] أيضاً معطوفٌ بالنصب على ﴿أَن﴾ وإنْ شئت رفعت؛ تقول (ولا يأمُرُكُمْ) لا تعطفه على الأوّل تريد: هُوَ لا يَأْمُرُكُمْ[6].

قال الله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ [الآية ٨١]

---

(١) هي لغة تميم. الشواذ ٢١ واللهجات ٤٦٨ والبحر ٢/ ٥٠٠، وقد نقله عنه في إعراب القرآن ١/ ١٧٠ والجامع ٤/ ١١٧.

(٢) في الشواذ ٢١ الى يحيى بن وثاب، وفي الجامع ٤/ ١١٧ الى طلحة بن مصرف وأبي عبد الرحمن السلمي وغيرهما، وفي البحر ٢/ ٥٠٠ الى أبي عبد الرحمن ويحيى بن وثاب والأعمش وابن أبي ليلى والفياض بن غزوان وطلحة وغيرهم، وفي المشكل ٩٩ بلا نسبة.

(٣) في البحر ٢/ ٥٠٣ الى الجمهور، وفي المشكل ٩٩ بلا نسبة.

(٤) في الجامع ٤/ ١٢١ الى أبي جعفر وشيبة، وفي البحر ٢/ ٥٠٣ الى أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح وأبي حاتم عن نافع، وأن الزمخشري نسبها الى أهل المدينة.

(٥) لعله قصد (يلون) بواو واحدة وهي قراءة حميد كما في المشكل ١/ ١٦٤، وفي الإملاء ١/ ١٤١ بلا نسبة. وعللها بأنها في أصلها «يلوون» كقراءة الجمهور، ثم همز الواو لانضمامها، ثم ألقى حركتها على اللام.

(٦) نقل وجه الرفع في إعراب القرآن ١/ ١٧٢ وقال هي قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرميين وفي الطبري ٦/ ٥٤٧ الى عامة قراء الحجاز والمدينة، وفي السبعة ٢١٣ الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي، وفي البحر ٢/ ٥٠٧ الى الحرميين والنحويين والأعشى والبرجمي، وفي الكشف ١/ ٣٥٠ والتيسير ٨٩ والجامع ٤/ ١٢٣ الى غير عاصم وحمزة وابن عامر، وفي معاني القرآن ١/ ٢٢٤ وحجة ابن خالويه ٨٧ والمشكل ٩٩ بلا نسبة. أما النصب ففي الطبري ٦/ ٥٤٧ الى بعض الكوفيين والبصريين وفي السبعة ٢١٣ والكشف ١/ ٣٥٠ والتيسير ٨٩ والجامع ٤/ ١٢٣ والبحر ٢/ ٥٠٧ الى عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، وفي معاني القرآن ١/ ٢٢٤ الى أكثر القراء، وفي حجة ابن خالويه ٨٧ والمشكل ٩٩ بلا نسبة.

فاللام التي مع «ما» في أول الكلام هي لام الابتداء نحو «لزيدٌ أفضلُ منكَ»، لأن (ما آتيْتُكُمْ) اسم والذي بعده صلة. واللام التي في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [الآية ٨١] لام القسم كأنه قال «والله لَتُؤمِنُنَّ بِهِ» فوكد في أول الكلام وفي آخره، كما تقول: «أَمَا والله أَنْ لَوْ جِئْتَني لَكان كذا وكذا»، وقد يستغنى عنها. ووكّد في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ باللام في آخر الكلام وقد يستغنى عنها. جعل خبر (ما آتيْتُكُمْ من كتابٍ وَحِكمَة) ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ مثل «ما لَعَبْدِ الله؟ والله لَتَأتِيَنَّه». وإنْ شئت جعلت خبر (ما) ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ تريد (لَما آتيْتُكُمْ كتابٌ وحِكْمَةٌ) وتكون «مِنْ» زائدة[1].

وقال تعالى: ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [الآية ٩١] مهموزة من «مَلأتُ» وانتصب (ذَهَباً) كما تقول: «لِي مِثْلُكَ رَجُلاً» أي: لي مثلك من الرجال، وذلك لأنك شغلت الاضافة بالاسم الذي دون «الذهب» وهو «الأرض» ثم جاء «الذهب» وهو غيرها فانتصب كما ينتصب المفعول اذا جاء من بعد الفاعل. وهكذا تفسير الحال، لأنك إذا قلت: «جاء عبدُ الله راكباً» فقد شغلت الفعل[2] بـ «عبد الله» وليس «راكب» من صفته لأن هذا نكرة وهذا معرفة. وإنما جئت به لتجعله اسماً للحال التي جاء فيها. فهكذا تفسيره، وتفسير «هذا أحسنُ منكَ وَجْهاً»، لأن «الوجه» غير الكاف التي وقعت عليها «مِنْ» و«أحسنُ» في اللفظ إنما هو الذي تفضله فـ «الوجهُ» غير ذينك في اللفظ. فلما جاء بعدهما وهو غيرهما، انتصب انتصاب[3] المفعول به بعد الفاعل.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية ٩٣] لأنه يقال: «هذا حَلالٌ» و: «هذا حِلٌّ»، و«هذا حَرام» و«هذا حِرْمٌ» ويقال ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ

(١) نقله في المحتسب ١/ ١٦٤، واعراب القرآن ١/ ١٧٢، والمشكل ١/ ١٦٥، والتهذيب ١٥/ ٤١١ لام التوكيد، والجامع ٤/ ١٢٥، والبحر ٢/ ٥١١ و٥١٢.

(٢) أي اكتفى الفعل بعبد الله فهو فاعله، أما «راكب» فلا يكون مرفوعاً، لأنه ليس مسنداً اليه ولا صفة للمسند اليه».

(٣) كل هذا مبني على ما قاله الخليل في غير موضع من الكتاب. فالاسم قد ينتصب في الجملة لأنه ليس من الاسم الأول ولا هو هو، اي ليس جزءاً من الاسم الأول كأن يكون مضافاً اليه ولا صفة له. والصفة التي تتبع الموصوف هي التي تكون من المنعوت أو الموصوف وكأنها هو.

﴿قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء/ ٩٥][1] ويقال «وحِرْمٌ على قرية»[2] وتقول: «حِرْمٌ عليكم ذاك» ولو قال «وحُرُمٌ على قريةٍ»[3] كان جائزاً [ولو قال] «وحَرُمَ على قريةٍ»[4] كان جائزاً أيضاً.

قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الآية ٩٥] نصب على الحال.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [الآية ٩٦] فهذا خبر «إنَّ».

ثم قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ [الآية ٩٦] لأنه قد استغنى عن الخبر[*]، وصار ﴿مُبَارَكًا﴾ نصباً على الحال. ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الآية ٩٦] في موضع نصب عطف عليه.

والحال في القرآن كثير، ولا يكون إلا في موضع استغناء.

وقال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآية ٩٧] فرفع ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لأنه يقول: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ منها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ على الإضمار[5].

وقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ [الآية ١٠٣] على التفسير بقطع الكلام عند قوله ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ثم فسر آية التأليف بين قلوبهم وأخبر بالذي كانوا فيه قبل التأليف، كما تقول «أَشْمَكَ الحائطَ أن يَميل».

---

(١) وهي قراءة نسبت في معاني القرآن ٢/ ٢١١ الى أهل المدينة والحسن، وفي الطبري ١٧/ ٨٦ الى عامة قراء أهل المدينة والبصرة وعكرمة وأبي جعفر محمد بن علي، وفي المصاحف ٨٢ الى عبد الله بن الزبير، وفي السبعة ٤٣١ الى ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم. وفي الكشف ٢/ ١١٤ والتيسير ١٥٥ الى غير أبي بكر وحمزة والكسائي، وفي الجامع ١١/ ٣٤٠ الى زيد بن ثابت وأهل المدينة، وهي اختيار ابي حاتم وابي عبيد وفي البحر ٦/ ٣٣٨ وفي حجة ابن خالويه ٢٢٦ بلا نسبة.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢١١ الى ابن عباس وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي، وفي الطبري ١٧/ ٨٦ الى عامة قراء أهل الكوفة وابن عباس، وزاد في الجامع ١١/ ٣٤٠ علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وفي السبعة ٤٣١ الى حمزة والكسائي والى عاصم في رواية وفي الكشف ٢/ ١١٤ والتيسير ١٥٥ أبدل بعاصم أبا بكر، وفي البحر ٦/ ٣٣٨ زاد على ما في الكشف والتيسير طلحة والأعمش وأبا حنيفة وأبا عمرو في روايته.

(٣) في الجامع ١١/ ٣٤٠ الى ابن عباس ايضاً وابي العالية فتح الحاء وضم الراء، والى ابن عباس أيضاً ضم الحاء وكسر وتضعيف الراء.

(٤) في الشواذ ٩٣ الى عكرمة، وفي المحتسب ٢/ ٦٥ الى ابن عباس بخلاف، وفي الجامع ١١/ ٣٤٠ الى قتادة ومطر الورّاق، وزاد في البحر ٦/ ٣٣٨ محبوباً عن أبي عمرو.

(*) إن السياق يقتضي أن يكون بالخبر.

(٥) نقله في إعراب القرآن ١/ ١٧٥ والجامع ٤/ ١٣٩.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ [الآية ١٠٣] فـ «الشَّفا» مقصور مثل «القَفا» وتثنيته بالواو تقول: «شَفَوانِ» لأنه لا يكون فيه الامالة[*]، فلما لم تجئ فيه الإمالة عرفت أنَّهُ من الواو[1].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [الآية ١٠٤] و«أُمَّةٌ» في اللفظ واحد، في المعنى[2] جمع، فلذلك قال ﴿يَدْعُونَ﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فثنى الاسم واظهره، وهذا مثل «أمَّا زَيْدٌ فقد ذَهَبَ زَيْدٌ». قال الشاعر[3] [من الخفيف وهو الشاهد السابع والخمسون بعد المئة]:

لا أرى المَوْتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ
نَغَّصَ المَوْتُ ذا الغِنى والفَقِيرا

فأَظْهَرَ في موضع الاضمار.

وقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [الآية ١١١] استثناء يخرج من أول الكلام. وهو كما روى يونس[4] عن بعض العرب، أنه قال: «ما أَشْتَكِي شيئاً إلاَّ خَيْراً». ومثله ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ].

وقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الآية ١١٢] فهذا مثل ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ استثناء خارج من أول الكلام في معنى «لكنّ» وليس بأشدّ من قوله ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم/ ٦٢].

وقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الآية ١١٣] لأنه قد ذكرهم ثم فسره فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الآية ١١٣] ولم يقل «وَأُمَّةٌ على خلافِ هذهِ الأُمَّةِ» لأنه قد ذكر هذا كله قبل. وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فهذا قد دل على أمة خلاف هذه.

(*) لو كان فيه إمالة لرسم بالياء: شفى.

(1) نقله في الصحاح «شفا» والجامع ٤/ ١٦٥.

(2) نقله في الصحاح امم.

(3) هو عدي بن زيد العبادي: ديوانه ٩٥ والخزانة ١/ ١٨٣، وقيل سوادة بن عدي بن زيد الكتاب ١/ ٣٠ وتحصيل عين الذهب ١/ ٣٠ وإعراب القرآن للزجاج ٣/ ٩١٣ وشواهد سيبويه ٩٢، وقيل أمية بن أبي الصلت وتحصيل عين الذهب ١/ ٣٠ وشواهد سيبويه ٩٢، ولا وجود له في ديوانه.

(4) هو يونس بن حبيب الضبي النحوي البصري، وقد مرت ترجمته قبل.

وأما قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [الآية ١٠٦] على «فيُقالُ لَهُمْ أَكَفَرْتُم». مثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الزمر/٣] وهذا في القرآن كثير.

وقال تعالى: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الآية ١١٣] وواحد «الآناءِ» مقصور «إِنى» فاعلم وقال بعضهم: «إِنْيٌ» كما ترى و«إِنْوٌ» وهو ساعاتُ اللَّيل. قال الشاعر[1] [من البسيط وهو الشاهد الثامن والخمسون بعد المئة]:

السَّالِكُ الثَّغْرَ مَخْشِيّاً مَوارِدُهُ
فِي كُلِّ إِنْيٍ قَضاهُ اللَّيلُ يَنْتَعِلُ[2]

قال: وسَمِعْتُه «يَخْتَعِلُ»[3].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [الآية ١١٠] يُريدُ «أَهْلَ أُمَّةٍ» لأنَّ الأُمَّةَ الطريقة. والأمَّة أيضاً لُغة[4]. قال النابغة[5] [من الطويل وهو الشاهد التاسع والخمسون بعد المئة]:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً
وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طائِعُ[6]

وقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾

---

(١) في الصحاح «أنا» هو الهذلي، وفي مجاز القرآن ١/ ١٠٢ هو أبو أثيلة، وفي هامشه أبو أثيلة وهو المتنخل الهذلي مالك بن عمرو، وفي اللسان «أني» هو الهذلي المتنخل.

(٢) في اللسان رواية عن الزجاج مطابقة لما رواه الأخفش إلا في إبدال الباء بـ «في» وبعد قال: قال الأزهري: كذا رواه ابن الأنباري. وأنشد الجوهري:

حلو ومر كعطف القدح مرته.

وما في الصحاح «أنا» مطابق لما رواه الأخفش. وفي مجاز القرآن ١/ ١٠٢: «حلو ومرّ كعطف الليل مرّته». وفي ديوان الهذليين ٢/ ٣٥:

حلوٌ ومرٌّ كعطف القدح مرته ... بكل إني حذاه الليل ينتعل

وجاء في ٢/ ٣٤ بيت في القصيدة نفسها هو:

السالك الثغرة اليقظان كالئها ... مَشْيَ الهلوك عليها الخَيْعل الفضل

وقد نقل هذه الآراء كلها في الصحاح «أنا» واللسان «إني» ونسبها الى الزّجّاج.

(٣) وردت في الاصل بهذا الرسم ولا معنى لها.

(٤) في اللهجات ١٨٣ وما بعدها، يبدو أن كسر همزة «أمة» لغة الحجاز، وضمها لغة تميم، قياسا على همزة «أسوة».

(٥) هو النابغة الذبياني زياد بن معاوية، وقد مرت ترجمته من قبل.

(٦) البيت في ديوانه ٥١ واللسان امم والصحاح «امم»، وفي الصحاح واللسان نقل هذا وزاد بعد قوله «أهل أمة» قوله: أي خير أهل دين، وكذلك في الجامع ٤/ ١٧٠، وفي الجامع ٤/ ١٧٥، واعراب القرآن ١/ ١٨٠ باختلاف قليل.

[الآية ١١٨] لأنها من «أَلَوْتُ» و«ما آلُو» «أَلْوًا».

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [الآية ١١٨] يقول ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ [الآية ١١٨] ﴿وَدُّوا﴾ أي: أَحَبُّوا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ جعله من صفة «البِطانَة»، جعل ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ في موضع «العَنَتِ».

وقرأ من ذُكِرَ في الحاشية: (لاَ يَضِرْكُمْ كَيْدُهُمْ) [الآية ١٢٠][1] لأنه من «ضارَ» «يَضِيرُ» و«ضِرْتُه» خفيفة «فأَنا أَضِيرُه»، وفي الرسم القرآني: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾[2] جعله من «ضَرَّ» «يَضُرُّ» وحرّك للسكون الذي قبله، لأن الحرف الثقيل بمنزلة حرفين، الأول منهما ساكن. وقرأ بعضهم: (لا يَضُرْكُم)[3] جعلها من «ضار» «يضُور» وهي لغة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ١٢١] لأنها من «بَوَّأت» و«إذْ» ها هنا إنّما خَبَرُها في المعنى كما فسرت لك.

وقال: ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [الآية ١٢٥][4] لأنهم سَوَّمُوا الخيل. وقال بعضهم (مُسَوَّمِينَ) مُعْلَمِينَ لأَنَّهُمْ هُم سُوِّمُوا، وبها قرأ من قرأ[5].

---

(١) في المصحف: يضركم بضم الضاد والراء المُضَعَّفة. أما كسر الضاد وسكون الراء فهي في الطبري ٧/ ٥٧ الى جماعة من أهل الحجاز وبعض البصريين، وفي السبعة ٢١٥ الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو والى حمزة في رواية، وفي الكشف ١/ ٣٥٥ الى أهل الحرمين وأبي عمرو والى غير الكوفيين وابن عامر، وفي التيسير ٩٠ الى غير الكوفيين وابن عامر وفي الجامع ٤/ ١٨٤ الى الحرميين وأبي عمرو وزاد في البحر ٣/ ٤٣ حمزة، وفي معاني القرآن ١/ ٢٣٢ الى بعض القراء وفي حجة ابن خالويه ٨٨ بلا نسبة.

(٢) في الطبري ٧/ ١٥٧ الى جماعة من أهل المدينة وعامة قراء أهل الكوفة، وفي السبعة ٢١٥ الى ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وفي الشواذ ٢٢ الى المفضّل عن عاصم مع فتح الراء، وفي الكشف ١/ ٣٥٥ الى الكوفيين وابن عامر، وكذلك في التيسير ٩٠ والبحر ٣/ ٤٣، وأسقط في الجامع ٤/ ٨٤ ابن عامر وفي معاني القرآن ١/ ١٥٠ وحجة ابن خالويه ٨٨ والمشكل ١٠٦ بلا نسبة.

(٣) في المشكل ١٠٦، والجامع ٤/ ١٨٤الى الكسائي وفي الطبري ٧/ ٥٧ بلا نسبة قياسا على لغة «ضار يضور»، وكذلك في معاني القرآن ١/ ٢٣٢. وقال بها استناداً الى لغة لبعض أهل العالية سمعها الكسائي.

(٤) في الطبري ٧/ ١٨٤ الى بعض قراء أهل الكوفة والبصرة، وفي السبعة ٢١٦ والكشف ١/ ٣٥٥ والتيسير ٩٠ والجامع ٤/ ١٩٦ والبحر ٣/ ٥١ الى أبي عمرو وابن كثير وعاصم وفي حجة ابن خالويه ٨٩ بلا نسبة.

(٥) في الطبري ٧/ ١٨٤ الى عامة قراء أهل المدينة والكوفة، وفي السبعة ٢١٦ الى ابن عامر ونافع وحمزة والكسائي، وكذلك في الجامع ٤/ ١٩٦، وفي البحر ٣/ ١٥١ الى الصاحبين والأخوين، وفي الكشف ١/ ٣٥٥ والتيسير ٩٠ الى غير ابن كثير وأبي عمرو وعاصم. وزاد في أولها أن الجماعة عليها.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [الآية ١٢٨] على ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ [الآية ١٢٧] عطفه على اللام.

وقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [الآية ١٤٠][1] قرأ بعضهم (قُرحٌ)[2] مثل «الضَّعْف» و«الضُّعْف»[3] وتقول منه «قَرِحَ» «يَقْرَحُ» «قَرْحاً» و«هو قَرِحٌ». وبعض العرب يقول: «قَرِيح»[4] مثل «مَذِل» و«مَذِيل».

وقال تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [الآية ١٤٣] توكيداً كما تقول: «قَدْ رأيتُه واللهِ بِعَيْنِي» و«رَأَيْتُهُ عِياناً»[5].

وقال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ﴾ [الآية ١٤٤] ولم يقل (إِنْقَلَبْتُم) فيقطع الألف لأنه جواب المجازاة الذي وقعت عليه ﴿إِنَّ﴾ وحرف الاستفهام قد وقع على ﴿إِنَّ﴾ فلا يحتاج خبره إلى الاستفهام لأن خبرها مثل خبر الابتداء. ألا ترى أنك تقول: «أَزَيْدٌ حَسَنٌ» ولا تقول: «أَزَيْدٌ أَحَسَنٌ» وقال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣٤] ولم يقل (أَفَهُمُ الخالِدُون) لأنه جواب المجازاة.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [الآية ١٤٥] فقوله سبحانه ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ توكيد، ونصبه على «كَتَبَ اللهُ ذلكَ كِتاباً مُؤَجَّلاً». وكذلك كل شيء في القرآن من قوله ﴿حَقًّا﴾[6] انما هو «أَحِقُّ ذلِكَ حَقّاً». وكذلك ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٢٣٤ الى أكثر القراء، وفي الطبري ٧/ ٢٣٧ الى عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة، وفي السبعة ٢١٦ الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٣٥٦ الى غير حمزة وأبي بكر والكسائي، وفي التيسير ٩٠ استبدل أبا عمرو بأبي بكر، وفي الجامع ٤/ ٤١٧ الى محمد بن السميفع مع فتح الراء، وفي البحر ٣/ ٦٣ زاد أبا السمال واقتصر عليه في الكشاف ١/ ٤١٨، وفي حجة ابن خالويه ٨٩، والمشكل ١٠٨، والإملاء ١/ ١٥٠ بلا نسبة.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٢٣٤ الى أصحاب عبد الله، وفي الطبري ٧/ ٢٣٦ الى عامة قراء الكوفة، وفي السبعة ٢١٦ الى حمزة وعاصم والكسائي، وفي الكشف ١/ ٣٥٦ استبدل أبا بكر بعاصم وكذلك في التيسير ٩٠، وفي البحر ٣/ ٦٢ الى الأخوين وأبي بكر والأعمش وفي حجة ابن خالويه ٨٩ والمشكل ١٠٨ والإملاء ١/ ١٥٠ بلا نسبة.

(٣) الضم في «قرح» لغة تميم والفتح لغة الحجاز والضم في «ضعف» لغة الحجاز والفتح لغة تميم اللهجات ١٩١ و١٩٣.

(٤) لعلهم التميميون قياساً على ما جاء في اللهجات ٤١٥ وما بعدها.

(٥) نقله في زاد المسير ١/ ٤٦٨ والجامع ٤/ ٢٢١ والبحر ٣/ ٦٧.

(٦) ورد هذا التعبير في سبعة عشر موضعاً من الكتاب الكريم، أولها في البقرة/ ١٨٠ وآخرها لقمان ٣١/ ٩.

[النساء/ ١٢٢][1] و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف/ ٨٢][2] و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل/ ٨٨] و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء/ ٢٤] إنما هو من «صَنَعَ اللهُ ذلكَ صُنْعاً» فهذا تفسير كل شيء في القرآن من نحو هذا، وهو كثير.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الآية ١٤٧]: وقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ [الأعراف/ ٨٢][3] وقال: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الجاثية/ ٢٥] فـ ﴿أَن قَالُوا۟﴾ هو الاسم الذي يُرْفع بـ ﴿وَكَانَ﴾ لأن ﴿أَن﴾ الخفيفة وما عملت فيه بمنزلة الاسم، تقول: «أَعْجَبَنِي أَنْ قالوا» وإنْ شئت رفعتَ أول هذا كله وجعلت الآخِر في موضع نصب على خبر كان[4]. قال الشاعر [من الطويل هو الشاهد الستون بعد المئة]:

لَقَدْ عَلِمَ الأَقْوامُ ما كانَ دَاءَها
بِثَهْلانَ إلاَّ الخِزْيُ مِمَّنْ يَقُودُها[5]

وان شئت «ما كانَ داؤُها الا الخِزْيَ».

وقال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [الآية ١٥٣] لأنك تقول: «أَصْعَدَ» أي: مَضَى وَسارَ و«أَصْعَدَ الوادي» أي: انحدر فيه. وأما «صَعِدَ» فانه: ارتقى[6].

وقال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [الآية ١٥٣] أي: على غَمٍّ. كما قال: ﴿فِي

---

(١) ورد هذا التعبير في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم، أولها النساء/ ١٢٢ وانظر «المعجم المفهرس» ٧٥٤.

(٢) وانظر المعجم المفهرس ٣٠٥، لغير هذا الموضع.

(٣) اما في النمل ٢٧/ ٥٦ والعنكبوت ٢٩/ ٢٤و٢٩ فبالفاء: ﴿فَمَا كَانَ﴾.

(٤) جاء ضم الاسم على انه اسم كان، وأن المصدر المؤول خبرها في آية النمل الى الأعمش، و«الكشاف ٣/ ٣٧٤»، وفي العنكبوت ٢٤ الى سالم الأفطس وعمرو بن دينار «الجامع ٣/ ٣٣٨» وفي الكشاف ٣/ ٤٥٠ بلا نسبة. وجاء في الجاثية بلا نسبة في الكشاف ٤/ ٢٩١, أما نصب الاسم خبراً لكان على أن يكون المصدر المؤول اسمها، فجاء في آل عمران بلا نسبة في الجامع ٤/ ٢٣١ وفي العنكبوت ٢٤ الى العامة في الجامع ١٣/ ٣٣٨ وبلا نسبة لنسبه في الكشاف ٣/ ٤٥٠، وفي الجاثية كذلك في الكشاف ٤/ ٢٩١.

(٥) الشاهد في الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٢٤ وشواهد الكتاب ٧٩ بـ «وقد» وهو في شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٩٦ كما رواه الأخفش. ولم يشر اليه النحاس في شرح أبيات الكتاب. مما يدل على خرم في مخطوطته.

(٦) نقله في التهذيب «صعد» ٢/ ٧ وفي الصحاح «صعد» وزاد فقال: «وأصعد» في الوادي وصعّد تصعيداً أي انحدر فيه، وأهمل «صعد».

﴿جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه/٧١] ومعناه على جذوع النخل وكما قال: «ضَرَبَني في السيفِ» يريد «بالسيف» وتقول: «نزلت في أبيك» أي: على أبيك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [الآية ١٥٤][1] بنصب «كله»، ولك رفعها اذا جعلت «كُلاً» اسماً كقولك: «إنَّ الأمْرَ بَعْضَهُ لِزَيْدٍ». وإن جعلته توكيداً نصبت. وإن شئتَ نصبتَ على البدل، لأنك لو قلت «إنَّ الأمْرَ بَعْضَهُ لِزَيْدٍ» لجاز على البدل، والصفة لا تكون في «بَعْض». قال الشاعر[2] [من الكامل وهو الشاهد الحادي والستون بعد المئة]:

إنَّ السُّيُوفَ غُدُوَّها وَرَواحَها
تَركا فَزارَةَ مثلَ قَرْنِ الأَعْضَبِ[3]

فابتدأ «الغُدُوّ» و«الرواح» وجعل الفعل لهما. وقد نصب بعضهم «غُدُوَّها» و«رواحَها» وقال: «تركتْ هَوازِنَ» فجعل «التركَ» لـ«السيوف» وجعل «الغدوّ» و«الرواح» تابعاً لها كالصفة حتى صار بمنزلة «كلّها». وتقول ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [الآية ١٥٤] على التوكيد[4] أجود وبه نقرأ.

وقال تعالى: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [الآية ١٥٤] وقد قال بعضهم (القِتالُ)[5] و«القَتْلُ» أصوب فيما نرى، وقرأ بَعْضُهُم: (إلى قِتالِهِم) و«القَتْلُ» أصوبهما إن شاء، لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

وقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الآية ١٥٤]: أي: كَيْ يَبْتَلِيَ الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الآية ١٦٦] فجعل الخبر بالفاء لأنّ ﴿مَا﴾ بمنزلة «الذي»

---

(١) نقله في إعراب القرآن ١/٨٩، والمشكل ١/١٧٧، والجامع ٤/٢٤٢.

(٢) هو الاخطل التغلبي غياث بن غوث، ديوانه ٢٨، والكامل ٢/٧٢٦، والخزانة ٢/٣٧٢.

(٣) في الديوان «تركت هوازن» بدل «تركا فزارة»، وكذلك في الكامل والخزانة وفي شرح الاشموني ٣/١٣٥.

(٤) في الطبري ٧/٣٢٣ الى عامة قراء الحجاز والعراق، وفي السبعة ٢١٧ والتيسير ٩١ الى القراء كلهم إلا أبا عمرو، وزاد في الجامع ٤/٢٤٢ يعقوب. وفي معاني القرآن ١/٢٤٣ والحجة ٩٠ بلا نسبة. اما الرفع، ففي الطبري ٧/٣٢٣ إلى بعض قراء أهل البصرة وفي السبعة ٢١٧ والتيسير ٩١ إلى أبي عمرو، وفي الجامع ٤/٢٤٢ زاد يعقوب، وفي معاني القرآن ١/٢٤٣ والحجة ٩٠ بلا نسبة.

(٥) في البحر ٣/٩٠ الى الحسن والزهري، وفي الكشاف ١/٤٢٩ بلا نسبة.

وهو في معنى «مَنْ»، و«مَنْ» تكون في المجازاة ويكون جوابها بالفاء.

وقال تعالى ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [الآية ١٥٦] وواحد «الغُزَّى» «غازٍ» مثل «شاهِد» و«شُهَّد».

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [الآية ١٥٧]. فان قيل كيف يكون ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٥٧] جواب ذلك الأول؟ فكأنه حين قال ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ ذكر لهم مغفرة ورحمة، إذ كان ذلك في السبيل، فقال ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ يقول: «لَتِلْكَ المغفرة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الآية ١٥٧][1]».

وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ وان شئت قلت (قُتِلْتُمْ).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٥٩] يقول: «فَبِرَحْمَةٍ» و﴿مَآ﴾ زائدة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [الآية ١٦١][2] وقرأ بعضهم: (يُغَلَّ)[3] وكلٌ صواب، والله أعلم، لأنّ المعنى «أَنْ يَخُونَ» أوْ «يُخانَ».

وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [الآية ١٦٥] فهذه الألف ألف الاستفهام دخلت على واو العطف، فكأنه قال: «صَنَعْتُم كذا وكذا ولَمّا أصابتكم» ثم أدخل على الواو ألف الاستفهام.

وقال: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ١٦٦] فجعل الخبر بالفاء لأنّ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ [الآية ١٦٦]: الذي أصابكم.

---

(١) في المصحف: يجمعون بالياء، وهي في السبعة ٢١٨ الى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٣٦٢ والتيسير ٩١ الى حفص، وفي البحر ٣/ ٩٦ الى حفص عن عاصم. اما تجمعون بالتاء، فهي في البحر ٣/ ٩٦ الى الجمهور، وفي السبعة ٢١٨ استثنى عاصما برواية حفص وفي الكشف ١/ ٣٦٢ والتيسير ٩١ الى غير حفص.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٢٤٦ الى ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي؛ وفي الطبري ٧/ ٣٤٨ الى جماعة من قراء الحجاز والعراق، وفي السبعة والتيسير ٩١ والكشف ١/ ٣٦٣ الى ابن كثير وأبي عمرو وعاصم، وزاد في الاخير ان النبي (ص) وابن عباس قرأا بها، وفي البحر ٣/ ١٠١ لم يذكر قراءة النبي (ص)، اما في الحجة ٩١ والجامع ٤/ ٢٥٥، فبلا نسبة.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٢٤٦ الى بعض أهل المدينة وأصحاب عبد الله، وفي الطبري ٧/ ٣٥٣ الى معظم قراء أهل المدينة والكوفة، وفي السبعة ٢١٨ والكشف ١/ ٣٦٣ والتيسير ٩١ الى غير ابن كثير وأبي عمرو وعاصم، وفي البحر ٣/ ١٠١ الى ابن مسعود وباقي السبعة من لم يأخذ بالأخرى، وفي حجة ابن خالويه ٩١ والجامع ٤/ ٢٥٥ بلا نسبة.

وقال ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ معناه: «فَهُوَ بِإِذْنِ اللهِ» «وَهُوَ لِيَعْلَمَ».

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الآية ١٦٨] أي: قُلْ لَهُمْ: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وأضمر «لَهُمْ».

وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الآية ١٧٣] يقول: «فَزَادَهُمْ قَوْلُهُم إيماناً».

وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [الآية ١٧٥] يقول: «يُرْهِبُ النَّاسَ أولياءَهُ» أي: بأوليائِهِ.

وقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [الآية ١٨٧][1] يقول: «استحلفهم لَيُبَيِّنُنَّهُ ولا يَكْتُمُونَهُ» وقال «لَتُبَيِّنُنَّهُ وَلا تَكْتُمُونَهُ» أي: قُلْ لَهُم: «وَاللهِ لَتُبَيِّنُنَّهُ ولا تَكْتُمُونَهُ».

وقال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [الآية ١٩٥] أي: فاستجاب: بِأَنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُم. أدخل فيه ﴿مِّن﴾ زائدة كما تقول «قَدْ كانَ مِنْ حَدِيثٍ» و﴿مِّن﴾ ها هنا لغو لأنَّ حرف النفي قد دخل في قوله ﴿لَآ أُضِيعُ﴾.

وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [الآية ١٨٠] فأراد «وَلا تَحْسَبَنَّ البُخْلَ هُوَ خَيْراً لَهُمْ» فألقى الاسم الذي أوقع عليه الحسبان وهو «البُخْل»، لأنه قد ذكر الحسبان، وذكر ما آتاهم الله من فضله فأضمرهما إذا ذكرهما. وقد جاء من الحذف ما هو أشدّ من هذا، قال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد/١٠] ولم يقل «وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ» لأنه لما قال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الحديد/١٠] كان فيه دليل على أنه قد عناهم.

وقال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟

---

(١) في المصحف الشريف: لتبيننه... تكتمونه. بالتاء، وهي في الطبري ٧/ ٤٦٢ الى معظم قراء أهل المدينة والكوفة، وفي السبعة ٢٢١ الى نافع وابن عامر وحمزة والى عاصم في رواية، وفي التيسير ٩٣ الى غير أبي عمرو وابن كثير، وفي الجامع ٤/ ٣٠٥ الى أبي عمرو وعاصم في رواية ابي بكر وأهل مكة، وفي البحر ٣/ ١٣٦ الى السبعة ما عدا أبا بكر وأبا عمرو وابن كثير. أما القراءة بالياء في كل فهي في الطبري ٧/ ٤٦٢ الى «آخرون» وفي السبعة ٢٢١ الى ابن كثير وأبي عمرو والى عاصم في رواية، وأغفل في التيسير ٩٣ عاصماً، وأغفل في البحر ٣/ ١٣٦ عاصماً وزاد أبا بكر، وفي الجامع ٤/ ٣٠٥ الى غير أبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكة والى ابن عباس.

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الآية ١٨١] وقد مضى لذلك دهر، فإنما يعني: «سنكتب ما قالوا على من رضي به من بعدهم أيام يرضاه».

وأما قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [الآية ١٨٨] فإنَّ: الآخِرَةَ بَدَلٌ من الأولى والفاء زائدة. ولا تعجبني قراءة من قرأ الأولى بالياء[1] اذ ليس لذلك مذهب في العربية، لأنه إذا قال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ فإنه لَمْ يوقعه على شيء.



(١) في الطبري ٧/ ٤٢٨ الى غير من قرأ بقراءة التاء، وفي السبعة ٢١٩ الى ابن كثير وابن عمرو ونافع والكسائي مع كسر السين، وفي ٢٢٠ الى ابن عامر وعاصم مع فتح السين، وفي البحر ٣/ ١٢٨ الى السبعة إلا حمزة وفي حجة ابن خالويه ٩٢ بلا نسبة. أما القراءة بالتاء، ففي الطبري ٧/ ٤٣١ الى جماعة من أهل الحجاز والعراق، وفي السبعة ٢٢٠ والجامع ٤/ ٢٩٠ والبحر ٣/ ١٢٧ الى حمزة، وفي حجة ابن خالويه ٩٢ بلا نسبة.

لكل سؤال جواب في سورة «آل عمران»(*)

إن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣] ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)﴾؟

قلنا: إنّ القرآن أُنزل مُنَجَّماً، والتوراة والإنجيل نُزّلا جملة واحدة: كذا أجاب الزمخشري وغيره، يرد عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الآية ٤] فإن الزمخشري قال: أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصاً، أو أراد به الزّبور، أو أراد به القرآن، وكرر ذكره تعظيماً. ويردُّ عليه أيضاً قوله تعالى بعد ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [الآية ٧] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة/٤] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان/٣٢] والذي وقع لي فيه ـ والله أعلم ـ أن التضعيف في «نَزّل» والهمزة في «أنزل» كلاهما للتعدية، لأن نَزَل فعل لازم في نفسه، وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنى آخر وهو التكثير أو نحوه، لأنه لا نظير له، وإنما جمع بينهما والمعنى واحد، وهو التعدية جرياً على عادة العرب في افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام/٣٧] وقال في موضع آخر ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس/٢٠].

فإن قيل: لقد قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [الآية ٧] و«من» للتبعيض؛ وقال في موضع آخر: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود/١]، وهذا يقتضي كون آياته جميعها محكمة؟

قلنا المراد بقوله ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [الآية ٧] أي ناسخات ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [الآية ٧] أي منسوخات، وقيل المحكمات العقليات، والمتشابهات الشرعيات، وقيل المحكمات ما ظهر معناها، والمتشابهات ما كان في معناها غموض ودقة، والمراد بقوله ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أن جميع القرآن صحيح ثابت، مَصُون من الخلل والزَّلل فلا تَنَافِيَ فيه.

فإن قيل: لِمَ قال سبحانه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ جعل بعضه متشابهاً وقال في موضع آخر: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر/٢٣] وَصَفَه كله بكونه متشابهاً.

قلنا: المراد بقوله جلّ وعلا ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ ما سبق ذكره، والمراد بقوله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه يشبه بعضه بعضا في الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه بعضا فلا تَنَافِيَ فيه.

فإن قيل: ما الحكمة من إنزال المتشابهات بالمعنى الأخير، والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى، والغموض والدقة في المعاني ينافيان هذا المقصود أو يُبعدانه؟

قلنا: لما كان كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعاً ولا يحتمل غير ظاهره، وإلى ما هو مَجَاز وكناية وإشارة وتلويح، والمعاني فيه متعارضة متزاحمة، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبدع في كلامهم، نُزِّل القرآن بالنوعين تحقيقا لمعنى الإعجاز، كأنه قال: عارضوه بأي النوعين شئتم، فإنه جامع لهما. وأنزله الله عز وجل محكما ومتشابها ليختبر من يؤمن به كله، ويرد علم ما تشابه منه إلى الله فيثيبه. ومن يرتاب فيه ويشك، وهو المنافق، فيعاقبه، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره، أو أراد أن يشتغل العلماء بردّ المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة. ولو كان كله ظاهراً جلياً لاستوى فيه العلماء والجهال، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط، فإن نار الفكر إنما تنقدح بزناد المشكلات، ولهذا قال بعض الحكماء: عيب الغِنَى أنه يُورث البلادة، ويُميت الخاطر؛ وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر، واستنباط الحيل في الكسب.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [الآية ١٣] أي ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مِثْلَيْ عدد نفسها، أو بالعكس على اختلاف القولين. وكيفما كان، فهو مُنافٍ لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال/٤٤] لأنه يدل على أن الفئتين تساوتا في استقلال كل واحدة منهما للأخرى، فكل منهما ترى الأخرى قليلة؟

قلنا: التقليل والتكثير في حالين مختلفين، قلل الله المشركين في نظر المؤمنين أولاً، والمؤمنين في نظر المشركين حتى اجترأت كل فئة على قتال صاحبتها؛ فلما التقتا كثّر الله المؤمنين في نظر المشركين حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا، وكثّر الله المشركين في نظر المؤمنين أو أراهم إياهم على ما هم عليه، وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال/٦٦]، الآية، فإن المؤمنين غلبوهم في هذه الغَزَاة وهي غزاة بدر. مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين وقيل: أرى الله المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين وكانوا ثلاثة أمثالهم لكنه قلّلهم في أعين المسلمين، وأراهم إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم لتقوى قلوبُهُم بما سبق من الوعد أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين منهم.

فإن قيل: ما الحكمة من تَكْرار قوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في قوله ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ١٨]؟

قلنا: الأول قول الله عزّ وجلّ، والثاني حكاية قول الملائكة وأولي العلم. وقال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: الأول وصف، والثاني تعليم أي قولوا واشهدوا كما شهدت.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ والتولي والإعراض واحد كما سبق في البقرة، فلِمَ جمع بينهما؟

قلنا: معناه: يتولون عن الداعي ويعرضون عما دعاهم إليه وهو كتاب الله، أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم؛ أو قلنا الذين تولوا

علمائهم، والذين أعرضوا أتباعهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [الآية ٢٦] خص الخير بالذكر، وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضر أيضا؟

قلنا: لأن الكلام إنما ورد ردا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيّه (ص) على لسان جبريل عليه السلام من فتح بلاد الروم وفارس، ووعد النبي (ص) الصحابة بذلك، فلما كان الكلام في الخير خصه بالذكر باعتبار الحال، أو أراد الخير والشر فاكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل/٨١] وإنما خص الخير بالذكر لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد من الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج/٦١] وإيلاج الشيء في الشيء يقتضي اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج، كإيلاج الخيط في الإبرة والإصبع في الخاتم ونحوهما، وحقيقة الليل والنهار أنهما لا يجتمعان؟

قلنا: الإيلاج قد يكون كما ذكرتم، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه، كإيلاجِ يسير من الخبز في لبن كثير أو بالعكس، فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتاً، وصفة إحداهما غالبة على الأخرى. كذلك الليل والنهار إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال، ففيه من النهار ساعتان قطعاً وكذا على العكس. أو معناه يولج زمن الليل في زمن النهار وبالعكس. أو يولج الليل في النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهارُ آخرين وبالعكس، أو معناه أنه خلق ليلاً صرفاً خالصاً، وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبيل طلوع الشمس وقبيل غروبها. والجواب الثالث والرابع يعمان السنة بأسرها.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [الآية ٣٦] وهو معلوم من غير ذكر؟

قلنا: الحكمة اعتذارها عما قالته ظناً، فإنها ظنت أن ما في بطنها ذكر، ولهذا نذرت أن تجعله خادماً لبيت المقدس، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر في الذكور خاصة. فلما وضعت أنثى استحَيَت لمّا خاب ظنها ولم يُتقبّل نَذْرها، فقالت ذلك معتذرة، تَعْني ليست الأنثى بصالحة لما يصلح

له الذكر في خدمة المسجد، لا أنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك. فلما قالت ذلك، منكرة خجلة، مَنَّ الله عليها بتخصيص مريم بقبولها في النذر دون غيرها من الإناث فقال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [الآية ٣٧].

فإن قيل: المستعمل في مثله إدخال حرف النفي على القاصر، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم: ليست الفضة كالذهب، وليس العبد كالحر، فوزانه: وليست الأنثى كالذكر.

قلنا: لما كان جَعْلُ الأصل فرعاً، والفرعِ أصلا في التشبيه في حالة الإثبات، يقتضي المبالغة في المشابهة كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه، كان جَعْل الأصل فرعاً والفرعِ أصلاً، في حالة النفي، يقتضي نفي المبالغة في المشابهة لا نفي المشابهة، وذلك هو المقصود هنا، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى في أعم الأوصاف وأغلبها. ولهذا يقاد أحدهما بالآخر. وإنما أرادت أم مريم نفي المشابهة بينهما في صحة النذرية خادماً للبيت المقدس لا غير، فلذلك عكس الثاني أن ذلك قوله تعالى، والمعنى: ليس الذكر الذي طلبت أن يكون خادماً للكنيسة كالأنثى التي وهبت لما علم الله من جعلها وابنها آية للعالمين. وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجمل في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [الآية ٣٦] وهي لا تعرف مقدار شرفه، واللام في الذكر والأنثى للعهد. هذا كله قول الزمخشري وتمامه في الكشاف.

وقال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى: قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لمحمد (ع): أي وليس الذكر كالأنثى يا محمد. وقال بعضهم: هو من كلام أم مريم.

فإن قيل: كيف نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلي في المحراب وأجابها وهو في الصلاة، كما قال الله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ [الآية ٣٩]؟

قلنا: المراد بقوله يصلي: أن يدعو كقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء/١١٠]، أي بدعائك.

فإن قيل: ما فائدة تخصيص يحيى (ع) بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٩]

وكل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى؟

قلنا: معناه مصدقاً بعيسى الذي كان خلْقُه بكلمة من الله تعالى، وهو قوله «كن» من غير واسطة أب في الوجود، وكان تصديق يحيى بعيسى أسبق من تصديق كل أحد في الوجود أو في الرتبة.

فإن قيل: زكريا سأل الولد بقوله ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [الآية ٣٨] والله تعالى بَشَّره بيحيى (ع) على لسان الملائكة، فكيف أنكر بعد هذا كله قدرة الله تعالى على إعطائه الولد حتى قال ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [الآية ٤٠].

قلنا: إنما قاله على سبيل الاستفهام والتعجب من عظيم قدرة الله تعالى، لا على طريق الإنكار والاستبعاد، أو اشتبه عليه كيف يُنجب الولد وهو شيخ وامرأته عاقر، أو تزول عنهما هاتان الصفتان لكشف الحال تقديره: أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر. ولقائل أن يقول: آخر الآية لا يناسب هذا الجواب.

فإن قيل: ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾ [الآية ٤٢].

قلنا: الاصطفاء الأول: العبادة التي هي خدمة البيت المقدس وتخصيصها بقبولها في النذر مع كونها أنثى، والاصطفاء الثاني: لولادة عيسى (ع)، أو أعيد ذكر الاصطفاء ليفيد بقوله ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ فيندفع بأنها مصطفاة على الرجال.

فإن قيل: لِمَ نَفَى حضور النبي عليه الصلاة والسلام في زمن مريم بقوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [الآية ٤٤]، وذلك معلوم عندهم لا شك فيه، وتَرَكَ نَفْيَ استماعه ذلك الخبر من حُفّاظه، وهو الذي كانوا يتوهمونه؟

قلنا: كان معلوماً أيضاً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل القراءة والرواية، وكانوا منكرين للوحي فلم يبق إلا المشاهدة والحضور وهما في غاية الاستحالة، فَنُفِيا من طريق التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ (٤٤) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص].

فإن قيل: لِمَ قال اسمه المسيح عيسى بن مريم والخطاب مع مريم،

وهي تعلم أن الولد الذي بشرت به يكون ابنها؟

قلنا: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأُعلمت، بنسبه إليها، أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه.

فإن قيل: أي معجزة لعيسى(ع) في تكليم الناس كهلاً، وأي خصوصية له في هذا حتى قال ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [الآية ٤٦]؟

قلنا: معناه ويكلم الناس في هاتين الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل وينبأ فيها الأنبياء، فكأنه قال: ويكلم الناس في المهد كما يكلمهم كهلا. وقال الزّجاج: هذا خَرَجَ مَخْرج البشارة لمريم أنه عليه الصلاة والسلام سيبقى إلى زمن الكهولة، فهو بشارة لها بطول عمره، وقيل المقصود منه أن الزمان يؤثر فيه كما يؤثر في غيره، وينقله من حال إلى حال؛ ولو كان إلهاً لم يَجُز عليه التغيُّر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [الآية ٥٥] والله تعالى رَفَعَه ولم يَتَوَفَّه؟

قلنا: لما هدده اليهود بالقتل بَشَّره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه. الثاني أن فيه تقديماً وتأخيراً: أي أني رافعك ومتوفيك. والثالث أن معناه: قابضك من الأرض تاماً وافياً في أعضائك وجسدك لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيتُ حقي على فلان إذا استوفيته تاماً وافياً. الرابع أن معناه: أني متوفيك في نفسك بالنوم من قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزُمَر/٤٢] ورافعك إليّ وأنت نائم حتى لا تخاف، بل تستيقظ وأنت في السماء.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [الآية ٥٩]، وآدم خُلق من التراب وعيسى خُلق من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم.

قلنا: المراد به التشبيه في وجوده بغير واسطة أب، والتشبيه لا يقتضي المماثلة من جميع الوجوه بل من بعضها.

فإن قيل: لِمَ خص أهل الكتاب بأن منهم أمينا وخائنا بقوله سبحانه ﴿وَمِنْ

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [الآية ٧٥]، والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك منهم الأمين والخائن.

قلنا: إنما خصهم باعتبار واقعة الحال، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام أُودِعَ ألفاً ومائتي أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها، وفنحاص بن عازوراء أُودع ديناراً فخانه، ولأن خيانة أهل الكتاب للمسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية، بخلاف خيانة المسلم للمسلم فلذلك خصهم بالذكر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الآية ٨٣] وأكثر الجن والإنس كفرة؟

قلنا: المراد بهذا الاستسلام والانقياد لما قضاه الله عليهم وقدره من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة ونحو ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [الآية ٩٠] ومعلوم أن المرتد، وإن ازداد ارتداده كفراً، فانه مقبولُ التوبة؟

قلنا: نزلت الآية في قوم ارتَدُّوا ثم أظهروا التوبة بالقول لِسَتْرِ أحوالهم والكفْر في ضمائرهم، قاله ابن عباس. وقيل نزلت في قوم تابوا عن ذنوبهم غير الشرك وقيل معناه: لن تُقبل توبتهم وقت حضور الموت.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [الآية ٩٦] وكم من بيت بُنِيَ قبل الكعبة من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه السلام؟

قلنا: معناه أن أول بيت وُضِعَ قِبْلَةً للناس ومكانَ عبادةٍ لهم، أو وُضع مباركاً للناس، أو لأن ابن عباس قال: أول من بناه آدم (ع)، لما هبط من السماء أوحى الله تعالى إليه أن ابنِ لي بيتاً في الأرض، وافْعل حوله نحو ما رأيتَ الملائكةَ تفعل حول عرشي، فبناه وجعل يطوف حوله.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [الآية ١١٠] ولم يقل أنتم خير أمة؟

قلنا: معناه كنتم في سابق علم الله، أو كنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية، فأراد الإعلام بكون ذلك صفةً أصلية فيهم لا عارضةً متجددة، أو معناه خُلقتم ووجدتم، فهي «كان» التامة،

و«خيرَ أمة» نَصْبٌ على الحال؛ وتمام الكلام في «كان» يذكر في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [النساء/ ٢٢].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [الآية ١١٠] ولا يصحُّ أن يقال: هذا خير من هذا إلا إذا كان في كل واحد منهما خير، مع أن غير الإيمان لا خير فيه حتى يقال: إن الإيمان خير منه؟

قلنا: معناه أنّ إيمانهم بمحمد (ص) مع إيمانهم بموسى وعيسى (ع)، خير من إيمانهم بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فقط.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [الآية ١١٧]، والمقصود: تشبيه نفقة الكفار وأموالهم في تحصيل المفاخر وطلب الصيت والسمعة، أو ما ينفقونه في الطاعات مع وجود الكفر، أو ما ينفقونه في عداوة رسول الله (ص)، تشبيه ذلك كله بالزرع الذي أصابته ريح شديدة البرد فأهلكته فضاع ولم ينتفع به، والتشبيه في الحقيقة بالزرع، وفي لفظ الآية بالريح؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: مَثَلُ إهلاك ما ينفقون كَمَثَلِ إهلاك ريح فيها صِرٌّ، أو مَثَلُ ما ينفقون كَمَثَلِ مُهْلِكِ ريح، ونظيره قوله تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة/ ٢٦١]، وقوله تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة/ ١٧١] الآية. وقال ثعلب: فيه تقديم وتأخير تقديره: كَمَثَلِ حَرْثِ قوم ظَلَموا أنفسهم أصابته ريح فيها صرّ فأهلكته.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [الآية ١٢٠] فوصف الحسنة بالمس، والسيئة بالإصابة؟

قلنا: المس مستعار بمعنى الإصابة تَوْسِعَةً في العبارة: وإلا كان المعنى واحداً، ألا ترى إلى قوله تعالى في الفريقين: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء/ ٧٩] وقوله ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ [الآية ١٣٣] والنبي عليه أفضل التحية يقول: «العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن»؟

قلنا: قَدِ استثنى النبيُّ (ص) خمسة

مواضع فقال: «إلا في التوبة من الذنب، وقضاء الدَّين الحَالّ، وتزويج البكر البالغ، ودفن الميت، وإكرام الضيف إذا نزل». والمسارعة، المأمور بها في الآية، هي المسارعةُ إلى التوبة وما في معناها من أسباب المغفرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية ١٣٥] فَعطف عليه بكلمة «أو»، وفِعْلُ الفاحشة داخل في ظلم النفس، بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس؟

قلنا: أُريدَ بالفاحشة نوعٌ من أنواع ظلم النفس وهو الزنى، أو كل كبيرة، فَخُصَّ بهذا الاسم تنبيها على زيادة قبحه، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الآية ١٣٥] وقال في موضع آخر ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى] وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ [الجاثية/ ١٤].

قلنا: معناه ومن يَسْتُرُ الذنوب من جميع الوجوه إلا الله، ومثل هذا الغفران لا يكون إلا من الله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [الآية ١٤٤] ولم يقتصر على قوله ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ والقتل مُتضمَّن في الموت؟

قلنا: القتل، وإن كان موتاً، لكن إذا أطلق الميت في العرف، لم يفهم منه المقتول، فلذلك عطف أحدهما على الآخر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية ١٦١]. وقال في موضع آخر ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام/ ٩٤].

قلنا: معناه: يأتي به مكتوباً في ديوانه، أو يأتي به حاملاً إثمه، ومعنى «فرادى» منفردين عن الأموال والأهل، أو عن الشر كله في الغي، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله. وتمام الآية يشهد للكل.

فإن قيل: قد جاء في الصحيحين عن النبي (ص) أن الغَالَّ يأتي يوم القيامة حاملا عين ماغَلَّهُ على عنقه، صامتا كان أو ناطقا. هذا معنى الحديث، فاندفع الجواب.

قلنا: على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل يَعْتَزُّون

بهما ويستنصرون، ويشهد بصحته تمام الآية.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٦٣] وليس العبيد في الدرجاتِ نفسها؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: هم ذوو درجات أو أهل درجات، فحذف المضاف لعدم الإلباس. وقيل المراد بالدرجات الطبقات، فلا يكون فيه إضمار معناه أنهم طبقات عند الله، متفاوتون كتفاوت الدرجات.

فإن قيل: كيف يجعل لكلٍّ من الفريقين درجات، وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات؟

قلنا: الدرجات تستعمل في الفريقين بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام، بعد ذكر الفريقين ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام/١٣٢] وتحقيقه: أن بعض أهل النار أخف عذاباً فمكانه فيها أعلى، وبعضهم أشد عذاباً فمكانه بها أسفل. ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الدرجات كان قوله ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ راجعا إليهم خاصة تقديره: أَفَمَنْ اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن باء بسخط من الله وهم دركات، إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه.

فإن قيل عن قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [الآية ١٨١]، كانوا في زمن النبي (ص) قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة/ ٢٤٥]، فكيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [الآية ١٨١] أي ونكتب قَتْلَهم الأنبياء، وهم لم يقتلوا نبيا قط؟

قلنا: لما رَضُوا بقَتْل أسلافهم الأنبياء، كأنهم باشروا ذلك فأضيف إليهم، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآية ١٨٢] وظلام صيغة مبالغة من الظلم، ولا يلزم من نفي الظلام نفي الظالم، وعلى العكس يلزم، فهل قال ليس بظالم ليكون أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم، كما قال الله تعالى ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾

[المؤمنون/ ٩٢] و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة] لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة، ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظلام لعبيده، فهما في الظلم سيّان. وكذلك قال الله تعالى ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح/ ٢٧] فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل، أو أن الصيغة هنا للنسب أي لا ينسب إليه ظلم؛ فالمعنى: ليس بذي ظلم. الثاني أن العذاب من العظيم القدر، الكثير العدل، لولا سَبْقُ الجناية، يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل، فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل، وتارة باعتبار صفته، فِفِعْل الظلم، لو صدر عن الله تعالى وتقدس، لكان أعظم من ألف ظلم يصدر عن عبيده، باعتبار زيادة وصف القبح؛ ونظيره قوله تعالى ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب] على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: في قوله تعالى ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الآية ١٨٤]: من حق الجزاء أن يتعقب الشرط، وهذا سابق له؟

قلنا: جواب الشرط محذوف، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الآية ١٨٤] جوابا لأنه سابق عليه، ومعناه: وإن يكذبوك فتأسّ بتكذيب الرسل قبلك، وضعا للسبب، وهو تكذيبهم، موضع المسبب، وهو التأسي بهم.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [الآية ١٨٧] والأول مغنٍ عن الثاني؟

قلنا: معناه لِيُبَيِّنُنَّهُ في الحال، ويدومون على ذلك البيان ولا يكتمونه في المستقبل. الثاني أن الضمير الأول للكتاب، والثاني لنعت النبي (ص) وذكره، فإنه قد سبق ذكر النبي (ص) قبيل هذا.

فإن قيل: متى بينوا الكتاب لزم من بيانه صفة النبي (ص) وذكره لأنه من جملة الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل، فقوله بعد ذلك ولا يكتمونه تكراراً.

قلنا: على هذا يكون تأكيداً.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [الآية ١٩٢] وقال في موضع آخر ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم/ ٨] ويلزم من هذا أن لا يُدْخِل المؤمنين النار كما قالت المعتزلة والخارجية؟

قلنا: أخزيتَهُ بمعنى أذللتَهُ وأهنته من الخِزْيِ وهو الذل والهوان، وقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ من الخزاية وهي النكال والفضيحة، فكل من يدخل النار يُذَل وليس كل من يدخلها ينكل به ويفضح، أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود، لا إدخال تَحِلَّة القسم المدلول عليها بقوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم/ ٧١] أو إدخال التطهير الذي يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم، وقيل إن قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [الآية ١٩٣] والمسموع نداء المنادي لا نفس المنادي؟

قلنا: لما قال «منادياً ينادي»، صار تقديره: نداء منادٍ، كما يقال سمعت زيداً يقول كذا: أي سمعت قول زيد. فـ«منادياً» مفعول سمع، وينادي حال دالة على محذوف مضاف للمفعول.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [الآية نفسها] وتكفير السيئات داخل في غفران الذنوب؟

قلنا: المعنى مختلف، لأن الغفران مجرد فضل، والتكفير محو السيئات بالحسنات.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ مع انه لا ينفع التوفي مع الأبرار، بل النافع ان يكون المرء من الأبرار، سواءٌ أتُوفي معهم، أم قبلهم، أم بعدهم؟

قلنا: معناه وتوفنا مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم، كما يقال أعطاني الأمير مع أصحاب الخلع والجوائز: أي جعلني من جملتهم، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر.

فإن قيل: كيف قال ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [الآية ١٩٤] أي على لسان رسلك دعوه بإنجاز الوعد مع علمهم، وقولهم أيضا ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾؟

قلنا: الوعد من الله تعالى على ألسنة الرسل للمؤمنين وَعْدٌ عام يحتمل أن يراد به الخصوص كما في أكثر عموميات القرآن، فسألوا الله تعالى أن يجعلهم من الداخلين في حكم الوعد. الثاني أنهم سألوا تعجيل النصر الذي وُعِدوا، فإنه تعالى وعدهم النَّصرَ على أعدائهم غير موقت بوقت خاص.

فإن قيل: كيف يجوز أن يغتر الرسول بِنِعَم الذين كفروا حتى نهى عن الاغترار بقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ أي تصرفهم فيها بالنِّعَم؟

قلنا: معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشيء، والمراد به أتباعه وجماعته. الثاني أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مغتر بحالهم، فقيل له ذلك تأكيداً وتثبيتا على الدوام عليه، كما قيل له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص]، ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم].

فإن قيل: كيف ينهى عن التقلب وهو مما ليس ينهى عنه؟

قلنا: معناه لا تغتر بتقلبهم، فيكون تقلبهم قد غرك، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبَّب، لأن تقلبهم لو غَرَّهُ لاغترَّ به فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه، ليمتنع المسبَّب وهو اغتراره بتقلبهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ ولم يقل لا يغرنك نِعَمُهم وأموالهم، والذي يَحْتَمل أن يغُر الرسول والمؤمنين النِعم والأموال، لا التقلب في البلاد؟

قلنا: المراد بتقلبهم تصرفهم في التجارات والنعم والتلذذ بالأموال، والفقير إنما يتألم وينكسر قلبه إذا رأى الغني يتقلب في النعمة ويتمتع بها، فلذلك ذكر التقلب، وقيل معناه: لا يغرنك تقلبهم في المعاصي غير مأخوذين بذنوبهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ مع أن قوله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ موضع البشارة بالثواب، وسرعة الحساب إنما تذكر في موضع التهديد والعقاب؟

قلنا: معناه لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً خوفاً من حسابه فإنه سريع الحساب، فهو راجع إلى ما قبل.

المعاني المجازية في سورة «آل عمران»(*)

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الآية ٧]. هذه استعارة. والمراد بها أن هذه الآيات جِماعُ الكتاب وأصله. فهي بمنزلة الأم، كأن سائر الكتاب يَتْبَعها ويتعلق بها، كما يَتْبع الولد آثار أمه، ويفزعُ إليها في مُهِمِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الآية ٧]. وهذه استعارة. والمراد بها المتمكنون في العلم، تشبيها برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوّارة. وهو أبلَغُ من قوله: والثابتون في العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ وهذه استعارة. والمعنى: بئسَ ما يُمتَّهد ويُفرَش.

ونظيره قوله ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف]، وقوله سبحانه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم/٢٩].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية ٢٢] وهذه استعارة، والمراد فسَدَت أعمالهم فَبَطَلت. وذلك مأخوذ من الحَبَط، وهو داء تَرِمُ له أجوافُ الإبل، فيكونُ سببَ هلاكها، وانقطاع آكالها.

وقوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الآية ٢٧] وهذه استعارة، وهي عبارة عجيبة عن إدخال هذا على هذا، وهذا على هذا. والمعنى أن ما ينقصه من النهار يزيده في الليل، وما ينقصه من الليل يزيده في النهار. ولفظ الإيلاج هٰهنا أبلغ،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

لأنه يفيدُ إدخالَ كلُ واحد منهما في الآخر، بلطيف الممازجة، وشديد الملابسة.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الآية ٣٩] وهذه استعارة. لأن المراد بهذا القول عيسى (ع). والعلماء مختلفون في هذه اللفظة، وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتاب «حقائق التأويل». فمن بعض ما قيل في ذلك أن بشارة الله تعالى سَبقت بالمسيح (ع) في الكتب المتقدمة، فأجرى تعالى اسم «الكلمة» عليه لتقدُّم البشارة به. والبشارةُ إنما تكون بالكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وهذه استعارة. لأن حقيقة المكر لا تجوز عليه تعالى. والمراد بذلك إنزال العقوبة بهم جزاءً على مكرهم. وإنما سُمّي الجزاء على المكر مكراً للمقابلة بين الألفاظ على عادة العرب في ذلك. قد استعارها لسانهم، واستعادها بيانهم.

وقوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [الآية ٧٢] وهذه استعارة. والمراد أول النهار. ولم يقل رأس النهار. لأن الوجه والرأس وإن اشتركا في كونهما أول الشيء، فإن في الوجه زيادة فائدة، وهي أنه به تصح المواجهة، ومنه تعرف حقيقة الجملة.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية ٧٣] وهذه استعارة. والمراد بها إما سعة عطائه، وعظيم إحسانه، أو اتساعُ طرق علمه، وانفساح أقطار سلطانه وعزه.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية ٧٧] وهذه استعارة. وحقيقتها: ولا يرحمهم الله يوم القيامة. كما يقول القائل لغيره إذا استرحمه: انظر إليّ نظرة. لأن حقيقة النظر تقليب العين الصحيحة في جهة المرئي التماساً لرؤيته. وهذا لا يصح إلا على الأجسام، وَمَن يُدرَك بالحواس، ويوصَف بالحدود والأقطار. وقد تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [الآية ١٠٣] وهذه استعارة. ومعناها: تمسكوا بأمر الله لكم، وعهده إليكم. والحبال: العهود، في

كلام العرب. وإنما سميت بذلك لأن المتعلق بها ينجو مما يخافه، كالمتشبث بالحبل إذا وقع في غمرة، أو ارتكس في هوة. فالعهود يُستأمن بها من المخاوف، والحبال يُستنقذ بها من المتالف. فلذلك وَقَعَ التشابه بينهما.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [الآية ١٠٣]. وهذه استعارة. لأنه تعالى شبَّه المُشفِي، بسوء عمله، على دخول النار، بالمُشفي، لزلة قدمه، على الوقوع في النار.

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [الآية ١١٢] وقد مضى الكلام على مثل ذلك في «البقرة» فلا معنى لإعادته.

وقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الآية ١٢٧] أي ينقُص عدداً من أعدادهم، فيُوهن عضداً من أعضادهم. وهذا من محض الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿١٤٣﴾﴾ وهذه استعارة، لأن الموتَ لا يُلْقى ولا يُرَى. وإنما أراد سبحانه رؤية أسبابه، من صدق مصاع[1]، وتتابع قِراع. أو رؤية آلاته، كالرماح المشرَعَة، والسيوف المخترطة.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [الآية ١٤٤] وهذه استعارة. والمراد بها الرجوع عن دينه، والتقاعُسُ عن اتّباع طريقه. فشبَّه سبحانه الرجوع في الارتياب، بالرجوع على الأعقاب.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ [الآية ١٥٦] وهذه استعارة. لأن الضرب هٰهنا عبارة عن الإنجاد في السير، والإيغال في الأرض، تشبيهاً للخابط في البر بالسابح في البحر، لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها، واستعانة على قطعها.

وقوله سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴿١٦٣﴾﴾. وهذه استعارة. لأن الإنسانَ غَيْرُ

(١) المصاع: مصدر ماصع: أي قاتل وجالد.

الدرجة. وإنما المراد بذلك: هم ذوو درجات متفاوتة عند الله، فالمؤمن درجتُهُ مرتفعة، والكافرُ درجتُه متَّضعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴿١٨٥﴾﴾ وهذه استعارة. لأن الغرور لا متاع له على الحقيقة، وإنما المراد بذلك أن ما يستمتع به الإنسان من حطام الدنيا ظلٌ زائل، وخضاب ناصل.

وقوله تعالى في صدر هذه الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية ١٨٥] مستعار أيضاً، لأن حقيقة الذوق ما أدرك بحاسة، وإنما حَسُنَ وصف النفس بذلك لما يُحَسُّ به من كرب الموت وعذابه، فكأنها تحسه بذوقه.

وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴿١٨٦﴾﴾. فهذه استعارة. لأن الأمور لا عزم لها، وإنما العزمُ للموطِّن نفسَهُ على فعلها، وهو الإنسان، فالمراد: فإن ذلك من قوة الأمور. لأن العازم على فعل الأمر قويٌ عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [الآية ١٨٧]. وهذه استعارة. والمراد بها: أنهم غفلوا عن ذِكْره، وتشاغلوا عن فهمه، يعني الكتاب المنزل عليهم، فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، لا يراه فيذكره، ولا يتلفت إليه فينظره.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الآية ١٨٨] ومنجاة من العقاب. والمفازة: الأرض البعيدة التي إذا قطعها الإنسان فاز بقطعها، وأمن من خوفها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ وهذه استعارة. والمراد بالتقلب ها هنا كثرة الاضطراب في البلاد، والتقلقل في الأسفار، والانتقال من حال إلى حال.

سورة النساء

٤


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «النساء»(*)

سورة النساء سورة مدنية، وتسمى سورة النساء الكبرى، لتمييزها من سورة النساء الصغرى، وهي سورة الطلاق.

وقد عُنِيَت سورة النساء ببيان أحكام النساء واليتامى والأموال والمواريث والقتال؛ وتحدثت عن أهل الكتاب وعن المنافقين وعن فضل الهجرة ووزر المتأخرين عنها؛ وحَثَّت على التضامن والتكافل والتراحُم؛ وبيَّنت حكم المُحَرَّمات من النساء. كما حثت على التوبة ودعت إليها وسيلةً للتطهُّر ودليلاً على تكامل الشخصية واستعادة الثقة بالنفس والشعور بالأمن والاطمئنان.

وعدد آيات سورة النساء ١٧٦ آية، وعدد كلماتها ٣٧٤٥ كلمة.

الوصية بالنساء واليتامى

بيَّنَت سورة النساء أن الزواج شركة تعاونية أساسُها المودة والرحمة والوفاء والأُلفة. وساوت السورة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، ثم بينت أن للرجال درجةً على النساء، وهي درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التي يمتاز بها الرجل على المرأة، وبحكم الكدّ والعمل في تحصيل المال الذي يُنفقه على الزوجة والأسرة. وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد أو التسخير، وإنما هي زيادةٌ في المسؤولية الاجتماعية.

وقد حث القرآن الزوجة على طاعة زوجها، في ما تجب الطاعة فيه، والاحتفاظ بالأسرار المنزلية والزوجية

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

التي ينبغي ألاّ يطّلع عليها غيرُ الزوجين، كما أمر الرجل أن يقوم بحق الأسرة وأن ينفق عليها وأن يَفِي بالتزاماته نحوها. وجعل نفقة الرجل على أولاده، ورعايته لهم، نوعاً من الكفاح والجهاد السلمي يُثاب المؤمن على فعله، ويعاقب على تركه.

اليتامى

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم، وإكرام اليتيم لِصغَره وعَجْزه عن القيام بمصالِحِه. وحذّرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها، وحثّت على القيام بحقوقهم واختبارهم في المعاملات قُبَيل سن البلوغ، حتى يكون اليتيم مدرباً على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يتسلّم أمواله.

وقد توعّدت السورة آكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد. وقد مهدت لهذه الأحكام في آياتها الأولى، فطلبت تقوى الله وَصِلَة الرَّحِم، وأشعرت أنهم جميعا خُلقوا من نفس واحدة، أي أن اليتيم، وإن كان من غير أسرتكم، فهو رَحِمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأُخُوّة وحق الرحم، واعلموا أن الله الذي خلقكم من نفس واحدة، وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة، رقيبٌ عليكم يُحصي أعمالكم، ويحيط بما في نفوسكم ويعلم ما تُضمرون من خير أو شر فيحاسِبُكم عليه. وبعد هذا التمهيد، الذي من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة، ويحذرهم من الاحتيال على أكلها من طريق المبادلة، أو من طريق المخالطة قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [الآية ٢].

أي لا تخلطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم، تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء، بذريعة أنه منفعة لليتيم؛ أو بالخلط والشركة، بذريعة أنه أفضل لليتيم.

وقد تحرّج أتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى ما دام القصد حسنا والنية صادقة في نفع اليتيم، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الآية ٦].

المال والميراث

عُنِيت سورة النساء وغيرُها بشأن المال، من طريق المحافظة عليه وتثميره، ونهت عن الإسراف والتبذير، وأمرت بالتوسط في النفقة والاعتدال فيها، لأن المال عَصَب الحياة، ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة في أصلها وكمالها وسعادتها وعِزِّها، من علم وصحة وقوة واتساع عمران، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال. وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذَّر من تركها في أيدي السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يُحسنون التصرف بها. كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس، وفيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون. لقد أمر بتحصيلها من طريق التجارة ومن طريق الصناعة والزراعة، وسمّى طلبها ابتغاء من فضل الله، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعُها. وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعي في تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة. قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة/ ١٠].

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ونصيب كل وارث، فأمرت أن تبدأ أولا بتنفيذ وصية المَيْت وتسديد ديونه، ثم وَضَعَتِ المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتي:

أولاً ـ إن مبنى التوريث في الإسلام أمران: نسبي وهو القرابة، وسببي وهو الزوجية.

ثانياً ـ إنه، متى اجتمع في المستحقين ذكورٌ وأناث، أَخَذَ الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت، بين نصيبي الذكر والأنثى، مَطْعَناً على الإسلام، وقالوا إن هذا من فروع هَضْم الإسلام لحق المرأة، والمرأة إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذَّكَر تتعدد مطالبه وتكثرُ تَبِعاته في الحياة: فهو يُنفق على نفسه، وعلى زوجه، وعلى أبنائه. ومن أصول الشريعة أنه يدفع المَهْر لمن يريد أن يتزوّج بها. أما الأنثى، فإنها لا تدفع مهراً ويُلْزَم زوجها بنفقتها في مأكلها ومشربها ومسكنها وخَدَمِها، وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الأنثى مثلها. وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضي بحرمان

الأنثى كليّاً، أو حصر الميراث في أكبر الأبناء وَحْدَه، كما كانت الحال في بعض البلاد الأوروبية إلى وقت قريب، فإننا نجد تشريعاً آخر يقضي بمساواتها بالذكر.

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه في التوريث منهجٌ وَسَطٌ، لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو لم يَحْرِمِ الأنثى الميراث، بل أعطاها نصيبا مناسبا لظروفها في الحياة، وأعطى أخاها نصيبا مناسبا لتبعاته في الحياة. وهذا هو شأن الإسلام في أحكامه وشرائعه، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم.

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات، فأباحته بشرط العدل بينهن. فإذا خاف الإنسان من عدم العدل، فعليه الاقتصار على زوجة واحدة، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويُسْرِها وتحقيق الهدف من الزواج، وهو المودة والرحمة.

ويرى الإمام محمد عبده أنّ تَعَدُّدَ الزوجات أمر مُضَيَّقٌ فيه كل التضييق، فكأن الله سبحانه قد نهى عن التعدد.

قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾.

أي إن خفتم ألا تعدلوا في نكاح اليتيمات اللواتي تحت وصايتكم، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن الطمعَ في مالِهِنّ، لا الحبُّ ولا الرغبةَ في معاشرتهن، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة، أو كأنْ تَهْضِموهن حقوقَهن في مهر أمثالهن، إن خفتم ألا تعدلوا في اليتيمات فاطلبوا الزواج بسواهن من النساء.

وبمناسبة الحديث عن الزواج، امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، ولكن بشرط العدل بينهن، العدل في المعاملة وفي الحقوق الظاهرة. أما العدل في الشعور الباطن، فلا قِبَلَ به لإنسان، ولا تكليف به لإنسان، ما اتّقى إظهاره في المعاملة، وتأثيره على الحقوق المتعادلة. فإن وَجَد في نفسه ضعفاً عن ذلك العدل، وخاف ألا يَقْدِر على تحقيقه، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾

والنص الشرطي يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بواحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

أي لا تجوروا وتظلموا.

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام، واجتناب الظلم واجب وما لا يكون الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان العدل يتحقق بترك التعدد، فالاقتصار على الزوجة الواحدة واجب.

وفي ختام الآية وصية جديدة بالاقتصار على الزوجة الواحدة لأنه أدعى إلى العدل والاستقرار، والبعد عن الظلم وكثرة العيال.

شبهة تَفْتَضِح، وحجة تَتَّضِح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المعسول، فمثلا (كانتى) يقول: «إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتهن أو أن يجعل أداة متعة».

والحقيقة أن الأوروبيين هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة، فقط ومنعوهن حقوق الزوجية في النفقة أو الميراث أو إلصاق الولد، في حين أن الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات، يقول تعالى:

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية ٢٥]. ويقول الرسول (ص):

«إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ وَلاَ الذَّوَّاقَاتِ فَإِذَا تَزَوَّجْتُمْ فَلاَ تُطَلِّقُوا».

ونشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهن في أوروبا انتشار الأمراض السارية الفظيعة، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق، أو تُجهض الحامل، أو يمنع الحمل. وهل غَفِل الأوروبيون عن المصير السيئ الذي ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت والنشء يقتل؟... تنبهوا لذلك، فصدرت قوانين تقول مثلا: أبناء الزواج الحر، إذا اعترف بهم أبوهم، ألحقناهم به فينال الأولاد كل حقوق الأبناء. فهم تفادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق.

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز، أنه شاهد أثر الحروب في ألمانيا، ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد

المرأة التي مات زوجها في الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ما ينجب منها. وذكر لنا أن جمعية تألفت في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق.

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ③﴾.

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة، وهي رخصة ضرورية لحياة الجماعة في حالات كثيرة، وهي صِمَامُ أمان في هذه الحالات، ووقاية ليس في وسع البشرية الاستغناء عنها. ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها، سواءً في حالة إخلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث، عقب الحروب والأوبئة التي تجعل عدد الإناث في الأمة أحياناً ثلاثة أمثال عدد الذكور، أم في حالات مرض الزوجة أو عقمها، ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه، أو في الحالات التي يكون الرجل فيها ذا طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة، أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها. وكل حل فيها، غَيْرَ تعدد الزوجات، يُفضي إلى عواقب أوخم خُلُقياً واجتماعياً. ضرورة تواجه ضرورة. ومع هذا، فهي مقيدة، في الإسلام، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم والجور، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط.

التضامن الاجتماعي

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله في العبادة، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام اليتامى والمساكين والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير والمحتاج ومساعدة الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكِبَر والرياء، ونهت عن الكفر والجحود ومعصية الله والرسول. وذلك في جملة آيات تبدأ بقوله تعالى:

﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ㊱﴾.

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية

إلى «الضمان الاجتماعي»، وتحذير من البخل والشح، وبيانٌ أن المال مال الله، وأن الغنِيَّ مستخلف عن الله في إدارته وتثميره وانفاقه في نواحي الخير والبر. وقد فرض الله حقوقا للفقراء من مال الأغنياء فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق في سبيل الله. وجعل طرق البر متعددة، منها صدقة الفطر في عيد الفطر، والأضحية في عيد الأضحى، والهدى في موسم الحج. وجعل الله مورداً لا ينقطع لصلة الفقراء، ألا وهو الكَفَّارات التي أوجبها، ككفارة الظِّهار، وكفارة اليمين، وكفارة صوم رمضان. وفي كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعامَ المساكين أو كُسْوتهم. كما أوجب الله الوفاء بالنذر ولم يجعل الزكاة تطوُّعاً بل جعلها فريضة لازمة يُثاب فاعلها ويعاقب جاحِدُها. ونَلْحَظ أن الزكاة تتفاوت في نسبتها فتبدأ من ٢,٥٪ وهي زكاة المال، وتصل إلى ٢٠٪ وهي زكاة الركاز والمعادن والبترول. وكلما كان عمل العبد أظهر، كانت نسبة الزكاة أقل كما في زكاة المال، وزكاة التجارة. وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر، كانت نسبة الزكاة أكثر كما في زكاة الزراعة وزكاة الركاز.

المُحَرَّمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية، كما انفردت ببيان مُفَصَّل للمُحَرَّمات من النساء، وبدأت ذلك بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

ولا شك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة، أمر ممقوت تنفر منه الفِطَر السليمة، وتمجُّه الأذواق.

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات، فَحَرَّمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرَّضاعة ومن النسب، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرَّضاعة، وحرمت أم الزوجة التي دخل بها زوجها، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين.

الحِكْمَةُ من هٰذا التَّحْريم

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة.

فإذا أبيح وتزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنت، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية، فالأم مثلا لها حق الطاعة والاحترام؛ فلو اتخذها الإنسان زوجة، لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع. فضلاً عما هو غنيٌ عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع، فبهيميةٌ، أيَ بهيمية، أن يتمتع الرجل بأمه. ومثل هذا يقال في درجات القرابة الأخرى. فالخالة لها ما للأم، والعمة لها ما للأب، والأخت وابنتها وابنة الأخ، وابنة الإنسان التي هي قطعة منه، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن، ولا يمكن أن يتصور المرء في هذا الوضع، إذا أبيح، إلا المفارقات والصعاب، وضعف النسل وسوء المنقلب.

ومثل هذا يقال أيضا في نكاح من حرمن من جهة الرضاع، فإن المرضع أمٌ في الكرامة ولها حق الأم في وجوب الرعاية، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجية.

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام، فإن المرأة تغار من ضرتها، وتفعل الكثير في سبيل إبعادها عن زوجها. ولو أبيح الجمع بين الأقارب لَطَعَنَتِ المرأة في أختها وفي أمها، ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب، وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد. قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

مصادر التشريع في الإسلام

أمرت سورة النساء بالعدل في الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها. وبينت أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقي والتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم وهي:

أولاً ـ القرآن الكريم، والعمل به هو طاعة الله.

ثانياً ـ سنة الرسول قوليةً كانت أم فعلية؛ والعملُ بها هو طاعة الرسول.

ثالثاً ـ رَأْيُ أهل الحل والعقد في الأمة من العلماء وأرباب النظر في المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة، والتعليم، كلٌ في دائرة معرفته واختصاصه، والعمل بالرأي هو إطاعة أولي الأمر.

وهذه المصادر في الرجوع إليها مُرَتَّبة على هذا النحو، فلا نرجع إلى السُّنَّة إلا بعد عدم العثور على الحكم في القرآن، فنرجع إلى السنة حينئذ، إما لمعرفة الحكم الذي لم يرد في القرآن، وإما لبيان المراد مما ورد في القرآن. ولا نلتجئ إلى رأي أولي الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم في السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم. وهذا الاجتهاد هو عنصر «الشورى» الذي عليه أمر المسلمين. ومتى تحقق الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التي أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع في الشريعة الإسلامية. وقد انتفع به المسلمون كثيراً، واتسع به نطاق الفقه الإسلامي، وبخاصة في ما ليس منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة الرسول؛ وهو يشمل إصدار حكم على حادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما في المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف، في لغة الفقهاء والأصوليين، باسم «القياس» وقد بحثوه بحثا مستفيضاً، بَيّنوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلته، وما ينقضه، وما لا ينقضه وما يجري فيه، وما لا يجري فيه، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من يشاء.

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبداً

ويشمل أيضا النظر في تعرف حكم الحادثة من طريق القواعد العامة وروح التشريع التي عرفت من جزئيات الكتاب، وتصرفات الرسول، وأخذت في نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التي يرجع اليها في تعرف الحكم للحوادث الجديدة. وهذا النوع

هو المعروف بالاجتهاد من طريق الرأي وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله، ومَنَحَهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح، في دائرة ما رَسَمَه من الأصول التشريعية، فلم يَتْرِكِ العقلَ وراء الأهواء والرغبات، ولم يقيده، في كل شيء، بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شؤون الحياة، كما لم يُلْزِم أهل أي عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا. وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التي ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عُرْضَةً للزوال بكلمة قوم هَالَهُم، أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان، أن يكون في الأمة من يرفع لواء الحرية في الرأي والتفكير، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة، صالحة لكل زمان ومكان.

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا في تحصيل الوسائل التي يكونون بها أهلاً للاجتهاد في معرفة حكم الله الذي أوكل معرفته، رأفة منه ورحمة، إلى عباده المؤمنين:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [الآية ٨٣].

واقرأ في هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

القتال وأسباب النصر

عُنِيَت سورة النساء بتنظيم شؤون المسلمين الداخلية، وحِفْظ كيانهم الخارجي. وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول تعالى:

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

وبينت السورة أهداف القتال في الإسلام. وهذه الأهداف تنحصر في رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة، والقضاء على الفتن التي يثيرها أرباب المطامع والأهواء. ومن ذلك نعلم أن الإسلام، حينما شرع القتال، نأى به عن جوانح الطمع والاستئثار، وإذلال الضعفاء، واتخذه طريقاً إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة. وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التي أمر بها الله، لَفَت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسباباً ووسائل هي:

١ ـ تقوية الروح المعنوية للأمة: فقد نزل القرآن روحا وحياة ومنهجا ورسالة، وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة، متمسكة بالحق، ثابتة عليه، متحملةٍ صنوف الأذى وألوان الاضطهاد. فلما أَذِن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر في أكثر معاركها، لأن لها، من يقينها وإيمانها، ما يَكْفل لها النصر والغَلَبة.

٢ ـ إعداد القوة المادية وتنظيمها، قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠].

ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها، ومعرفة أحدث أدواتها، وكيفية استعمالها.

٣ ـ الشكر على النعماء ثقةً بأن النصر من عند الله، فينبغي ألاّ تأخُذَ المحاربَ نشوةُ النصر، فيخرجَ عن اتزانه، بل عليه أن يزداد تواضعا وخشوعا لعظمة الله، ويزيدَ في طاعة الله ونصره، لقوله سبحانه:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد/ ٧].

٤ ـ الصبر على البأساء ثقةً والتزاماً بأن مع اليوم غداً، وبأن الأيام دُوَل: يومٌ لك ويومٌ عليك، وأن الشجاعة صبرُ ساعة وليس الصبر هنا صَبْرُ الذليل المستكين، بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقَدَره، والمؤمن بحكمته، والمستعدِ ليومٍ آخر يَنْتَصِفُ فيه من عدوه. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٥ ـ ومن أسباب النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود، وأن الرزق محدود. فالشجاعة لا تُنقِص العمر، والجبنُ لا يزيده. ومن أسباب النصر

طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى:

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ١٢٦].

٦ ـ ومن أسباب النصر أخذ الحذر والحيطة والابتعاد عن اتخاذ بطانةٍ مُقَرَّبة من المنافقين والملحدين والخَوَنة، قال تعالى:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

٧ ـ تَذَكُّر فضل الجهاد وثواب البذل والتضحية، وعقوبة التثاقل والفرار من الجهاد، وتذكر ما أعده الله للمجاهدين والمكافحين في سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة، قال تعالى:

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «النساء»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النساء بعد سورة الممتحنة، ونزلت سورة الممتحنة عَقِبَ صلح الحديبية. وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة النساء في ما بين صلح الحديبية وغزوة تَبُوك.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأن كثيراً من الأحكام التي ذُكِرَت فيها تتعلق بالنساء. وتبلغ آياتها ستاً وسبعين ومِائةَ آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة في كثير من الأحكام التي شُرعت بعد سورة البقرة، فَذُكر فيها ما شُرِع من هذه الأحكام، كما ذُكر في سورة البقرة ما شرع من الأحكام في عهدها. وقد اشتملت سورة النساء مع هذا على بيان حال أهل الكتاب والمنافقين في الزمن الذي نزلت فيه، وكانوا قد غَلَوْا في أمرهم مع المسلمين، وزادوا في إيذائهم عما كانوا عليه في الزمن الذي نزلت فيه سورتا البقرة وآل عمران، فقوبلوا، في هذه السورة، بما يليق بذلك من الشدة في الخطاب، وأُمِر المسلمون فيها باستعمال الشدة معهم، وكانوا يؤمرون في سورتي البقرة وآل عمران باللين معهم والصبر على أذاهم.

وقد ابتدأت هذه السورة بآية جاءت مَطلعاً بارعاً لِمَا جاء بعدها من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفَنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز. المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الأحكام، ثم جاء بعدها آيات كثيرة من الأحكام والشرائع، ثم استُطْرِد منها إلى شرح أحوال اليهود من أهل الكتاب، ثم عاد السياق بعد ذلك إلى ما كان عليه من بيان الشرائع والأحكام، ثم استُطْرِد منه إلى الكلام ثانياً في أحوال المنافقين وأهل الكتاب، ثم خُتمت السورة بالعودة إلى سياقها الأول، ليكون آخرها مُشاكِلاً، بهذا، لأولها.

وقد جاءت سورة النساء بعد سورتي البقرة وآل عمران: لأنها تشبههما في الطول، وفي ما تناولته من بيان بعض الأحكام العملية، وشرح بعض أحوال أهل الكتاب والمنافقين.

براعة المطلع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية الأولى]، فأمر الناس بالتقوى لِمَا سيأتي في السورة من الأحكام. والتقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي. ثم ذكر أنه خَلَقَنا من نفس واحدة وجعل منها زوجها، لأن كثيراً من هذه الأحكام قد شُرِع لتنظيم العلاقة بين الزوجين ثم كرر الأمر بتقوى الله الذي يتساءلون به والأرحام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾.

أحكام اليتامى والسفهاء
الآيات [٢ ـ ٦]

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الآية ٢]، فأمرهم بأن يُؤتوا اليتامى أموالهم بالإنفاق عليهم منها وتسليمها لهم بعد بلوغهم. ونهاهم أن يَضُموا أموالهم في الإنفاق، لتتميز أموالهم وحدها، ولا يَدْخُلَ شيء منها في أموالهم. ثم أمرهم أن يتركوا نكاح اليتيمة إذا خافوا أن يُطْمِعهم ذلك في أموالها وأموال إخوتها فلا يُقسِطوا فيها. وَوَسَّع عليهم في نكاح غيرها إلى أربع، حتى لا يكون لهم عذرٌ في نكاح اليتيمة في تلك الحالة، ثم أمرهم أن يُؤتوا النساء مُهورَهن حتى لا يظنوا أنها بخلاف مهر اليتيمة يَحِلّ لهم الطمع فيها، وأحَل لهم أن يأخذوا منها ما تَطيب نفوسهن به، لأنهن يَحِلّ لهن التصرف فيها بخلاف اليتيمة لرشدهن، ثم نهاهم أن يؤتوا السفهاء من اليتامى وغيرِهم أموالهم، وأمرهم أن يبتلوا اليتامى عند بلوغهم، فإذا ظهر أنهم غير سفهاء دُفعت إليهم أموالهم. ثم

أمر من كان منهم غنياً أن يَعِفَّ عن أموال اليتامى، ومن كان فقيراً أن يأكل بالمعروف: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

أحكام الميراث
الآيات [٧ ـ ١٤]

ثم قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ فذكر أن للرجال والنساء نصيباً في الميراث، وكانوا في الجاهلية يورثون الرجال دون النساء، وأمرهم إذا حضر قسمةَ الميراث أولو القُربى ممن لا يرث واليتامى والمساكين أن يَرْزُقوهم منه ما يليق بحالهم على طريق الهِبَة أو الهدية، وذكر أن الصغار يَرِثُون كما يرث الكبار، وكانوا في الجاهلية لا يورثونهم لضعفهم. ثم حذرهم من أكل نصيبهم في الميراث كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وجعل ذلك جارياً مجرى أكل النار لأنه يستلزمه، ثم ذكر نصيب كل وارث ووعد من يطيعه بإعطاء كل وارث نصيبه جناتٍ يَخْلُد فيها، وأَوْعَد من يتعدى ذلك ﴿نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾.

حكم الزنا واللواط
الآيات [١٥ ـ ١٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾، فذكر أنه لا يُقبل في الزنا أقلُّ من أربعة شهود، وأن مَنْ يَثْبُتُ عليهن الزنا يُحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يَنْزِل فيهن حكم آخر. ثم ذكر أنه يجب في اللَّذَين يأتيانِ فاحشةَ اللِّواط إلى أن يتوبا، وأن التوبة إنما تُقْبل منهما ومن غيرهما إذا تابوا من قريب، ولا تُقبل منهم إذا أخروها إلى ما قُبَيْل الموت، ولا من الذين يموتون وهم كفار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾.

أحكام متفرقة في النساء
الآيات [١٩ ـ ٢٨]

ثم قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [الآية ١٩]. فحرّم عليهم إرث النساء

كرهاً، وكان الرجل إذا مات في الجاهلية وَرِثَ امرأته من يَرِثُ ماله، وحرم عليهم عَضْلَهن لأخذ شيء من مهورهن، ثم ذكر أن المهور تدفع نظير الاستمتاع بهن لا لِتُمْلك بها رقابهن حتى يورثْن أو يُعْضَلْنَ، ثم ذكر محرَّمات النكاح من امرأة الأب، والأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت، وأم الرضاع، وأخت الرضاع، وأم الزوجة، وبنت الزوجة المدخول بها، وأختِ الزوجة ما دامت في العِصْمة، وذاتِ البعل إلا السبيةَ إذا مُلِكت ولها بعل، ثم أحل ما وراء ذلك من النساء، إلى غير هذا من الأحكام، ثم ذكر أنه يريد بذلك أن يبين لهم سنن من قبلهم في الحلال والحرام من النساء، وأن يتوب عليهم مما كانوا فيه أيام جاهليتهم، وأن يخفف عنهم ما كان فيها من العادات الضارة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

تحريم التعدي على المال والنفس
الآيات [٢٩ ـ ٣٣]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الآية ٢٩]. فحرم أكل أموال الناس بالباطل مِنْ غَصْب أو سرقة أو نحوهما، وأحَلَّ أكلها بالتجارة عن تَرَاضٍ منهم، ثم حَرَّم عليهم أن يقتلوا أنفسهم، وأوعد من يفعل ذلك وعيداً شديداً، وَوَعد من يترك ذلك ونحوه من الكبائر أن يكفر عنه سيئاته ويُدْخِلَه مُدْخلا كريماً، ثم نهاهم أن يتمنى بعضهم ما عند الآخر من المال، لأنه كَسْبٌ له فهو أحق به من غيره، وأمرهم أن يسألوه إعطاءهم مِثْلَ ما أُعْطِيَ غيرُهم، فإن هذا من الغبطة الممدوحة، وذلك من الحسد المذموم، ثم ذكر أن لكل مال مما تَرَكَ الوالدان والأقربون والمعتقون مَوَالِيَ يَلُونَ أمره بإرثهم له، فهم يملكونه بذلك الحق الثابت لهم، ولا يحِلّ لغيرهم ما يحل لهم منه ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الآية ٣٣].

قِوامَةُ الرجال على النساء
الآيتان [٣٤ ـ ٣٥]

ثم قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية ٣٤]. فجعل الرجال

قوامين على النساء بما فضلهم عليهن في القدرة على مشاقّ الحياة، وبما أنفقوا عليهن من أموالهم. فالصالحات منهن مطيعات لبعولهن، حافظات لغيبهن. واللاتي يخافون نشوزهن لهم حق تأديبهن، وإن وقع شقاقٌ بين الرجل وامرأته، اختير لهما حَكَمان من أهلهما. ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

حقوق الله وبعض العباد
الآيات [٣٦ ـ ٤٢]

ثم قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الآية ٣٦]. فأمرهم بعبادة الله وَحْدَه، وأن يُحسنوا إلى الوالدين وذي القُرْبَى واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القُرْبى، والجار الجُنُب والصاحب بالجَنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانهم، وأن يقوموا بذلك من غير اختيال وتفاخر عليهم، لأن هذا شأنُ أولئك الكفار الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ولا يُنفقون شيئاً إلا رِئاءَ الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ثم ذَكر أنه سيجازيهم على ذلك ولا يَظْلِمُ أحدا مِثقال ذَرَّة، وإن تَكُ حسنةً يضاعفها، وهَدَّدَهم بأنه سيجيء من كل أمة بشهيد ويجيء بالنبي (ص) شهيداً عليهم ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

تحريم الصلاة على السكارى والجُنُب
الآية [٤٣]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [الآية ٤٣]. فحرم عليهم الصلاة في حال السكر وهم جُنبٌ حتى يغتسلوا، ثم شرع لهم التيمُّم بالتراب عند فَقْد الماء ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

التحذير من أهل الكتاب
الآيات [٤٤ ـ ٥٧]

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ وكان اليهود قد بالغوا في عداوة المسلمين حتى حالفوا المشركين عليهم، وزيَّنوا لهم ما هم فيه من الشِّرْك على الإسلام. فلما ذكر تلك الأحكام

العظيمة، شَرَعَ في تحذير المسلمين من اليهود أن يُضِلُّوهم عنها، ويعودوا بهم إلى ما كانوا عليه من ضلال الشرك، فذكر أن أولئك اليهود قد ضلوا ويريدون أن يعودوا بهم إلى ما كانوا عليه من الضلال، وذكر من ضلالهم تحريفهم لِلْكَلِم عن مواضعه، وأن النبي (ص) كان، إذا أمرهم بشيء، يقولون سمعنا وعَصَيْنا، إلى غير ذلك مما ذكره من ضلالهم. ثم أمرهم أن يؤمنوا بالقرآن من قَبْلِ أن يَطْمِسَ وجوههم فَيَرُدُّها على أدبارها. وهذا كناية عن تغيير حالهم من عز إلى ذل. ثم ذكر عِظَم ذَنْب الشرك الذي آثروا نصر أهله على المسلمين، وذكر تزكيتهم لأنفسهم بأنهم شَعْبُ الله المختار، وأنهم، مع هذا فضلوا عَبَدَةَ الأصنام على المؤمنين، ثم ذكر أنهم لم يحملهم على ذلك إلا حَسَدُ النبي (ص) على ما آتاه الله من فضله، وأنهم إذا حسدوه على ذلك، فقد آتى قبله آلَ إبراهيمَ النبوةَ والكتابَ والحكمة والملك، فمنهم من آمن بما آتاهم من ذلك، ومنهم من صَدَّ عنه حقداً وحَسَداً، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، ووعد الذين آمنوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

عودة إلى الأحكام
الآيات [٥٨ ـ ٧٠]

ثم قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ فأَمَرَهم بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يَحْكموا بين الناس بالعدل، وأن يُطيعوا الله والرسول وأُولي الأمر منهم، وأن يردُّوا ما يتنازعون فيه إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، ثم ذكر أن المنافقين يَعْدِلُون عن ذلك إلى التحاكم إلى الأوثان كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وأنهم إذا دُعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صدُّوا صدوداً، وأنهم، إذا أصابتهم مصيبة بما فعلوا من ذلك، جاؤوا إلى النبي (ص) يحلفون أنهم ما أرادوا، بتحاكمهم إلى غيره، إلا إحسانا وتوفيقا، وأنه يعلم أنهم يُبْطنون خلاف ما يُظهرون، وأنهم، لو كانوا مخلصين في ذلك، لوجدوه تَوّاباً رحيما، وأنهم لا يؤمنون حقاً حتى يُحكِّموا النبي (ص) في كل

ما شَجَرَ بينهم عن رِضىً منهم، ثم ذكر أنه، لو كَلَّفَهم ما يَشُقُّ عليهم من قَتْلِ أنفسهم، أو الخروج من ديارهم، لم يفعلْه إلا قليل منهم وضاقوا به، وأنهم لو فعلوا ما يُوعَظون به مما يُطيقونه لكان خيراً لهم. ثم ذكر أن مَنْ يُطيعُهُ ورسولَهُ يكون مع الذين أَنْعَمَ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين ومَنْ إليهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

أحكام القتال
الآيات [٧١ ـ ١٠٤]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ فأمرهم بأخذ الحذر وهو السلاح، وأن يَنْفِروا إلى القتال جماعات متفرقةً أو مجتمعين. ثم ذكر لهم أن منهم من يُثَبِّطُهم عن القتال، وهم المنافقون. فإن أصابتهم فيه مصيبة فَرِحوا بِعَدَمِ خروجهم معهم، وإن أصابهم فيه فوز تَمَنَّوْا أنْ لو كانوا معهم. ثم أمَرَهم بالقتال ووعدهم عليه عظيمَ الأجر، قُتِلوا أو غَلَبوا، وحَثَّهم على هذا بأنهم يقاتلون في سبيله وفي سبيل المستضعفين منهم بمكة، وأن أعداءهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، ومن يقاتلْ في سبيل الطاغوت يكون من أولياء الشيطان، ومن يتولاه الشيطان يكون ضعيفاً. ثم ذكر ما كان من المنافقين من طَلَب القتال قبل شَرْعِه لهم. فلما كُتِبَ عليهم هابوه وتمنوا لو أُخِّرَ عنهم إلى أجلٍ قريب حذراً من الموت، وأمر النبيَّ (ص) أن يرد عليهم بأن مَتَاع الدنيا قليلٍ ولو طال، وبأن لكل منهم أجلاً لا بد أن يدركهم ولو كانوا في بروج مشيدة. ثم ذكر أنهم، بعد استثقال القتال، إذا خرجوا إليه فأصابتهم حسنة، يقولون إنها من عند الله، وإن أصابتهم سيئة أَلْقَوْا فيها اللومَ على النبي (ص)، وأَمَرَه أن يَرُدَّ عليهم بأن الحسنة والسيئة جميعاً من عند الله، وإذا كان هناك سببٌ من العبد في إصابة السيئة فهو من نفسه لا من غيره، فلا يَصِحُّ أن يَلُوم في ذلك إلا نفسه، وليس للنبي (ص) في الأمر شيء، لأنه ليس إلا رسولا من الله. فمن يُطِعْهُ فقد أطاع الله، ومن يَتَولَّ عنه فلا شيء عليه في تَوَلِّيه، ثم ذكر أنهم إذا أُمروا بالقتال أظهروا الطاعة في حضرة النبي (ص). فإذا خرجوا من عنده أضمروا خلافها، والله يعلم ما يضمرون من ذلك ويكتبه

لهم. ولو أنهم تدبروا في ما يظهره القرآن من خفاياهم لعلموا أنه من عند الله، لأنّ ما يظهره منها لا يختلف عما في ضمائرهم، ولا يَعْلَمُ الغيبَ إلا الله تعالى، ثم ذكر أنهم، إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف، أذاعوه وزادوا فيه لِيُرْبكوا المسلمين بإرجافاتهم، ويُخِفُوا أمره عليهم.

ثم أمر النبي (ص) أن يقاتل في سبيله ويَدَعَ أولئك المنافقين، وأن يُحَرِّضَ المؤمنين على القتال، لأنه بهذا يَشْفَع شفاعةً حسنة، ومن يشفعْ شفاعةً حسنة، يكنْ له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة، كالمنافقين المثبطين، يكن له كِفْلٌ منها، ثم أمرهم إذا قابلهم أعداؤهم بالسلام أن يقابلوهم بأَحْسَنَ منه، لأنه لا يأمرهم إلا بقتال من يقاتلهم.

ثم لامَهُم على اختلافهم في قوم، من أولئك المنافقين بمكة، كانوا يُعينون المشركين على المسلمين، فقال بعضهم إنهم مسلمون يُحَرَّم قَتْلُهم، وقال بعضهم إنهم كفار يجوز قتلهم؛ فذكر لهم أنه ما كان لهم أن يختلفوا فيهم وقد أَرْكَسَهم بما كَسَبوا، وَرَدَّهم إلى أحكام الكفار من الذل والصَّغار والسَّبْي والقَتْل، ونهاهم أن يتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا من مكة إليهم، فإن تولّوْا عن الهجرة، فَحُكْمُهم حُكْمُ المشركين من أهل مكة، ثم استثنى منهم فريقين: أولهما قومٌ دخلوا في عَهْدِ من كان داخلاً في عهد المسلمين، وثانيهما قومٌ ضاقت صدورهم عن القتال، فلا يريدون قتال المسلمين ولا قتال قومهم. ثم ذكر قوما آخرين من غَطَفان كانوا إذا أَتَوْا المدينة أسلموا لِيَأْمَنُوا المسلمين، وإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ليأمنوهم، فأمرهم بقتالهم إن لم يعتزلوهم ويُسالموهم ويتركوا مُظاهرةَ قومهم عليهم.

ثم ذكر أنه لا يصح لمؤمن أن يقتل مؤمناً في الحرب إلا خطأ، بأن يرى عليه شعار الكفار فيظُنّهُ مشركا، وقد أوجب فيه الدِّيَة إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقُوا، ثم ذكر حُكْمَ المؤمن المقتول خطأً إذا كان في دار الحرب، وحُكْمَ المؤمن المقتول خطأً إذا كان بين أهل العهد، ثم خَتَم ذلك بما ذكره من الوعيد الشديد على قتله عمدا، تأكيدا لما ذكره من أنه لا يصِحُ قَتْلُه إلا خطأ.

ثم أمرهم أن يتبينوا حال الكفار قبل

قتالهم، ولا يقتلوا من يلقي إليهم السلام منهم طمعاً في أموالهم، وذكر لهم أنهم كانوا كفاراً مثلهم فمنّ عليهم بالإسلام، وقد يمنُّ عليهم بالإسلام مثلهم.

ثم ذكر أنه لا يستوي القاعدون عن الجهاد والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، واستثنى من القاعدين أولي الضرر لأنه لا جهادَ عليهم، ثم ذكر مِنْ فَضل المجاهدين على القاعدين ما ذكر، وأتبعه بوعيد مَنْ قَعَدَ عن الجهاد في دار الكفر، وأوجب عليهم الهجرة منها إلى دار الإسلام، واستثنى منهم المستضعفين الذين لا يمكنهم الهجرة، ثم رغّبهم في الهجرة بأنهم يجدون بها في الأرض مُرَاغَماً كثيراً وسَعَة، وهذا إلى ما يكون لهم عند الله من عظيم الأجر.

ثم بيّن لهم كيف يؤدون الصلاة في زمان الخوف والاشتغال بمحاربة العدو، فأباح لهم قَصْرَ الصلاة إذا ضَرَبوا في الأرض للجهاد، فإذا صلّوا خلف النبي (ص) في حال الحرب، فَلْيَقْسِموا أنفسهم في الصلاة خَلْفَه، ولا يُصَلُّوا خلفه دفعة واحدة، فإذا زال الخوف أتوا بالصلاة على وجهها المعروف، ثم ختم الكلام على القتال وأحكامه بقطع العذر عليهم فيه فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾.

تحريم المحاباة في الحكم
الآيات [١٠٥ ـ ١٢٦]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ وكان طعمةُ بْنُ أبيرِق سَرَقَ دِرْعاً، فلما طُلبت منه رمى بها واحداً من اليهود، فجاء قومُه يطلبون من النبي (ص) أن يُعينهم عليهم، فذكر له أنه أنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس بما يريه إياه، ونهاه أن يخاصمَ للخائنين وأمره أن يستغفره من ذلك، تعريضاً بمن فعل ذلك من قوم طعمة، ثم وَبّخهم على ما كان منهم، وذكر أنهم إذا جادلوا عن الخائنين في الدنيا، فمن يجادل عنهم يوم القيامة، وأن من يعمل سُوءاً ويستغفرِ الله ولا يرمِ به بريئاً يغفرْه الله له، ومن يعملْ سوءاً ثم يرمِ به بريئاً، فقد أضاف إليه إثماً أشنع

منه، ثم ذكر أنه لولا فضله على النبي (ص) لأضلوه بذلك، وأنهم لا يُضلون إلا أنفسهم، وأنه أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلّمه ما لم يكن يعلم فتضاعف بهذا فضله عليه، ثم ذكر أن ما يتناجَوْن به من ذلك وغيره لا خَيْرَ فيه، وإنما الخير في التناجي بالأمر بالصَّدَقَة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس، ومن يَفْعَلْ ذلك ابتغاء مرضاة الله، فله عظيم الأجر، ومن يَمْضِ في شِقاقه إلى أن يرتدَّ عن دينه كأولئك المنافقين فله شديد العقاب، ولا يغفِرُ الله له أبداً، لأنه لا يَغْفِر أن يُشْرك به ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء. ثم ذكر من قبائح شِرْكهم أنهم لا يدعون من دونه إلا إناثا كاللاّتِ والعُزّى، وإلا شيطانا مَرِيداً يُضل الناس ويزين لهم القبائح ويمنّيهم أنه لا بَعْثَ ولا حساب، ثم ذكر أنه لا صحة لأمانيهم ولا لأمانيّ أهل الكتاب أنه لن يدخلَ الجنةَ غيرُهم، فمن يعملْ سوءاً يُجْزَ بِهِ في يوم الجزاء، ومن يَعْمَلْ صالحا يُدْخِلْه الجنةَ ولا يَظْلِمْه شيئا، وليس هناك أحسنُ دينا ممن أسلم وجهه لله واتَّبَعَ ملة إبراهيم في توحيده ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [الآية ١٢٦].

أحكام أخرى في النساء
الآيات [١٢٧ ـ ١٣٤]

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [الآية ١٢٧]. وكانوا قد سألوا التخفيف في ما نزل في أول السورة في يتامى النساء اللاتي كانوا ينكحونهن طمعاً في أموالهن، وفي اليتامى الذين كانوا يَحْرِمونهن من الميراث، وفي العدل مع الزوجات في عشرتهن وعند مفارقتهن، فذكر لهم أن ما تلاه عليهم أولَ السورة في اليتامى هو الذي يفتيهم الآن به، لأنه لا سبيل إلى تغييره، وأنَّ الصلح بين المرأة وبعلها عند خوفها من نشوزه أو إعراضه خيرٌ من التسريح والفراق، ولو اقتضى ذلك أن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها في القَسْم والنفقة ونحوهما، وتتغلب بذلك على ما جُبِلَتْ عليه الأنفس من الشُّحِّ، ثم ذكر أن ما أُمِرَ به في أول السورة من العدل بين الزوجات لا يمكن الإتيان به على وجهه الكامل، فليأتوا منه ما في استطاعتهم من العدل في القَسْم ونحوه. فإذا لم يمكنهم ذلك

العدل المستطاع، ولم ترض الزوجات أن يَنزِلْنَ عن حقهن فيه، فليتفرّقا يُغْنِ الله كُلاًّ من سعته، ثم ذكر أن ما أمرهم به في ذلك من التقوى التي وصّى بها أهل الكتاب من قبلهم، ويوصيهم بها من بعدهم، وأنهم إذا كفروا ولم يَتّقُوه فإنه غنيّ عنهم، وأنه إن يَشَأْ يُذْهِبْهم ويَأْتِ بغيرهم، وأن من يريد ثواب الدنيا بالطمع في أولئك الضعاف ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الآية ١٣٤].

تحريم المحاباة في الشهادة
الآية [١٣٥]

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الآية ١٣٥]. فأمرهم أن يكونوا قوامين بالعدل في كل أمورهم، وأن تكون شهادتهم لله ولو كان فيها ضرر على أنفسهم أو الوالِدَين والأقربين، وإذا كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا يكتموا الشهادة لِرِضا الغني أو الترحم على الفقير، ونهاهم عن متابعة الهوى ليستطيعوا القيام بما أمروا به من ذلك ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

عَوْدٌ إلى المنافقين وأهل الكتاب
الآيات [١٣٦ ـ ١٧٥]

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ١٣٦]. فعاد إلى الكلام على المنافقين وأهل الكتاب، وقد بدأ بالمنافقين فأمرهم أن يؤمنوا إيماناً صادقاً بما أمرهم أن يؤمنوا به، وذكر أنه لا يغفر لمن يتذبذب في إيمانه مِثلَهم، ثم أمر النبي (ص) أن يبشرهم بما لَهُمْ من عذاب أليم تهكّماً بهم، وذكر أنهم يتخذون الكافرين من اليهود أولياء من دون المؤمنين، فيجلسون إليهم ويسمعون إلى طعنهم في القرآن، مع أنهم قد نُهوا عن سماع ذلك منهم، ثم ذكر تذبذبهم بين المسلمين والكفار، فإن كان للمؤمنين فَتْحٌ طلبوا أن يشاركوهم في الغنائم، وإن كان للكفار ظَفَرٌ امتنوا عليهم بمنعهم من المسلمين، وأنهم يُخادِعون الله بذلك وهو خادِعُهم، وأنهم يقومون إلى الصلاة متكاسلين يُراؤون الناس فيها. ثم ذمّهم على تلك الذبذبة، وحذر المؤمنين أن يتذبذبوا مثلهم، فيوالوا الكفار كما والَوْهم. وذَكَرَ أنه أعدّ للمنافقين أشنع عقاب، مُبالَغةً في التحذير منهم، واستثنى من ذلك من

تاب من نفاقه وأخلص دينه له، لأنه لا حاجة له في عذاب أحد، وإنما يعذب الناس ليحملهم على التوبة من ذنوبهم، ثم ذكر أنه لا يحب الجَهْر بالسوء من القول كما يفعل أولئك المنافقون، وأباح لمن ظُلِم أن يَجْهَر بما وقع عليه من الظلم، ولمن يأتي بخير أن يُظْهِره أو يُخْفِيه، وفَضَّل لمن ظُلِمَ أن يعفو عمن ظَلَمَه.

ثم انتقل إلى اليهود فحكم بكفرهم لأنهم يريدون أن يؤمنوا ببعض كتبه ورسله دون بعض، ثم أوعدهم على ذلك عذاباً مهيناً، ووعد الذين يؤمنون بسائر الرسل بأنه سوف يؤتيهم أجورهم يوم القيامة، ثم ذكر من تَعَنُّتِهم على النبي (ص) أنهم سألوه أن يُنْزِل عليهم كتاباً من السماء يعاينونه حين ينزل، وأن تعنُّتَهم على موسى أكبر من ذلك، فطلبوا منه أن يريهم الله جهرة، وعبدوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، إلى غير هذا من تعنتهم وعنادهم. ثم ذكر أنهم تعنتوا على مريم ونسبوها إلى الزنى، وأنهم تعنتوا على المسيح وزعموا أنهم قتلوه، وذكر أنهم لم يقتلوه يقينا بل رَفَعه إليه، وأنه لا يموت بعد رفعه حتى يؤمن به من كذبه منهم، ثم ذكر أنه جازاهم على تعنتهم بتشديده عليهم في الدنيا، فَحَرَّمَ عليهم بعض ما أَحَلَّ لهم من الطيبات، وأَعَدَّ في الآخرة للكافرين منهم عذابا أليما. ثم استدرك على ذلك بأن الراسخين في العلم منهم لا يتعنتون على النبي (ص)، بل يعلمون أنه النبي المُبَشَّر به، ويؤمنون به وبما أنزل إليه وما أنزل من قبله، ثم ذكر أنه أوحى إلى النبي (ص) كما أُوحِي إلى الأنبياء من قبله، وأنهم إذا لم يشهدوا بذلك فإنه يشهد به هو والملائكة، ثم أوعدهم على كفرهم وتعنُّتهم بما أوعدهم به، وختم الكلام معهم بدعوتهم الى الإيمان بما جاءهم من الحق، لأنه خير لهم من كفرهم وتعنتهم.

ثم انتقل إلى النصارى فنهاهم عن الغُلوّ في دينهم بتعظيم المسيح إلى مرتبة الألوهية، وذكر أنه إنما هو رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. ثم أمرهم أن يؤمنوا به وحده ويتركوا عقيدة التثليث، ونفى أن يكون له ولد كما يزعمون، وذكر أن المسيح والملائكة المقربين لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً له، وأوعد من يستنكف

عن عبادته بما ذكره في وعيده، ووعد الذين يؤمنون به بما وعدهم به، ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن جاءهم برهانٌ به وأنزل إليهم نوراً مبيناً ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾.

حكم الكلالة
الآية [١٧٦]

ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [الآية ١٧٦]. فذكر أنهم استفتوه في الكلالة من الورثة، وهم الحواشي الذين يدلون بالوالدين إلى الميت، وقد ذكر في أحكام الميراث السابقة نصيب الكلالة إذا كانوا إخوة لأم، وذكر هنا نصيب الكلالة إذا كانوا من العصب، وقد أفتاهم في ذلك بأن الأخت لها النصف، وبأن أخاها يرث مالها كلّه إن لم يكن لها ولد ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾.



أسرار ترتيب سورة «النساء»(*)

تَقَدُّم وجوه مناسبتها

وأقول: هذه السورة أيضا شارحة لبقية مُجْمَلاتِ سورة البقرة.

فمنها: أنه أَجْمَل في البقرة قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ٢١]. وزاد هنا: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [الآية ١].

وانْظُر كيف كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية، فَجَعَلها في أول هذه السورة التالية لها مبدأ[1].

ومنها: أنه أجمل في سورة البقرة: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الآية ٣٥]. وبَيَّن هنا أن زوجته خلقت منه في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية ١].

ومنها: أنه أجمل في البقرة آية اليتامى، وآية الوصية، والميراث، والوارث، في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة ٢٣٣]. وفَصَّل ذلك في هذه السورة أبلغ تفصيل[2].

وفَصَّل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك، فإنه قال في البقرة: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ [الآية ٢٢١].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) آية التقوى في البقرة هي: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وهي غاية، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون إلا للمتقين، فالتقوى غاية الهداية. أما في سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها في قوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الآية ١]. وبَيَّن وسائل تحقيقها في الآية نفسها.

(٢) وذلك في الآيات (٧، ١١، ١٢، ٣٣، ١٧٦) من سورة النساء.

فذكر نكاح الأمة إجمالاً، وفصل هنا شروطه[1].

ومنها: أنه ذكر الصَّداق في البقرة مجملا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [الآية ٢٢٩]. وشَرَحَهُ هنا مُفَصَّلاً[2].

ومنها: أنه ذكر هناك الخَلْع، وذكر هنا أسبابه ودواعيه، من النشوز وما يترتب عليه، وبَعْث الحكمين[3].

ومنها: أنه فَصَّل هنا من أحكام المجاهدين، وتفضيلهم درجات، والهجرة، ما وقع هناك مجملاً، أو مرموزاً إليه[4].

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة: تفسير: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. بقوله تعالى: ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [الآية ٦٩].

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه:

منها: أن آل عمران خُتمت بالأمر بالتقوى، وافتُتحت هذه السورة به[5]. وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السُّوَر، وهو نوع من البديع يُسمَّى: تشابه الأطراف.

ومنها: أن سورة آل عمران ذُكرت فيها قصة أُحُد مستوفاة، وذُكر في هذه السورة ذيلها، وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [الآية ٨٨]. فإنها نزلت لما اختلف الصحابة في من رجع من

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الآية ٢٥].

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [الآية ٢٠] إلى ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

(٣) قال عن الخلع في البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [الآية ٢٢٩]. وهنا قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [الآية ٣٤] إلى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [الآية ٣٥]. وهذا في أسباب الخلع.

(٤) قال هنا: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية ٩٥] إلى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾. وقال هناك: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة/ ١٥٤]؛ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١٦]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢١٨].

(٥) ختمت آل عمران بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وافتتحت النساء بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

المنافقين من غزوة أُحُد، كما في الحديث[1].

ومنها: أن في آل عِمران ذكرت الغزوة التي بعد أُحُد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ [الآية ١٧٢][2]. وأشير إليها هنا بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [الآية ١٠٤][3].

وبهذين الوجهين عُرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مُصْحف ابن مسعود، لأن المذكور هنا ذيل ما في آل عمران، ولاحقه وتابعه، فكانت بالتأخير أنسب.

ومنها: أنه ذُكر في آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب، وأقيمت له الحجة بآدم، وفي ذلك تبرئة لأمه، خلافاً لما زعم اليهود، وتقرير لعبوديته، خلافاً لما ادعته النصارى، وذكر في هذه السورة الرد على الفريقين معاً: فرد على اليهود بقوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [الآية ١٥٦]، وعلى النصارى بقوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [الآية ١٧١]، إلى قوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ [الآية ١٧٢].

ومنها: أنه لما ذكر في آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران/٥٥]، رد هنا على من زعم قتله بقوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾.

ومنها: أنه لما قال في الآية ٧ من آل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير: ٦/٥٩ عن زيد بن ثابت. ومسلم في المنافقين: ٨/١٢٨، وأحمد في المسند: ٥/١٨٤، وفيه: أن الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أُحُد، فقال فريق: بقتلهم. وقال فريق: لا. فنزلت.

(٢) هو يوم حمراء الأسد، كان عَقِبَ أُحُد، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح، ليريهم أن بهم قوة وجَلَداً. انظر البخاري: ٥/١٣٠، والمستدرك: ٢/٢٩٨ وسيرة ابن هشام: ٢/١٠١.

(٣) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد في سورة «محمد» تفصيل سبب النهي عن الوهن في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾.

عمران في المتشابه[1]: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، قال هنا: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الآية ١٦٢].

ومنها: أنه لما قال في آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران/ ١٤]، فصّل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية، لِيُعْلَم ما أحل الله من ذلك فيُقْتَصر عليه، وما حُرِّمَ فلا يُتَعَدّى إليه، لميل النفس إليه.

فقد جاء في هذه السورة أحكام النساء، ومباحاتها[2]، للابتداء بها في الآية السابقة في آل عمران، ولم يَحْتَجْ إلى تفصيل البنين، لأن تحريم البنين لازم، لا يترك منه شيء كما يترك من النساء، فليس فيهم مباح فيحتاجَ إلى بيانه، ومع ذلك أشير إليهم في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾.

ثم فَصَّل، في سورة المائدة، أحكام السراق، وقطاع الطريق[3]، لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعين في الآية بعد النساء والبنين. ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قسمة المواريث.

ثم فَصَّل، في سورة الأنعام، أمر الحيوان والحَرْث، وهو بقية المذكور في آية آل عمران. فانظر إلى هذه اللطيفة التي من الله بإلهامها!

ثم ظهر لي أن سورة النساء فصل فيها ذكر البنين أيضا، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم، وكان من ذلك إيثارهم على البنات في الميراث، وتخصيصُهم به دونهن، تولى قسمة

---

(١) المتشابه في القرآن يأتي على معنيين: أولهما المتماثل في اللفظ، وهو غير مراد هنا، والثاني ما جاء مؤيداً للواجبات بأصله، رادًا بوصفه، فتشابه على السامع من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأمد الأقصى ١٢٠أ).

(٢) وذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الآية ٢٢] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾.

(٣) وذلك بقوله تعالى في المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [الآية ٣٣].

المواريث بنفسه، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [الآية ١١]. وقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾ [الآية ٧]. فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث، لحبهم لهم، فكان ذلك تفصيلا لما يحل ويحرم من إيثار البنين، اللازم عن الحب، وفي ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة، وما يحرم.

ومن الوجوه المناسبة لتقدُّم آل عِمران على النساء: اشتراكها مع البقرة في الافتتاح بإنزال الكتاب، وفي الافتتاح بـ﴿الٓمٓ ۝١﴾ وسائر السور المفتتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة، كيونس وتواليها، ومريم وطه، والطواسين، و﴿الٓمٓ ۝١﴾ العنكبوت وتواليها، والحواميم، وفي ذلك الدليل الأول على اعتبار المناسبة في الترتيب بأوائل السور.

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوءًا به سوى بين الأعراف ويونس اجتهاداً لا توقيفاً، والفصل بالزُّمر بين ﴿حمٓ ۝١﴾ [غافر] و﴿صٓۚ﴾ وسيأتي.

ومن الوجوه في ذلك أيضاً: اشتراكهما في التسمية بالزهراوين في حديث: «اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران». فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتي الفلق والناس، المشتركتين في التسمية بالمُعَوِّذتين.



مكنونات سورة «النساء»(*)

١ - ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [الآية ١].

روى ابنُ جَرير[1] عن ابنِ إسحاق: أنَّ بني آدم من صلبه أربعونَ في عشرين بطناً؛ فَمِمَّا حُفِظَ من ذكورهم: قابيل، وهابيل، وإياذ، وشبوبة، وهند، ومرابيس، وفحور، وسند، وبارق، وشيث.

ومن إناثهم: إقليمة، واشوف، وجزروة، وعزورا.

قال ابن عَسْكَر: وقد رُوي أنَّ من صلب بني آدمَ عبد المغيث، وتوءمته أمة المغيث وذكر أيضاً منهم: عبد الحارث.

وفي «مختصر العين»[2] في قول

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَماتِ القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في «تاريخه» ١/١٤٥، وفي الأسماء التالية المذكورة فيه اختلاف عما جاء في أصول هذا الكتاب؛ وجاءت في «تاريخ الطبري» كما يلي: «عن ابن إسحاق، قال: فكان مَنْ بَلَغَنَا اسمه خمسة عشر رجلاً وأربع نسوة؛ منهم قين وتوءمته، وهابيل وليوذا. وفي نسخة من «تاريخ الطبري» كيوذا، وأشوث بنت آدم وتوءمتها، وشيث وتوءمته، حزورة وتوءمتها، على ثلاثين ومئة سنة من عمره، ثم أياد، وفي نسخة: إياد بن آدم وتوءمته، ثم بالغ وفي نسخة: بالع بن آدم وتوءمته، ثم أثاني. وفي نسخ: أثاث، أثاثي وتوءمته، ثم توبة وفي نسخة: ثوبة بن آدم وتوءمته، ثم بنان. وفي نسخ: بيان، لبنان بن آدم وتوءمته، ثم شبوبة. وفي نسخ: ثوبه، شوبه، سيوبه بن آدم وتوءمته، ثم حيان بن آدم وتوءمته، ثم ضرابيس وفي نسخة: صرابيس بن آدم وتوءمته، ثم هذز. وفي نسخ: هزر، هوز، هرز، هذذ بن آدم وتوءمته، ثم يحور. وفي نسخ: نجود، يحود، يحود بن آدم وتوءمته، ثم سندل بن آدم وتوءمته، ثم بارق بن آدم وتوءمته، كل رجل منهم تولد معه امرأة في بطنه الذي يُحمل به فيه».

(٢) هذا الكتاب هو مختصر لكتاب الخليل بن أحمد المسمى «العين»، وهو من تأليف أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي بالتصغير، نسبة لقبيلة، أندلسي توفي سنة ٣٧٩هـ. ووهم الزركلي في «الأعلام» فعزاه إلى محمد مرتضى.

العرب: (هَيّ بن بَيّ) لمن لا يُعْرف: أن هيّاً كان من ولد آدم فانقرض نسله.

قال ابن عَسْكَر: وجميع أنساب بني آدم ترجع إلى شيث، وسائر أولاده انقضت أنسابهم من الطوفان[1].

وذكر بَقِيُّ[2] بنُ مَخْلَد: أن وَدًّا، وسُواعاً، ويَغُوث، ويعوق، ونَسْراً كانوا أولاد آدم من صلبه. حكاه ابنُ عَسْكَر. وقد أخرج ابنُ أبي حاتم مثله عن عروة.

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [الآية ٢٧].

قال مُجاهِد: هم الزُّناة.

وقال السُّدِّي: اليهود والنصارى. أخرجهما ابنُ جرير[3].

٣ - ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [الآية ٣٧].

نزلت في كَرْدم[4] بن زيد، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبَحْري[5] بن عمرو، وحُيي بن أخْطَب، ورِفاعة بن زيد بن التابوت، حين أمروا رجالاً من الأنصار بترك النفقة على مَنْ عند رسول الله (ص)، خوف الفقر عليهم. أخرجه ابن جرير[6] عن ابن عباس.

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [الآية ٤٤].

سُمّي منهم: رِفاعة بنُ زيد بنِ التابوت، أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[7].

= الزبيدي، بفتح الزاي، نسبة إلى البلد زبيد، فكيف يستشهد به السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ هنا وقد ولد محمد مرتضى الزبيدي سنة ١١٤٥هـ؟!.

(١) انظر نحو ذلك في «تاريخ الطبري» ١/ ١٥٣.

(٢) وبقي بن مخلد الأندلسي القرطبي: حافظ مصنف، له «تفسير» قال فيه ابن بشكوال: «لم يُؤلّف مثله في الإسلام». وله «مسند» قال ابن حزم فيه: روى عن ألف وثلاث مئة صحابي ونيف، ورتبه على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف ليس لأحد مثله.

(٣) ٥/ ١٩.

(٤) في النسخ المطبوعة: «كدوم» والمثبت من المخطيتين و«سيرة ابن هشام» ١/ ٥١٥.

(٥) في النسخ المطبوعة: «محرى» وما أثبته هو الصواب.

(٦) ٥/ ٥٥.

(٧) و«الطبري» ٥/ ٧٤.

وأخرج عن عِكْرِمة: أنها نَزَلَتْ في رِفاعة، وكَرْدَم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن أبي رافع، وبَحْري بن عمرو، وحُيَي بن أخطب.

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟﴾ [الآية ٤٧].

قال السُّدِّي: نَزَلَتْ في رِفاعة بن زيد، ومالك بن الضَّيف[1].

وقال عِكْرِمة: في كعب بن الأشرف، وعبد الله بن صُوريا.

أخرجهما ابنُ أبي حاتِم.

٦ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [الآية ٤٩].

قال قتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: هم اليهود. أخرجه ابنُ جرير[2].

٧ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [الآية ٥١].

نزلت في كعب بن الأشرف. كما أخرجه أحمد من حديث ابنِ عبّاس[3].

٨ ـ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية ٥٤].

أخرج ابنُ جرير[4] عن عِكْرِمة قال: «الناس» في هذا الموضع: النبيُّ (ص) خاصّةً.

٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية ٦٠].

نَزَلَتْ في الجُلاس بن الصامت، ومُعَتِّب بن قُشير، ورافع بن زيد، وبِشر. أخرجه ابن أبي حاتِم، من طريق العَوْفي، عن ابن عباس[5].

١٠ ـ ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [الآية ٦٠].

هو أبو بَرْزَة الأسلمي الكاهِن. أخرجه الطَّبرانيُّ[6] من طريق عِكْرِمة، عن ابن عباس.

---

(١) انظر «الطبري» ٥/ ٧٨.

(٢) ٥/ ٨٠ ـ ٨١.

(٣) لم أجده في مطبوعة «المسند» لأحمد وانظر «الطبري» ٥/ ٨٤ و«أسباب النزول» للواحدي: ١١٤ ـ ١١٥، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٦ مضافاً إلى كعب: «وحيي بن أخطب». وقال: «رواه الطبراني، وفيه يونس بن سليمان الحمال، لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) ٥/ ٨٧.

(٥) بسند ضعيف. وجاء في ق «قريش» بدلاً من «قشير»، كما سقطت «العوفي» منها.

(٦) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٦ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

أو: كَعْبُ بنُ الأشرف. أخرجه ابنُ أبي حاتم[1] عن طريق العَوْفي عن ابن عباس.

١١ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٦٥].

أخرج ابنُ أبي حاتم، عن سعيد بن المسيِّب قال: نَزَلَتْ في الزُّبَيْر بنِ العَوَّام، وحاطِب بن أبي بَلْتعة، اختصما في ماء فقضى النبي (ص) للزبير[2].

١٢ - ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الآية ٦٦].

قال النبيُّ (ص)، وأشار إلى عبد الله بن رواحة: «لو أن الله كَتَبَ ذلك لكان هذا من أولئك القليل». أخرجه ابن أبي حاتم.

١٣ - ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [الآية ٧٢].

قال مُقاتِل: هو عبدُ الله بن أُبَيّ. أخرجه ابنُ أبي حاتم وغيرُه.

١٤ - ﴿مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [الآية ٧٥].

قالت عائشة: هي مَكّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم[3].

١٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [الآية ٧٧].

سُمّي منهم: عبدُ الرحمن بنُ عوف. أخرجه النَّسائي، والحاكِمُ من حديث ابن عباس[4].

١٦ - ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٨١].

قال الضَّحّاك: هم أهلُ النِّفاق. أخرجه ابنُ جرير[5].

١٧ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الآية ٩٠].

---

(١) بسند ضعيف.

(٢) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٦ وقال: «رواه الطبراني» وفيه يعقوب بن حميد، وثقه ابنُ حبان، وضعّفه غيره» انتهى وانظر تخريجاً وافياً له في «تفسير ابن كثير» ١/ ٥٢٠.

(٣) وأخرجه «الطبري» ٥/ ١٠٧، عن مجاهد والسُّدّي وابن عباس.

(٤) «النسائي» ٦/ ٣، و«ابن جرير» ١٧٠ - ١٧١، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٠٧ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وأقره الذهبي». وذكر ابن جرير الطبري قولاً آخر، أن هذه الآية وآيات بعدها نزلت في اليهود.

(٥) ٥/ ١١٣.

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ عبّاس قال: نزلَتْ في هِلال بنِ عُويمر الأسْلمي، وسُراقة بن مالك المدلجي، وفي خُزيمة[1] بن عامر بن عبد مناف.

١٨ ـ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ [الآية٩١].

قال مُجاهِد: هم أُناسٌ من أهل مكة[2].

وقال قَتادة: حيّ كانوا بتهامة.

وقال السُّدّي: جماعة، منهم نُعيمُ بنُ مسعود الأشجعي.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم.

١٩ ـ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [الآية ٩٤].

المَقُولُ له ذلك، وهو المُسَلِّم: عامر بن الأضبط الأشجعي. أخرجه أحمد[3]، من حديث عبد الله بن أبي حَدْرد. وفيه: أن القائلين له «لست مؤمناً» نفرٌ من المسلمين، فيهم أبو قَتادة، ومُحلِّم بن جَثّامة.

وعند ابن جَرير[4] من حديث ابن عمر: أن القائل هو مُحلِّم، وهو الذي قتله.

وعند البزّار[5] من حديث ابنِ عبّاس: أن القائِلَ هو المقداد بن الأسود.

وأخرج ابنُ أبي حاتم من طريق ابن الزبير، عن جابر؛ والثعلبي[6] من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن

---

(١) كذا في «الطبري» ٥/ ١٢٤، والأثر فيه عن عكرمة لا عن ابن عباس كما هو هنا.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ٥/ ١٢٧.

ووقع في «ق»: «بني جذيمة» وفي «خ»: «بني خذيمة».

(٣) في «المسند» ٦/ ١١، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨ وقال: «رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات».

(٤) ٥/ ١٤٠.

(٥) «كشف الأستار عن زوائد البزار» برقم: (٢٢٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨: «إسناده جيد».

(٦) الثعلبي: أحمد بن محمد، مفسر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، له «عرائس المجالس» في قصص الأنبياء، فيه رزايا وبلايا، وله «الكشف والبيان في تفسير القرآن» (توجد أجزاء خطية منه في دار الكتب المصرية والأزهرية). قال ابن تيمية فيه: «لقد أجمع أهل العلم بالحديث أنه يروي طائفة من الأحاديث الموضوعة.. وقد أجمع أهل العلم بالحديث على أنه لا يجوز الاستدلال بمجرد خبر يرويه الواحد من جنس الثعلبي والنقاش والواحدي، وأمثال هؤلاء المفسرين، لكثرة ما يروونه من الحديث ويكون ضعيفاً بل موضوعاً» توفي المترجم عام ٤٢٧ للهجرة.

عباس[1]: أن اسمَ المقتول: مرداس.

زاد ابن عباس: واسم القاتل: أسامة بن زيد.

٢٠ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٩٧].

سَمّى عِكْرِمةُ منهم: عليّ بنَ أُميّة بن خَلَف، والحارثَ بنَ زَمْعة، وأبا[2] قَيْس بنِ الوليد بنِ المغيرة، وأبا العاص بنِ مُنَبِّه[3] بن الحجاج، وأبا قيس بنِ الفاكه. أخرجه ابنُ أبي حاتم، وعبد[4].

٢١ - ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [الآية ٩٨].

قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين. أخرجه البخاري[5].

وسُمّي منهم في حديث آخر[6]: عيّاش بن أبي ربيعة، [والوليد][7] وسلمة بن هشام.

٢٢ - ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٠٠].

نزلت في ضَمْرَة[8] بن جندب. أخرجه أبو يعلى بسند رجالٍ ثقات عن ابن عباس.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن سعيد بن جُبير: أنّه أبو ضَمْرة بن العِيْص. وأخرج عبدٌ عنه قال: هو رجل من خُزاعة يقال له: ضَمْرَةُ بن العِيص.

---

(١) سبق في رقم (٨٠) بيان أن هذا الإسناد من أوهى الأسانيد.
وقد سقط من النسخ المطبوعة حتى: «زاد ابن عباس».

(٢) زيادة من «سيرة ابن هشام» ١/ ٦٤١ و«جمهرة النسب» ١/ ١٢٦.

(٣) وقع في «السيرة»: «العاص» وهو مخالف لما في «تفسير الطبري» وغيره.

(٤) و«الطبري» ٥/ ١٤٨.
وعبد هو ابن حميد، صاحب «التفسير المسند».
وانظر في ذكر هؤلاء الفتية «سيرة ابن هشام» ١/ ٦٤١.

(٥) برقم (٤٥٨٧) في كتاب التفسير، والطبري في «تفسيره» ٥/ ١٤٩.

(٦) أخرجه «الطبري» ٥/ ١٥٠.

(٧) زيادة من «الطبري» و«الدر المنثور» وهو ابن الوليد بن المغيرة، كما في «سيرة ابن هشام» ١/ ٣٢١، وكان من خيار المسلمين، كما في «جمهرة النسب» ١/ ١٢٦.

(٨) اختلف في اسمه وانظر في (جندع بن ضمرة) من «الإصابة».

وأخرج عن قتادة قال: يقال له سَبْرة.

وعن عِكْرِمة قال: هو رجل من بني لَيْث. وأخرج ابنُ جَرير[1] عن سعيد بنِ جُبير قال: هو رجل من خُزاعة يقال له ضَمْرة بن العِيْص، أو العِيْص بن ضَمْرة.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن الزبير: أنها نزلت في خالد بن حِزام، هاجر إلى الحبشة فمات في الطريق.

وهو غريب جداً!

وقيل: هو أكْثَم بنُ صيفي. أخرجه أبو حاتم في «كتاب المُعَمَّرين»[2] من طريقين عن ابن عباس، والأموي[3] في «مغازيه» عن عبد الملك بن عُمير.

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [الآية ١٠٥].

هم بنو أُبَيْرِق: بِشر، وبَشير[4]، ومُبَشِّر. أخرجه الترمذي[5]، من حديث قتادة بنِ النعمان.

٢٤ ـ ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [الآية ١١٢].

عنى به: لَبيد بنَ سهل، كما في حديث الترمذي[6].

وقيل: عَنَى به زيدَ بنَ السمين؛ رجلاً من اليهود. أخرجه ابنُ جَرير[7] عن قتادة، وعِكْرِمة، وابنِ سيرين.

٢٥ ـ ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [الآية ١١٣].

هم أُسَير[8] بن عروة، وأصحابُه. كما في حديث الترمذي[9].

---

(١) ٥/ ١٥١.

(٢) أبو حاتم: هو سهل بن محمد السجستاني، من كبار العلماء باللغة والشعر في البصرة، توفي سنة ٢٤٨هـ.

(٣) هو الوليد بن مسلم، عالم الشام في عصره، ومن حفاظ الحديث، له سبعون تصنيفاً في الحديث والتاريخ يعز وجودها الآن و«مغازيه» هي في حكم المفقود من تراثنا، توفي سنة ١٩٥هـ.

(٤) في «سيرة ابن هشام» ١/ ٥٢٤ بفتح الباء. وقال الدارقطني: انما هو «بُشير» بضم الباء.

(٥) برقم (٣٠٣٩)، والحاكم، و«الطبري» ٥/ ١٦٩ ـ ١٧٠. وبنو أُبيرق هم بطن من الأنصار من الأزد من القحطانية، كما في «معجم قبائل العرب» ١/ ٤.

(٦) انظر «الترمذي» رقم: (٣٠٣٩).

(٧) ٥/ ١٧٣.

(٨) ق و«الإتقان» ٢/ ١٤٩: «أُسَيد». وكذا في نسخة من «سنن الترمذي» كما في التعليق عليه ٨/ ٢٠٦.

(٩) انظر الترمذي: (٣٠٣٩).

٢٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ١٣٧].

قال أبو العالية: هم اليهود، والنصارى.

وقال ابنُ زيد: هم المنافقون. أخرج ذلك ابنُ جرير[1].

٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [الآية ١٤٢].

قال ابنُ جُريج: نَزلتْ في عبد الله بن أُبيّ، وأبي عامر بن النُّعمان. أخرجه ابنُ جرير[2].

٢٩ ـ ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية ١٤٣].

قال مُجاهِد: لا إلى أصحاب محمد [ص][3] ولا إلى [هؤلاء] اليهود.

وقال ابن جُريج: لا إلى أهل الإيمان، ولا إلى أهل الشرك[4] أخرجهما ابنُ جرير[5].

٣٠ ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ١٥٣].

سَمّى منهم ابنُ عَسْكَر: كَعْبَ ابنَ الأشرف، وفِنْحاصَ.

٣١ ـ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [الآية ١٥٧].

أخرج ابنُ جَرير[6] عن ابن إسحاق: أن الذي ألقي عليه شبهه رجل من الحواريين، اسمه سرجس.

٣٢ ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [الآية ١٦٢].

قال ابنُ عباس: نَزلتْ في عبد الله بن سَلاَم، وأصحابه. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[7].

---

(١) ٥/ ٢١٠.

(٢) ٥/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) زيادة من «الطبري».

(٤) ٥/ ٢١٦.

(٥) ووقع في «الإتقان» ٢/ ١٤٩ تفسير مبهم قوله تعالى ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية ١٢٧] ولم يأت به المؤلف هنا. قال في «الإتقان» اسُمي من المستفتين: خولة بنت حكيم.

(٦) ٦/ ١١.

(٧) قال السيوطي في «الدر المنثور» ٢/ ٢٤٦: أخرج ابن إسحاق، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [الآية ١٦٢] قال: نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، حين فارقوا يهود وأسلموا.

٣٣ ـ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الآية ١٧٢].

أخرج ابنُ جرير[1] عن الأجلح[2] قال: قلت للضَّحَّاك: ما المُقرَّبون؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية.

٣٤ ـ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [الآية ١٧٦].

المستفتي: هو جابر بنُ عبدِ الله. كما أخرجه الأئمةُ الستة من حديثه[3].



(١) ٦/٢٦.

(٢) أجلح بن عبد الله: صدوق، شيعي، مات سنة ١٤٥هـ. ووقع في النسخ المطبوعة «الاصلح»!.

(٣) البخاري (٦٧٤٣) ونحوه (٤٥٧٧)، ومسلم (١٦١٦)، وأبو داود: (٢٨٨٦)، والترمذي (٢٠٩٨) وابن ماجه (٢٧٢٨) وأحمد، والحميدي في «مسنده» (١٢٢٩) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٠٦)، والطبري ٦/٢٨، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ١٣٩, وانظر حول شرح الحديث: «معالم السنن» للخطابي ٣/٣٠٩، و«شرح صحيح مسلم» للنووي ٤/١٣٨، و«فتح الباري» ١٢/٢٥، و«شرح ثلاثيات مسند أحمد» للسفاريني ١/٢٠٣.



لغة التنزيل في سورة «النساء»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

أقول: إن استعمال «الأكل» بمعنى الإفادة، والانتفاع، والاستحواذ على الشيء ولا سيما ما يُدعى «مالاً» ورد غير مرة، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ [الفجر].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية ١٦١].

ومن المفيد أن نُشير إلى أن مادة «الأكل» ما زالت تستعمل هذا الاستعمال، على سبيل الاتساع في العربية المعاصرة، فصيحةً، ودارجة.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [الآية ١٢].

قال الزمخشري[1]: ... فإن قُلتَ: ما الكلالةُ؟ قُلتُ: يُطلق على ثلاثة: على من لم يُخَلِّف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولَد ولا والد من المخلَّفين، وعلى القَرابة من غير جهة الولد والوالد.

ومنه قولهم: ما وَرِثَ المجدَ عن كَلالةٍ كما تقول: ما صَمَتَ عن عِيٍّ، وما كفَّ عن جُبْن.

والكلالةُ في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوّة من الإعياء، قال الأعشى:

فـآلَيْتُ لا أرثـي لـهـا مِنْ كـلالـةٍ
ولا مِنْ وَجىً حتى تلاقي مُحمَّدا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) «الكشاف»، ١/ ٤٨٥.

فاستعيرت للقرابة من جهة الوالد والولد. . . .

أقول: واستعمال «الكلالة» في باب الإرث، وانصرافها إلى مخصوص بعلاقة وقرابة خاصة كما نصّوا على ذلك، بيان في أن لغة القرآن العزيز تمكنت من هذه العربية وحوّلت طائفة منها إلى المصطلح الفني بعد أن كانت لغة لا تشتمل على هذا النوع من المعجم الاصطلاحي الفني.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

لقد ورد الفعل «أعتدنا» بهذه الصيغة المسندة إلى ضمير المتكلمين ثلاث عشرة مرة في آيات القرآن، كما ورد «أَعْتَدَت» مع تاء التأنيث في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف/ ٣١].

ونريد أن نقف وقفة خاصة على هذا الفعل.

قالوا: أَعْتَدَ الشيءَ: أعدّه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾، أي: هَيَّأَت وأَعَدَّت.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الآية٣٧]، أي: هَيَّأنا.

والعَتادُ: العُدَّة، وما تُعِدُّه لأمرٍ مّا وتُهيِّئه له.

يقال: أخذ للأمر عُدَّتَه وعَتادَه، أي: أُهبتَه وآلتَه.

والعَتاد: ما أعدَّه الرجل من السلاح والدَّوابّ وآلة الحَرْب.

أقول: لم يبق من هذه المادة الواسعة إلا العَتاد في اللغة المعاصرة: ويُراد بها السلاح على اختلاف أنواعه، وما يتصل بالسلاح من أجزاءٍ ولواحق. كأن هذه الكلمة قد ضاقت رقعتها حتى قُيّدت بهذه الخصوصية. ولم يبق شيء من استعمال الفعل «أعتَدَ» في العربية المعاصرة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [الآية ٢٥].

وردت كلمة الطَّوْل في آيَتَيْن أُخريَيْن هما:

﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة/ ٨٦].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر/ ٣].

قال الزجاج[1] في تفسير الطُّوْل في [الآية ٢٥ من آل عمران]:

معناه من لم يقدر منكم على مَهر الحُرَّة، قال: والطُّوْل: القدرة على المَهر.

وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر/٣]، أي: ذي القدرة.

وقيل: الطُّوْل: الغِنَى.

وقيل: الطُّوْل: الفضل، يقال: لفُلانٍ عليّ طَوْلٌ، أي: فَضْلٌ.

أقول: أفادت العربية من كلمة «الطُّول» ضد «العرض» فوائد كثيرة، أفعالاً، ومصادر، وصيَغاً أخرى. وإن نظرة وافية إلى هذه المادة، في المعجم، لَتُهدي إلى القدر الكبير من الفوائد، التي حَفَلَت بها لغة العرب من هذه المادة، اعتماداً على تغيير الأصوات القصيرة (الحركات).

ألا ترى أنهم قالوا: طويل ثم طُوال للمبالغة.

وأنهم قالوا: طِوَل للحَبْل الطويل جداً كما في قول طَرَفة:

لَعمرُكَ إنَّ المَوْتَ، ما أخطأَ الفَتَى،
لَكَالطُّوَلِ المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ

ومن المفيد أن نجد «التطاول»، بمعنييه الحسي والعقلي، فندرك كم أفادت العربية من الأصول المادية الأولى، ففرّعت المعاني، وشقّقت الصيغ.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية ٣٨].

أُريد أن أقف على «الرِّئاء»، وهو مصدر كالمُراءاة، مثل السِّباق والمسابقة، ويُراد به الذين ينفقون أموالهم تظاهراً وزهْواً.

وفي الرِّئاء خداع وكذب، وهذا كقوله تعالى أيضاً:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال/٤٧].

أقول: وهذا المصدر الصريح هو الذي تحول إلى «الرياء»، واكتسب خصوصية معنوية نعرفها في الاستعمال.

وليس «الرياء» اسماً كما ورد في «اللسان»، بل هو المصدر نفسه كالمُراءاة، وهو مقلوب «الرِّئاء» وقد صِيْر إلى هذا القلب التماساً للخفة، وهو كالقلب في آبار وآرام، والأصل

---

(١) «اللسان» (طول).

أبآر وأرءام. إن هذه الخفة لا تتحقق في اجتماع الهمزة مع المدّ(آ).

وبسبب من القلب، حدث تطور في الدلالة، ألا ترى أن استعمال «رِئاء» يختلف قليلاً في الدلالة عن استعمال «رياء»؟

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [الآية ٤٣].

أقول: الأصل في «التيمُّم» القصد، ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة/٢٦٧].

أي: ولا تقصدوا المال الرديء تخصّونه بالإنفاق.

أما «التيمّم» في سورة النساء، وفي الآية ٤٣، فهو شيء آخر، وهو أمر من الله، جل وعلا، خصّ به المَرْضى، والذين كانوا عابري سبيل، أو من جاء من الغائط، أو لامَسَ النساء، وطلب إليهم أن يتيمّموا بالتراب إن لم يجدوا ماءً يتطهّرون به.

ولا بد أن نرجع إلى تاريخ الكلمة في مسيرتها وتطورها.

عرفنا أن التَّيَمُّم هو القصد، وهذا يعني أنه صيغة أخرى لكلمة «الأَمّ»، (بفتح الهمزة)، ومن هنا كان أصحاب المُعْجمات القديمة على حق في إدراج كلمة «التَيَمُّم» في مادة «أمم» لأن المعنى واحد وهو القصد.

وجاء في كتب اللغة[1]:

وتَيَمَّمْتُه: قصَدتُه. وفي حديث ابن عمر: من كانت فَتْرتُه إلى سُنّةٍ فلأَمٍّ ما هو، أي: قَصْد الطريق المستقيم، يقال: أَمَّه يؤُمُّه أَمّاً وتأَمَّمه وتَيَمَّمه.

قال: ويحتمل أن يكون الأَمّ (بفتح الهمزة)، بمعنى المأموم، أي: هو على طريقٍ ينبغي أن يقصد.

ومنه الحديث: كانوا يتأمَّمُون شِرارَ ثِمارهم في الصدقة، أي: يتعمّدون ويقصدون، ويُروَى: يَتَيَمَّمُون، وهو بمعناه.

ومنه حديث كعب بن مالك: وانطلقتُ أتأمَّمُ رسولَ الله (ص).

وقال ابن السكيت في قوله تعالى:

(١) انظر «اللسان» (مادة أمم).

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أي: اقصِدوا لصعيدٍ طيّب، ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التَيَمّم عَلَماً لمَسْح الوجه واليَدَيْن بالتراب.

وقال ابن سيده: التَّيَمُّم التَوَضُّؤ بالتراب على البَدَل، وأصله من الأول، (يريد التأمّمُ)، لأنه يقصد التراب فيَتَمَسَّح به. أقول: هذا طريق مسيرة الكلمة في تحولها من «القصد» العام الى المصطلح الفَني بحيث صار التيمم، لدى الخاصة والعامة، التَمَسُّح بالتراب. ولا بد من فائدة أخرى هي:

أن «الأَمّ»، (بفتح الهمزة)، و«اليَمّ»، وكلاهما يعني القصد، أصلهما البعيد هو الظرف «أمام»، وبشيء من لطف الصنعة، كما قالوا، صِيرَ إلى القصد فكأن من «يؤمّ»، يذهب إلى «أمام» في الأصل ثم اتُّسِعَ فيه.

وأرى أن «الإمامَ»، وهو من يُؤتَمّ به، يُلمِح إلى هذا الأصل البعيد وهو الظرف «أمام»، وكذلك الإمامة من غير شك.

وأسماء الجهات أمدّت العربية بطائفة كبيرة من المواد النافعة، ألا ترى أن «خلف»، قد جاء منها الفعل «خَلَف» بفوائده الكثيرة، وصيغه المختلفة، ومن غير شك أن «الخليفة»، و«الخلافة» من هذا.

ولا تحسبنَ كلمات «الخُلْف»، و«الخلاف»، و«الاختلاف» بعيدة عن الظرف «خَلفَ».

وإذا قلنا هذا، فإنما نقول مثله في «وراء»، وليست التورية والمواراة إلا من هذا الظرف المكاني.

وهذا باب واسع لو استوفيته لتهيأ منه مجموع ظريف لطيف.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٦٦].

أريد أن أشير إلى أن الآية الكريمة جعلت الخروج من الديار من الأمور الكبيرة التي تأتي بعد قَتْل النفس، فإذا كان قتل النفس عسيراً صعباً، لا يُقْدم عليه الإنسان إلا في أحوال نادرة، فإن الخروج من الديار من أشق الأمور على الإنسان.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ [الآية ٧٣].

ليس من شيء في هذه الآية الكريمة

يدفعني إلى وقفة خاصة، إلا استعمال «النون».

قال النحاة: إن اللام موطئة للقسم، وهذا يعني أن الجواب في هذه الجملة الإنشائية ينبغي أن يكون جواباً للقسم، وإذا كان جواباً للقسم فقد يكون مؤكداً بالنون إن كان مثبتاً مستقبلاً مقترناً بلام القسم كما هي الحال في الآية نفسها ﴿لَيَقُولَنَّ﴾.

أقول: وعلى هذا جرى الأسلوب القرآني وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت/٥٠].

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم/٤٦].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/٧].

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم/٧].

وآيات أخرى جرت على هذا الأسلوب، وهو كون الجواب للقسم لا للشرط. وعلى هذا جرى أسلوب الفصحاء في الجاهلية والإسلام، حتى إذا جاء العصر العباسي، وجدنا تَحَوُّلاً عن هذا الأسلوب وهو كون الجواب للشرط بدليل اقترانه بالفاء. ومن الشعراء العباسيين الذين جروا على هذا الأسلوب أبو نواس، والسَّرِيُّ الرفَّاء، ومسلم بن الوليد، والشريف الرَّضِي وغيرهم. ولكننا نجد أبا تمام والمتنبي قد اتبعا الأسلوب الفصيح الذي استقريناه في الآيات الكريمة، على أننا نجد البحتري قد اتبع الأسلوبين، وها نحن نعرض نماذج من أقوال أبي تمام والشريف الرضي والبحتري.

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها حبيش بن المعافى[1]:

لَئِن ظَمِئَتْ أجفانُ عَيْنٍ إلى البكا،
لقد شربتْ عيني دماً فتَرَوَّتِ

وقال من قصيدة يمدح بها الفضل بن صالح الهاشمي[2]:

لَئِن قُلَيْبُكَ جاشت بالسماحة لي
لقد وصلتُ بشكري حبْلَ ماتِحِها

(١) «ديوان أبي تمام» (ط بيروت ١٨٨٧) ص: ٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٦٩.

وقال من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي[1]:

لـئـن غـمّـتْ بـنـي حـوّاء نـفـعـاً
لـقـد خَـصّـتْ بني عبد الحـمـيـد

ونجتزئ بذكر هذه الأبيات الثلاثة عن الكثير غيرها مما اتبع فيه الشاعر هذا الأسلوب، وهو جعل الجواب للقسم المتقدم المتمثل باللام الموطئة ولقد جرى المتنبي على هذا الأسلوب فقد قال من قصيدة في رثاء جَدّته[2]:

لئن لـذَّ يومُ الشامتين بموتها،
لـقـد وَلَـدَتْ مـنّـي لأنـفِـهِـم رَغْـمـا

وقال من مقطوعة في إنسان ينشده شعراً في وصف بركة[3]:

لـئـن كـانَ أحـسَـنَ فـي وصـفـهـا
لـقـد تَـرَكَ الحـسنَ في الوصف لَكْ

وقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويعاتبه[4]:

لَئِن تركنا ضُمَيراً عن مَيامننا،
لـيـحـدُثَـنْ لـمـن ودّعـتَـهـم نَـدَمُ

على أن هذا هو الأسلوب الذي جرى عليه الجاهليون بدلالة ما ورد في الآيات المحكمات، وهو الأسلوب الذي جرى عليه الإسلاميون كعمر بن أبي ربيعة، وجميل، وكُثَيِّر، وغيرهم، وها هو الفرزدق يخاطب جريراً فيقول:

لـئـن فَـرِكَـتْـك عِـلـجـة آل زيـدٍ،
وأعـوزَكَ الـمُـرَقَّـقُ والـصّـنـابُ
لـقِـدْمـاً كـان عَـيْـشُ أبـي مـمـرّاً
يـعـيـش بـمـا تـعـيـش بـه الـكـلابُ

وعلى ذلك سار جرير أيضاً، فقال يرثي جبير بن عياض الكليبي[5]:

لعمري لَئِن خَلّى جُبَيْرٌ مكانَهُ،
لـقـد كـان شُـعـشاعَ العشية شَيْظما

وقال يهجو التيم[6]:

لَـئِـن سـكـنـت تـيـمٌ زمـانـاً بـغِـرّةٍ،
لـقـد حُـلِـيَـت تـيْـمٌ حُداة عَـصَـبْـصَـبـا

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧.

(٢) «ديوان المتنبي» (شرح الواحدي، ط. أوربا) ص: ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق ص: ٣٦٢.

(٤) المصدر السابق ص: ٤٨٥.

(٥) الديوان ص: ٥١٦.

(٦) الديوان ص: ١٣.

ومما ينسب إلى المجنون قوله[1]:

لَئِن كانَ يُهدىَ بَرْدُ أنيابها العُلى
لأفقَرَ منّي، إنني لفقير

وإذا عدنا إلى عصر بني العباس وجدنا ابن الرومي يَتّبع الأسلوب الفصيح، فيقول مادِحاً أحمد بن ثوابة[2]:

لَعمري لَئِن حَاسَبْتني في مَثوبتي
بِخفضي، لقد أجريَت عادة حاسِبِ

وقال من قصيدة في الحسن بن عبيد بن سليمان[3]:

أقسمتُ حقاً: لَئِن طابَتْ ثِمارهُم،
لقد سرى عَرْفُهم في أكرم التُرُبِ

وقال أيضاً من قصيدة يرثي بها يحيى بن عمر[4]:

لَئِن لم تكُن بالهاشميين عاهةٌ
لما شَكُكم، تالله، إلا المُعَلْهَجُ

على أننا نجد البحتري قد جرى على الأسلوب الفصيح كما جَرَى على خلافه، فقد قال من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان[5]:

فَلَئِن جحدتُ عظيمَ ما أوليتَني
إنّي إذاً واهي الوفاء ضعيفُهُ

وقال أيضاً من قصيدة يمدح بها الخليفة المتوكل[6]:

لَئِن أضحَتْ محلّتنا عراقاً
مُشرّقةً وحِلّتُها شآما
فلم أحدِثْ لها إلاّ وداداً
ولم أزدَدْ بها إلاّ غراما

وقد جرى الشريف الرضي على الأسلوب الذي استحدث خطأ، فجرى عليه الكثير من المعربين.

قال الشريف من قصيدة يمدح بها أباه ويهنئه بعيد الأضحى[7]:

لَئِن أبغضتِ مني شَيبَ رأسي،
فإنّي مُبغضٌ منكِ الشبابا

---

(1) «شروح سقط الزند» ٣/ ١٠٤٢.
(2) «ديوان ابن الرومي» (ط. دار إحياء التراث، بيروت) ص: ٢٧٦.
(3) «ديوان ابن الرومي» (تحقيق حسين نصار) ١/ ١٩٢.
(4) المصدر السابق ٢/ ٤٩٨.
(5) «ديوان البحتري» (دار القاموس الحديث، بيروت) ص: ٤٢.
(6) المصدر السابق ص ١٨.
(7) «ديوان الشريف» (مطبعة نخبة الأخيار) ص: ٤٢.

وقال أيضاً من مقطوعة في النسيب[1]:

لَئِن كنتَ أخليتَ المكانَ الذي أرى

فهيهات أن يخلو مكانُكَ من قلبي

وبعد، فكيف هو الأسلوب في العربية المعاصرة؟

لا نعرف في العربية المعاصرة إلا الأسلوب الذي جرى على خلاف ما اشتهرت فصاحته، ودلت عليه لغة التنزيل العزيز، وذلك أن المُعْربين جَرَوا على أن الأسلوب هو أسلوب الشرط، وأن الجواب فيه جواب للشرط فيقال:

ولئنْ فاتَنا شيء من ذلك، فلم يَفُتْنا ما هو ضروريّ.

وأنت تجد مثل هذا الأسلوب جارياً شائعاً في كتابة الأديب وغير الأديب.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [الآية ١٠٠].

قالوا:

والمُراغَم: السَّعَة والمُضطرب، وقيل: المذهب والمهرَب في الأرض.

وقال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مَعْنَى مُراغماً مُهاجَراً، المعنى يجدُ في الأرض مُهاجَراً لأنّ المهاجِرَ لقومه والمراغِم بمنزلة واحدة، وإن اختلف اللفظان، وأنشد:

إلى بَلَدٍ غير داني المَحَلّ

بعيدِ المُراغَمِ والمُضْطَرَبْ

وقال: وهو مأخوذ من الرُّغام وهو التراب.

ويقال: راغمتَ الرجل إذا فارقتَه وهو يكره مفارقتَك لمذلّةٍ تلحقه بذلك، قال النابغة الجعدي:

كطَوْدٍ يُلاذُ بأركانه

عزيزِ المُراغَمِ والمَذْهَبِ

أقول: وأكبر الظن أن «المُراغَم» من كلم القرآن، ذلك أن البيت الذي أنشده أبو إسحاق لا نعرف من أمره ونسبته شيئاً، والنابغة الجعدي شاعر إسلامي. على أن هذا لا يمنع أن تكون الكلمة معروفة في العربية قبل الإسلام، ولكني أقول بأن الاستعمال القرآني خصص هذه اللفظة باسم المكان فجاءت على زنة اسم المفعول، وذلك جارٍ في غير الثلاثي من الأفعال.

(١) المصدر السابق ص: ٧٩.

ثم إن الأصل في هذه الكلمة، كما قال الزجاج، هو «الرّغام» أي التراب. وهنا نقول إن قولنا: أرغمتُ فلاناً، أي: أجبرته وقَهَرْته لمحاً إلى أن «المُرغَم» في الأصل من مَسّ جبهته التراب، وقد امّحت هذه الحقيقة التاريخية اللغوية فبقي الإجبار والقهر، وعلى هذا لا يكون «المُراغَم» اسم مكان بمعنى المهرَب والمُضطرَب فحسب، بل يضاف إلى ذلك أنه المَهرب الذي يُضطرُّ الإنسان إلى أن يَلْجأ إليه ويُكْرَه على سُلوكه.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [الآية ١٠٢].

أقول: أشار الفعل «فلتقم» إلى أن الفاعل مؤنث وهو طائفة، وهذا يعني أن العربية تراعي اللفظ كثيراً. فلما كان لفظ الفاعل مؤنثاً أشار الفعل إلى التأنيث بالتاء في أوله. حتى إذا أسند إلى الفاعل فعلٌ بعده ظهرت المراعاة للأصل والمعنى، وذلك لأن الطائفة مجموع من الناس قد تكون مساوية لـ«قوم»، أو «جمع»، أو شيء من هذا.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴿١١٣﴾﴾.

في مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، وهذا كثير في القرآن وكثير في العربية الفصيحة ولا سيما القديمة.

ومراعاة اللفظ في العربية كثيرة، وقد تكون سمة من سمات الفصاحة، ومن ذلك مثلاً أن كلمة «بعض»، تدلّ على الواحد في شواهد كثيرة كما تدل على الجمع في شواهد أخرى. غير أن دلالتها على الواحد تأتي مراعاة للفظها الذي هو مفرد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ [التحريم/ ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف/ ١٠].

وفي كلام الفصحاء وأشعار العرب الشيء الكثير من هذه الدلالة على الواحد لمراعاة اللفظ.

على أن مراعاة المعنى وهو الجمع كثيرة أيضاً.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ

خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾.

أقول: ورد «الكَسْب» في لغة التنزيل ودلالته عامة، ينصرف إلى الخير كما ينصرف إلى الشر.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان/٣٤].

وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ [البقرة/١٣٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة/٢٨١].

وقد اجتزأنا بهذه الآيات عن كثير مما يدخل في هذا الخصوص.

غير أننا نجد آيات كثيرة تشير إشارة واضحة إلى أن المراد بـ«الكسب» هو الشرّ، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة/٨١].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم/٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ [آل عمران/١٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ [الآية ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس/٢٧].

كما يتحقق هذا المراد من الكلمة بانصرافها إلى الشرّ في آيات كثيرة أخرى.

وقد نجد «الكسب» في آيات عِدّة يعني الخير المحض كقوله تعالى:

.... ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام/ ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة/٢٦٧].

ومثل «الكسب» «الاكتساب» في آيات الله فليس الفعل المزيد خاصاً بفائدة معنوية تميزه، وعلى ذلك فهو ينصرف إلى الخير كما ينصرف إلى الشرّ.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [النور/١١].

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1] [البقرة/٢٨٦].

ولكنك تجد «الاكتساب» دالاً على الكسب الحلال في قوله تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [الآية ٣٢].

أقول: في هذا العرض لهذه الآيات بيان في عموم اللفظ، وخصوصه لأداء المعنى، وقد يكون ذلك أجزى وأوفى من التخصيص والتقييد، وقد كنا أشرنا إليه.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

والمعنى: لن يأنف المسيح، ولن يذهبَ بنفسه عزةً، من نكَفْتَ الدمعَ إذا نحّيتَه عن خدّك[2].

وقال الأزهري: سمعت المنذريّ يقول: سمعت أبا العبّاس، وقد سُئِلَ عن الاستنكاف في قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ فقال: هو أن يقول: لا، وهو من النَّكَف والوَكَف.

يقال: ما عليه في ذلك الأمر نَكَفٌ ولا وَكَفٌ، فالنكَف أن يقالَ له سوءٌ.

واستنكَفَ ونَكِفَ إذا دفَعه وقال: لا[3].

وعند المفسرين: الاستِنكاف والاستِكبار واحد.

أقول: والفعل «استنكف» من الأفعال المستعملة في العربية المعاصرة، ولكن المعنى شيء آخر فيقال: استنكَف فلان عن المشاركة في الأمر، أي: عَدَلَ وتَنحّى، واستنكَفَ عن «التصويت» في مجلس النواب، أي: عدل وانصرف.

ولكننا نجد هذا الفعل في العامية الدارجة في الحواضر العراقية مستعملاً كما أشارت إليه الآية الكريمة، فابن

(١) قد يقال: إن الفعل المجرد في هذه الآية انصرف إلى الخير، في حين أن المزيد انصرف إلى الشر، وهذا صحيح، ولكني أقول: إن هذا الانصراف لم يكن من البناء في كل منهما، بل هو من استعمال حرف الخفض اللام في الأول، و«على» في الثاني كقوله: ما له وما عليه، واستقراء الآيات ينفي هذا الاختصاص المزعوم.

(٢) «الكشاف» ١/ ٥٩٤.

(٣) «التهذيب» (نكف).

المدينة يقول: فلان يستنكف أن يشتغل سائقاً لسيّارة، والمعنى يأنف ويذهب بنفسه عزّةً.

وهذا من الغرائب اللغوية التاريخية وذلك أننا نجد جمهرة من الألفاظ الفصيحة القديمة قد عَفَا أثرها في الفصيحة المعاصرة، وبقيت في العامية على أنها استعمال دارج.





المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «النساء» (*)

قال تعالى: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [الآية ١] خفيفة لأنها من تساؤلهم فانهم «يَتَساءَلُونَ» فَحُذِفت التاء الأخيرة، وذلك كثير في كلام العرب نحو (تَكَلَّمُونَ) وان شئت ثقّلت فادغمت[1].

قال الله تعالى ﴿وَالأَرْحَامَ﴾ [الآية ١] منصوبة أي: اتقوا الأرحام[2]. وقرأ بعضهم ﴿وَالأَرْحَامِ﴾ جرًّا[3]. والأوَّلُ أحسن لأنك لا تُجري الظاهر المجرور على المضمر المجرور.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾ تقول من «الرقيب»: «رَقَبَ» «يَرْقُبُ» «رَقْبًا» و«رُقُوبًا».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هي في الطبري ٧/ ٥١٧ قراءة أهل المدينة والبصرة، وفي السبعة ٢٢٦ إلى ابن كثير ونافع وابن عامر، والى أبي عمرو في رواية وأجاز ابن عباس القراءتين، وفي الكشف ١/ ٣٧٥، والتيسير ٩٣ الى غير الكوفيين، وفي الجامع ٥/ ٢ الى أهل المدينة وفي معاني القرآن ١/ ٢٥٣ بلا نسبة. أما قراءة عدم التثقيل ففي الطبري ٧/ ٥١٧ هي قراءة بعض قراء أهل الكوفة وفي السبعة ٢٢٦ إلى عاصم وحمزة والكسائي والى أبي عمرو وفي رواية أن ابن عباس أجاز القراءتين وفي الكشف ١/ ٣٧٥ والتيسير ٩٣ والجامع ٥/ ٢ والبحر ٣/ ١٥٦ الى الكوفيين.

(٢) في السبعة ٢٢٦ هي قراءة القراء كلهم إلا حمزة وفي الكشف ١/ ٣٧٥ والتيسير ٩٣ كذلك وفي البحر ٣/ ١٥٧ الى الجمهور وفي الجامع ٥/ ٤ الى النبي الكريم وفي معاني القرآن ١/ ٢٥٢ والطبري ٧/ ٥٢٠ و٥٢٣ وحجة ابن خالويه بلا نسبة.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٢٥٢ الى أبي عمران ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي وفي السبعة ٢٢٦ والكشف ١/ ٣٧٥ والتيسير ٩٢ إلى حمزة وفي الجامع ٥/ ٢ والبحر ٣/ ١٥٧ إلى ابراهيم النخعي وقتادة والاعمش وحمزة وفي الطبري ٧/ ٥١٩ وحجة ابن خالويه ٩٢ بلا نسبة.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: «مَعَ أموالكم» ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [الآية ٢] يقول: «أَكْلُها كانَ حُوباً كبيراً».

قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [الآية ٣] لأنه من «أَقْسَطَ» «يُقْسِطُ». و«الإِقْساطُ»: العَدْل. واما «قَسَطَ» فإنّه «جَار» قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فـ«أَقْسَطَ»: عَدلَ و«قَسَطَ»: جارَ. قال ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات].

وقال: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [الآية ٣] يقول: «فانكِحوا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾» أي: انكحوا ما ملكت ايمانكم. وأما ترك الصرف في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الآية ٣] فإنه معدول عن «أثنين» و«ثلاثٍ» و«أربع»، كما أن «عُمَر» معدول عن «عامِر» فلم يصرف. وقال تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر/١] بالنصب. وقال ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ/٤٦] فهو معدول كذلك، ولو سمّيتَ به صرفْتَ، لأنه اذا كان اسما فليس في معنى «اثنين» و«ثلاثة» و«أربعة». كما قال «نَزالِ» حينما كان في معنى «أنزِلوا» واذا سميت به رفعته.

قال الشاعر[1] [من الوافر وهو الشاهد الثاني والستون بعد المئة]:

أَحُمَّ اللهُ ذلكَ مِنْ لِقاءٍ
أُحادَ أُحادَ في شَهْرٍ حَلالِ[2]

وقال[3] [من الطويل وهو الشاهد الثالث والستون بعد المئة]:

وَلَكِنَّما أَهْلِي بِوادٍ أَنِيسُه
ذِئابٌ[4] تَبَغَّى النّاسَ مَثْنَى وَمَوْحَدا[5]

وقال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

---

(١) هو عمرو ذو الكلب الكاهلي وكان جار الهذيل ديوان الهذليين ٣/ ١١٧ واللسان «حمم» وفي مجاز القرآن ١/ ١١٥ إلى صخر الغي الهذلي.

(٢) في ديوان الهذليين ومجاز القرآن وشرح المفصّل لابن يعيش ١/ ٦٢ وهامش المخصص ١٧/ ١٢٤ صدره: منت لك ان تلاقيني المنايا وفي اللسان «حمم» وديوان الهذليين بـ«الشهر الحلال».

(٣) هو ساعدة بن جوية الهذلي ديوان الهذليين ١/ ٢٣٧ والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ١٥ والاقتضاب ٤٦٧.

(٤) في الديوان واللسان«سباع».

(٥) في الكتاب والتحصيل وشرح المفصل لابن يعيش ١/ ٦٢ و٨/ ٥٧ وأدب الكاتب ٤٥٨ والاقتضاب وشرح ابن الناظم ٢٦٢ وشرح شواهد ابن الناظم والمقاصد النحوية والجامع والمرتجل ٨١ بـ«موحد» مرفوعة.

﴿النِّسَآءِ﴾ [الآية ٣] يقول: «لِيَنْكِح كُلُّ واحدٍ منكُمْ كلَّ واحدةٍ من هذهِ العِدَّةِ» كما قال تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور/ ٤] يقول: «فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهم».

وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [الآية ٤] وواحد «الصَّدُقاتِ»[1] صَدُقَةٌ وبنو تميم تقول: «صُدْقة»[2] ساكنة الدال[3] مضمومة الصاد.

وقال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [الآية ٤] فقد يجري الواحد مجرى الجماعة لأنه إنّما أراد «الهَوى» و«الهَوى» يكون جماعة. قال الشاعر[4] [من الطويل وهو الشاهد الرابع والستون بعد المئة]:

بِهـا جِيَفُ الحَسْرى أمّا عِظامُها
فَبِيضٌ وأمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[5]

وأما «هَنِيءٌ مَرِيءٌ»[6] فتقول: «هَنُؤَ هذا الطعام ومرؤ» و«هَنِئَ ومَرِئَ»، كما تقول: «فَقِهَ» و«فَقُهَ» يكسرون القاف ويضمونها. وتقول: «هَنَأَني» و«هَنِئْتُهُ» و«استمرأته»[7].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [الآية ٦] وقال: ﴿ءَانَسْتُم﴾ ممدودة. تقول: «آنَسْتُ منهُ رُشْداً وخيراً» و﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه/ ١٠ والنمل/ ٧] مثلها ممدودة وتقول: «أَنِسْتُ بالرَّجُلِ» «أُنْساً». ويقال «أَنَساً».

وقال تعالى: ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [الآية ٦] يقول لا تأكُلوها مبادرةَ أنْ يَشِبُّوا.

وقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ [الآية ٧] إلى قوله في الآية نفسها ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فانتصابه كانتصاب ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران/ ١٤٥].

---

(١) في البحر ٣/ ١٦٦ أن الجمهور على القراءة بفتح الصاد وضم الدال. وفي الكشاف ١/ ٤٦٩ بلا نسبة.

(٢) في الشواذ ٢٤ أنّ أبا السمال وقتادة قرآ بضم الصاد وسكون الدال واقتصر في الجامع ٥/ ٢٤ على قتادة وزاد في البحر ٣/ ١٦٦ قوله «وغيره» وفي الكشاف ١/ ٤٦٩ بلا نسبة.

(٣) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٠٥.

(٤) هو علقمة بن عبدة. ديوانه ٤٠ والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ١٠٧ والاختيارين ٦٥٢.

(٥) في شرح أبيات الفارقي ٤/ ٢٧٤ بـ«القتلى» بدل «الحسرى» وفي الاختيارين «به» بدل «بها».

(٦) الكلام على تتمة الآية في قوله تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

(٧) في الصحاح «مرأ»: نقل هذا مع اختلاف يسير.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ [الآية ٨] ثم قال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ لأن معناه المال والميراث فذكر على ذلك المعنى.

وقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ [الآية ٩] لأنه يريد «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية يخافون عليهم» أي: فلا يفعَلَنّ ذلك حتى لا يفعَله بهم غيرهم «فليخشوا» أي «فَلْيَخْشَوْا هذا» أي: فَلْيَتَّقُوا. ثم عاد أيضاً فقال: «فَلْيَتَّقُوا الله».

وقال تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ فالياء تفتح[1] وتضم[2] ها هنا وكل صواب. وقوله ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الآية ١٠] توكيد.

وقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الآية ١١]. فالمثل مرفوع على الابتداء وإنما هو تفسير الوصية كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة] فسر الوعد يقول: «هكذا وَعَدَهُمْ» أي: قال «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ». قال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الخامس والستون بعد المئة]:

عَشِيَّةَ ما وَدَّ ابْنُ غَرّاءَ أُمُّهُ ... لَها مِنْ سِوانا إذْ دَعا أَبَوانِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ [الآية ١١] تُرِكَ الكلام الأول وقيل: «إذا كان المتروكات نساءً» تُصِب؛ وكذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً﴾ [الآية ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [الآية ١١] فهذه الهاء التي في «أبويه» ضمير الميت لأنه لما قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [الآية ١١] كان المعنى: يوصي الله الميتَ قبلَ

---

(١) في الطبري ٨/ ٢٩ هي قراءة عامة قراء المدينة والعراق وفي السبعة ٢٢٧ الى ابن كثير ونافع وابي عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية وفي الكشف ١/ ٣٧٨ والتيسير ٩٤ الى غير أبي بكر وابن عامر وزاد عليهما في الجامع ٥/ ٥٤ عاصما وابا حيوة وفي البحر ٣/ ١٧٩ الى الجمهور وفي حجة ابن خالويه ٩٥ بلا نسبة وذكر انها لغة وفي الكشاف ١/ ٤٧٩ والاملاء ١/ ١٦٩ كذلك.

(٢) في الطبري ٨/ ٢٩ الى بعض المكيين وبعض الكوفيين وفي السبعة ٢٢٧ الى ابن عاصم وفي رواية الى عاصم وفي الكشف ١/ ٣٧٨ والتيسير والبحر ٣/ ١٧٩ الى أبي بكر وابن عامر وابدل في الجامع ٥/ ٥٣ عاصما بأبي بكر في رواية ابن عباس كذا وفي الكشاف ١/ ٤٧٩ والاملاء ١/ ١٦٩ وفي حجة ابن خالويه ٩٥ بلا نسبة وذكر في الأخير انها لغة.

موتِهِ بأنَّ عَلَيْه لأبويهِ كذا ولوَلَدِه كذا. أي: فلا يأخُذَنَّ إلاّ ماله.

وقال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [الآية ١١]، فيذكرون أن الإخوة اثنان ومثله «إنّا فَعَلْنا» وأنتما اثنان، وقد يشبه ما كان من شيئين وليس مثله، ولكن الاثنين قد جُعِلا جماعة [في] قول الله عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم/٤]. وقال تعالى ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة/٣٨]، وذلك ان في كلام العرب: أن كل شيئين من شيئين فهما جماعة وقد يكون اثنين في الشعر قال الشاعر[1] [من الطويل وهو الشاهد السادس والستون بعد المئة]:

بِما فِي فُؤادَيْنا من الشَّوْقِ والهَوى
فَيُجْبَرُ مُنْهاضُ الفُؤادِ المُشَعَّفُ[2]

وقال الفرزدق[3] [من الطويل وهو الشاهد السابع والستون بعد المئة]:

هُما نَفَثا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِما
على النّابِحِ العاوِي أَشَدَّ لِجامِ[4]

وقد يُجعل هذا في الشعر واحداً. قال[5] [من الرجز وهو الشاهد الثامن والستون بعد المئة]:

لا تُنْكِرُ القَتْلَ وقد سُبِينا
في حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شُجِينا[6]

وقال الآخر[7] [من الوافر وهو الشاهد التاسع والستون بعد المئة]:

---

(١) الشاعر هو الفرزدق همام بن غالب. الديوان ٢/ ٥٥٤ والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٢٠٢.

(٢) عن الكتاب وفي الاصل المسقف وفي التحصيل المعذب.

(٣) هو همام بن غالب، وقد مرت ترجمته والبيت في ديوانه ٢/ ٧٧١ والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٨٣ و٢٠٢ والخزانة ٢/ ٢٦٩ و٣/ ٣٤٦.

(٤) في الديوان تفلا بدل نفثا ولجامي بالياء وفي الكتاب والخزانة بـ«رجام» بدل لجام والبيت في الانصاف ١/ ١٩١ وفي الصحاح فمو بـ«رجام» ايضا مع نقله لهذه المعاني.

(٥) هو المسيب بن زيد مناة الغنوي كما في تحصيل عين الذهب ١/ ١٠٧ وهو الغنوي كذا في مجاز القرآن ٢/ ١٩٥ وهو طفيل الغنوي في شرح الأبيات للفارقي ٢٧٥، وليس في ديوان طفيل.

(٦) المصراع الأول في مجاز القرآن ٢/ ١٩٥ بـ«ان تقتلوا اليوم فقد سُرينا». وجاء المصراع الثاني في ١/ ٧٩ و٢/ ٤٤ وورد المصراع الثاني في البيان ١/ ٥٢ و٢/ ٤٤٧.

(٧) لم تفد المراجع شيئا في الشاعر. والشاهد في الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ١٠٨ ومعاني القرآن ١/ ٣٠٧ و٢/ ١٠٢ والامالي الشجرية ١/ ٣١١ و٢/ ٣٨ و٣٤٣ وهو في معاني القرآن والامالي بلفظ «نصف» بدل «بعض».

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا
فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ

ونظير هذا قوله: «تِسْعُ مئة» وانما هو «تِسْعُ مئات» أو «مِئين» فجعله واحداً، وذلك ان ما بين العشرة إلى الثلاثة يكون جماعة نحو: «ثلاثة رجال» و«عشرةُ رجال» ثم جعلوه في «المِئِينَ» واحداً.

وقال تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ﴾ [الآية ١١][1] فقد ذكر الرجل حين قال في الآية نفسها: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ وقرأ بعضهم ﴿يُوصِي﴾[2] وكلٌ حسن. ونظير ﴿يُوصِي﴾ بالياء قوله تعالى: ﴿تُوصُونَ﴾ [الآية ١٢] و﴿يُوصِينَ﴾ [الآية ١٢] حين ذكرهن، واحتج الذي قرأ ﴿يُوصِي﴾ بالياء بنصبه وصيةً في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٢] ونَصَبَ ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١١] كما نصب ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران/١٤٥]. وقُرِئ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [الآية ١٢][3] ولو قرئت (يُورِثُ)[4] كان جيداً. وتنصب ﴿كَلَٰلَةً﴾ وقد ذُكِرَ عن الحسن[5]، فإن شِئْتَ نصبت كلالةً على خبر ﴿كَانَ﴾ وجعلْتَ ﴿يُورَثُ﴾ من صفة الرجل، وإن شئْتَ جعلت ﴿كَانَ﴾ تستغني عن الخبر نحو «وَقَعَ»، وجَعَلْتَ نَصْبَ ﴿كَلَٰلَةً﴾ على الحال أي: «يورَثُ كلالةً» كما تقول: «يُضْرَبُ قَائِماً»[6]،

---

(١) في المصحف يوصي بكسر الصاد والقراءة بالألف المقصورة بالتاء للمجهول في الطبري ٨/ ٤٧ الى بعض أهل مكة والشام والكوفة وفي السبعة ٢٢٨ الى ابن عامر وابن كثير وعاصم وفي الكشف ١/ ٣٨٠ الى ابن كثير وابن عامر وابي بكر وكذلك في التيسير ٩٤ وفي الجامع ٥/ ٧٣ الى ابن كثير وابي عمرو وابن عامر وعاصم في اختلاف عنه. وفي البحر ٣/ ١٨٦ الى الابنين وابي بكر وفي حجة ابن خالويه ٩٦ بلا نسبة.

(٢) في الطبري ٨/ ٤٧ و٤٨ قراءة أهل المدينة والعراق وفي السبعة ٢٢٨ الى نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي وعاصم وفي الكشف ١/ ٣٨٠ الى غير من ذكرهم في القراءة الأولى وكذلك فعل في التيسير ٩٤ والبحر ٣/ ١٨٦ وفي الجامع ٥/ ٧٣ انها اختيار ابي حاتم وابي عبيدة وفي حجة ابن خالويه ٩٦ بلا نسبة.

(٣) في الطبري ٨/ ٥٣ قراءة عامة قراء أهل الاسلام. وفي البحر ٣/ ١٨٩ الى الجمهور وفي الجامع ٥/ ٧٧ بلا نسبة وفي المشكل ١/ ١٩٢ والكشاف ١/ ٤٨٥ والبيان ١/ ٢٤٥ والاملاء ١/ ١٧٠ بلا نسبة.

(٤) في الطبري ٨/ ٥٣ الى بعضهم وفي البحر ٣/ ١٨٩ الى الحسن وزاد في الجامع ٥/ ٧٧ أيوب وفي الشواذ ٢٥ قصرها على الاعمش.

(٥) هو الحسن البصري. وقد مرت ترجمته قبل وانظر الهامش السابق.

(٦) نقل هذه الآراء في اعراب القرآن ١/ ٢١٠ مع تقديم وتأخير فيها.

قال الشاعر[1] في «كان» التي لا خبر لها [من الطويل وهو الشاهد السبعون بعد المئة]:

فِدَى لِبَنِي ذُهْلِ بنِ شَيْبانَ ناقتِي
إذا كانَ يَوْمٌ ذُو كواكِبَ أشْهَبُ[2]

في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ [الآية ١٢] يريد من المذكورين. ويجوز ان تقول للرجل اذا قلت: «زيدٌ أو عمرٌ مُنطلِقٌ»: «هذانِ رجلا سَوْء» أي: اللذان ذكرت.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية ٢٢] لأن معناه: فانكم تؤخذون به. فلذلك قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: فليس عليكم جناح[3]. ومثل هذا في كلام العرب كثير، تقول: «لا تَصْنَع ما صَنَعْتَ» «ولا تأكُل ما أكَلْتَ».

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [الآية ٢٥] على «ومن لم يجد طولا أن ينكح» يقول: «إلى أنْ ينكِحَ»: لأن حرف الجر يُضمر مع «أنْ».

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية ٢٥] برفع ﴿بَعْضُكُم﴾ على الابتداء.

وقال جل شأنه: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [الآية ٢٥]: لأن «الأهْلَ» جماعة ولكنه قد يجمع فيقال: «أهْلُونَ»، كما تقول: «قَوْمٌ» و«أقوامٌ» فتجمع الجماعة وقال كما في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح/١١]، بالجمع؛ وقال: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم/٦] فهذه الياء ياء جماعة فلذلك سُكّنت، من هنا نصبُها وجرُّها باسكان الياء، وذهبت النون للاضافة.

وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الآية ٢٥] أي: «والصَبْر خَيْرٌ لكم».

وقال تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ [الآية ٢٦] أي: «وَلِيَهْدِيَكُم» ومعناه: يريد كذا وكذا ليبين لكم. وإن

---

(١) هو مقاس مسهر بن النعمان العائذي الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٢١ وشرح ابن يعيش ٧/ ٩٨.

(٢) البيت في المصادر السابقة وهو في شرح الأبيات للفارقي ٢٣٥ بلا نسبة.

(٣) نقله في البحر ٣/ ٢٠٨.

شئتَ أوصَلْتَ الفعل باللام الى «أن» المضمرة بعد اللام نحو: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف] وكما قال ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى/١٥]، فكسر اللام أي: أمرت من أجل ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ لأنها من «أَدْخَلَ» «يُدْخِلُ»: والموضع من هذا مضموم الميم لأنه مشبه ببنات الأربعة «دحرج» ونحوها. ألا ترى أنك تقول: «هذا مُدَحْرَجُنا»، فالميم، إذا جاوز الفعل الثلاثة، مضمومة. قال أُمَيَّةُ بن أبي الصلت[1] [من البسيط وهو الشاهد الحادي والسبعون بعد المئة]:

الحَمْدُ لله مُمْسانا وَمُصْبَحُنا
بِالخَيْرِ صَبَّحنا رَبِّي وَمَسّانا[2]

لأنه من «أَمْسى» و«أَصْبَحَ». قال تعالى ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء/٨٠]. وتكون الميم مفتوحة إن شئت إذا جعلته من «دَخَلَ» و«خَرَجَ». وقال سبحانه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان]، إذا جعلته من «قامَ» «يَقومُ»، فإن جعلته من «أَقامَ» «يُقيمُ» قلت: «مُقامٍ أمينٍ».

وحذفت الياء كما تحذف من رؤوس الآي نحو: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص] يريد «عذابي». وأما قوله تعالى ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة]، فإنما قرئ بكسر الظاء في (فِظِلْتم)، على اعتبار أن أصله «ظَلِلْتم». فلما ذهب أحد الحرفين استثقالاً حُوِّلت حركته إلى الظاء. قال أوس بن مغراء[3] [من البسيط وهو الشاهد الرابع والسبعون بعد المئة]:

مِسْنا السَّماءَ فَنِلْناها وَطالَهُمُ
حَتَّى رَأَوْا أُحُداً يَهْوِي وَثَهْلانا[4]

لأنها من «مَسَسْتُ» والقراءة المثبتة في المصحف الشريف هي: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بترك الظاء على فتحتها وحذف إحدى اللامين. وهذا الحذف ليس بمطّرد،

---

(١) الشاعر الجاهلي المعروف. انظر ترجمته وأخباره في الأغاني ٣/١٨٦ و١٦/٧١. وطبقات الشعراء ١/٢٦٢ والشعر والشعراء ١/٤٥٩.

(٢) الشاهد في الديوان ٥١٦ والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/٢٥٠ ومعاني القرآن ١/٢٦٤ والخزانة ١/١٢٠ وشرح المفصل لابن يعيش ٦/٥٠و٥٣ «صدره».

(٣) هو اوس بن مغراء. طبقات الشعراء ٢/٥٧٢ والشعر والشعراء ٢/٦٨٧.

(٤) البيت في الصحاح «مسس» والتهذيب «مس» ٢/٣٢٥ واللسان «مسس» وفيه «وطاءلهم».

وإنما حذف من هذه الحروف التي ذكرت لك خاصة ولا يحذف إلاّ في موضع، لا تحرك فيه لام الفعل، فأمّا الموضع الذي تحرك فيه لام الفعل فلا حذف فيه.

وقال تعالى: ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [الآية ٣٥] فأضاف إلى البين لأنه قد يكون اسماً كما في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ [الأنعام/ ٩٤][1] بالضم. ولو قرئ (شِقاقاً بَيْنَهما) في الكلام فجعل البَيْن ظرفا كان جائزا حسناً. ولو قرأت (شِقاقَ بَيْنَهما) تريد «ما» وتحذفها جاز، كما تقرأ، في النسخة الموحّدة: ﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ تريد «ما» التي تكون في معنى شيء. وقال تعالى ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٦٤]. وتقول «بينَهما بَوْنٌ بَعيدٌ» تجعلها بالواو وذلك بالياء. ويقال: «بينَهما بَيْنٌ بَعيدٌ» بالياء.

وقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [الآية ٣٦][2] وقرأ بعضهم (الجَنْبِ)[3] وقال الراجز [وهو الشاهد الخامس والسبعون بعد المئة]:

النّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[4]

يريد بـ«جَنْب»: الناحية[5]. وهذا هو المتنحي عن القرابة فلذلك قال «جَنْبٌ» و«الجُنُبُ» أيضاً: المجانبُ للقرابة ويقال: «الجانِبُ» أيضا[6].

وأما ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [الآية ٣٦] فمعناه: «هو الذي بجنبك»، كما تقول «فلان بجنبي» و«إلى جنبي».

قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: لا تَكْتُمُهُ الجوارحُ أو

---

(١) وهي في معاني القرآن ١/ ٣٤٥ قراءة حمزة ومجاهد وفي السبعة ٢٦٣ أهمل مجاهدا وزاد ابا عمرو وابن عامر وابن كثير وعاصما في رواية وفي الكشف ١/ ٤٤٠ الى غير نافع والكسائي وزاد في التيسير ١٠٥ استثناء حفص وزاد في الجامع ٧/ ٤٣ استثناء ابن مسعود وفي البحر ٤/ ١٨٢ إلى الجمهور وفي الطبري ١/ ٥٤٩ الى قرأة مكة والعراقيين وفي حجة ابن خالويه ١٢٠ بلا نسبة.

(٢) وهي في السبعة ٢٣٣ الى القراء كلهم إلا عاصما وفي الجامع ٥/ ١٨٣ ان ابن عباس تأول بها.

(٣) في السبعة ٢٣٣ والشواذ ٢٦ الى عاصم وفي البحر ٣/ ٢٤٥ اليه في رواية المفضل عنه وفي الجامع ٥/ ١٨٣ الى المفضل والأعمش.

(٤) المصراع في الصحاح واللسان «جنب» مرويا عن الاخفش وفي التهذيب «جنب» ١١/ ١٢٢ مرويا عن الليث.

(٥) نقله في الصحاح واللسان «كما سبق». والجامع ٥/ ١٩٢.

(٦) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٢٠ و٢٢١.

يقول: «لا يَخفى عَلَيهِ وإنْ كَتَمُوهُ».

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية ٤٧] إلى قوله من الآية نفسها: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: من قبل يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الآية ٣٩] فإن شئت جعلت ﴿مَاذَآ﴾ بمنزلتها وحدها وإن شئت جعلت ﴿ذَا﴾ بمنزلة «الذي».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ [الآية ٤٣] في اللفظ واحد وهو للجمع كذلك، وكذلك هو للرجال والنساء، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم] فجعل «الظهير» واحداً. والعرب تقول: «هُمْ لِي صَدِيقٌ». وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق] وهما قعيدان. وقال ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء/٧٧] لأنّ «فَعُول» و«فَعِيل» مما يجعل واحداً للاثنين والجمع.

وقال تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [الآية ٤٢] قرأ بعضهم (تَسَوّى)[1] وكل حسن.

وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ [الآية ٤٣] على قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [الآية ٤٣] فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ في موضع نصب على الحال، و ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ على العطف كأنه قال: «وَلا تَقْرَبُوها جُنُباً إلاَّ عابِري سَبِيلٍ» كما تقول: «لا تَأْتِي إلاَّ راكِباً».

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [الآية ٤٦] كأنه يقول: «مِنْهُمْ قَوْمٌ» فأضمر «القَوْمَ». قال النابغة الذبياني[2] [من الوافر وهو الشاهد السادس والسبعون بعد المئة]:

كَأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَنِي أُقَيْشٍ ... يُقَعْقَعُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ[3]

---

(١) في الطبري ٨/ ٣٧٢ هي قراءة عامة قرأة أهل الكوفة وفي السبعة ٢٣٤ الى حمزة والكسائي وكذلك في الكشف ١/ ٣٩٠ والتيسير ٩٦ والجامع ٥/ ١٩٨ والبحر ٣/ ٢٥٣. اما قراءة ضم التاء فهي في السبعة ٢٣٤ والبحر ٣/ ٢٥٣ الى ابن كثير وابي عمرو وعاصم وفي الكشف ١/ ٣٩٠ والتيسير ٩٦ الى غير نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وفي الجامع ٥/ ١٩٨ الى غير من قرأ بغيرها وفي الطبري ٨/ ٣٧٢ الى «آخرون» يقصد غير من أخذ بالسابقة وفي معاني القرآن ١/ ٢٦٩ وحجة ابن خالويه ٩٩ بلا نسبة.

(٢) هو الشاعر الجاهلي زياد بن معاوية وقد مرت ترجمته قبل.

(٣) ديوان النابغة ١٩٨ والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٣٧٥.

أي: كأنَّكَ جَمَلٌ مِنها. وكما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [الآية ١٥٩] أي: وإنْ مِنْهُمْ واحدٌ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ به. والعرب تقول: «رأيتُ الذي أَمْسِ» أي: رأيتُ الذي جاءكَ أمْسِ» أو «تَكَلَّمَ أمْسِ».

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا﴾ [الآية ٤٦] وقوله تعالى: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: «راعِنا سَمْعَكَ». في معنى: أرِعْنا. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: لا سُمِعْتَ. وأما (غَيْرَ مُسْمِعٍ) أي: لا يُسْمَعُ مِنْكَ فأنْتَ غَيرُ مُسْمِعٍ.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الآية ٤٦]. وإنّما قال: ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ لأنّها من «نَظَرْتُه» أي: «انْتَظَرْتُه». وقال سبحانه ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد/ ١٣] أي: انْتَظِرُوا. وأما قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ/ ٤٠] فإنما هي: إلى ما قَدَّمَتْ يَداهُ. قال الشاعر

[من الخفيف وهو الشاهد السابع والسبعون بعد المئة]:

ظاهِراتُ الجَمالِ والحُسْنِ يَنْظُرْ
نَ كَما تَنْظُرُ الأراكَ الظِّباءُ

وان شئت كان ﴿يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ على الاستفهام مثل قولك «يَنْظُرُ خيراً قدّمَتْ يداهُ أمْ شرّاً».

قال تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [الآية ٥٦] فإن قال قائل: «أليس إنّما تُعذّبُ الجلود التي عصت، فكيف يقول ﴿غَيْرَهَا﴾»؟ قلت: «إنّ العرب قد تقول: «أَصُوغُ خَاتَماً غيرَ ذا» فيكسره ثم يصوغه صياغة أخرى. فهو الأول إلاّ أن الصياغة تغيرت.

وقال تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ فهذا مثل «دَهِين» و«صَرِيع» لأنك تقول: «سُعِرَتْ» فَهِيَ مَسْعُورَةٌ» وقال جلّ شأنه ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ [التكوير][1].

وقال تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ أي: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [الآية ٦٥] وحتى ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ هذا كله معطوف على ما بعد حتى.

وقرئ: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٦٦] برفع ﴿قَلِيلٌ﴾ لأن الفعل جعل لهم، وجعلوا بدلا من الاسماء المضمرة في الفعل.

---

(١) وقد نقل هذا كله في الصحاح «سعر».

قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴿٦٩﴾﴾ فنصب ﴿رَفِيقًا﴾ ليس على «نِعْمَ الرَّجُل» لأن «نِعْمَ» لا تقع الا على اسم فيه الالف واللام أو نكرة، ولكن هذا على مثل قولك: «كَرُمَ زَيْدٌ رَجُلاً» تنصبه على الحال[1]. و«الرَّفِيقُ» واحد في معنى جماعة مثل «هُمْ لي صَدِيقٌ».

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [الآية ٧٢] فاللام الأولى مفتوحة لأنها للتوكيد نحو: «إنَّ في الدارِ لَزَيْداً» واللام الثانية للقَسَم كأنه قال: «وإنَّ مِنْكُمْ مَنْ واللهِ لَيُبَطِّئَنَّ».

وقال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [الآية ٧٤] وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة/٢٠٧] أي: يبيعُها. فقد تقع «شَرَيْتُ» للبيع والشراء.

وقال تعالى: ﴿مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [الآية ٧٥] فجررت «الظالِم» لأنه صفة مقدمة ما قبلها مجرور وهي لشيء من سبب الأول، واذا كانت كذلك جرَت على الأول حتى تصير كأنها له.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [الآية ٧٩] فجُعِلَ الخبر بالفاء لأن «مَا» بمنزلة «مَنْ» وأُدْخِلَت ﴿مِن﴾[2] على السيئة لأن ﴿مَا﴾ نفي و﴿مِن﴾ تحسن في النفي مثل قولك: «ما جاءني من أحد».

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٨١] أي: ويقولون: «أَمْرُنا طَاعَةٌ»[3]. وان شئت نصبت الطاعة على «نُطيعُ طاعةً»[4]. وقال تعالى ﴿بَيَّتَ﴾ فذكر فعلَ الطائفة لأنهم في المعنى رجال وقد أضافها إلى مذكرين. وقال: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف/٨٧].

وقال تعالى: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴿٨٣﴾﴾ على ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [الآية ٨٣] ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) نقله في المشكل ١/٢٠٢ واعراب القرآن ١/٢٣٢ والجامع ٥/٢٧٢.

(٢) نقله في اعراب القرآن ١/٢٣٥ والجامع ٥/٢٨٥.

(٣) الرأي في معاني القرآن ١/٢٧٨، ونقله للاخفش في اعراب القرآن ١/٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن ١/٢٧٨ والجامع كما مر ولم يشر إلى كونه قراءة.

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [الآية ٨٨] بالنصب على الحال كما تقول: «مالَكَ قائماً»[1] أي: «مالَكَ في حالِ القِيامِ».

وقال تعالى في قراءة من قرأ: (إلاَّ الذينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جاؤوكم حَصِرَةً صُدُورُهُمْ) [الآية ٩٠] أو ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ فـ (حَصِرَةً) اسمٌ نَصَبْتَهُ على الحال[2] و﴿حَصِرَتْ﴾ «فَعِلَتْ» وبها نقرأ[3].

وقال تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [الآية ٩٢].

وقال تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ [الآية ٩٢] أي: فعليه ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ [الآية ٩٢] اي: فَعَلَيْكُمْ ذلِكَ إلاَّ أَنْ يَصَّدَّقوا.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية ٩٤][4] وقرأ بعضهم (فَتَثَبَّتُوا)[5]، وكلٌ صواب لأنك تقول: «تَبَيَّنْ حالَ القَوْمِ» و«تَثَبَّتْ». و«لا تُقْدِمْ حَتَّى تَتَبَيَّنَ» و«حَتَّى تَتَثَبَّتَ».

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [الآية ٩٥] مرفوعة لأنك جعلته من صفة

---

(١) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٣٩ والجامع ٥/ ٣٠٧ وورد الرأي بتعليل كوفي وبالمثال المذكور في معاني القرآن ١/ ٢٨١.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٢٨٢ هي قراءة الحسن وفي الطبري ٩/ ٢٢ والجامع ٥/ ٣٠٩ كذلك وزاد في الشواذ ٢٧ و٢٨ يعقوب وزاد في البحر ٣/ ٣١٧ قتادة وكذا قال المهدوي عن عاصم في رواية حفص.

(٣) وهي في الطبري ٩/ ٢٢ قراءة القراء في جميع الامصار وعليها الاجماع وفي البحر ٣/ ٣١٧ الى الجمهور وفي حجة ابن خالويه ١٠٠ بلا نسبة ولا إشارة الى الأخرى وفي معاني القرآن كالسابق اشار اليها ولم يقل بها قراءة، ونقله في البيان ١/ ٢٦٣، ونقله في المغني ٢/ ٤٣٠ والصحاح «حصر».

(٤) هي في الطبري ٩/ ٨١ قراءة عامة قرأة المكيين والمدنيين وبعض الكوفيين والبصريين وفي السبعة ٢٣٦ الى ابن كثير ونافع وابي عمرو وابن عامر وعاصم وفي الكشف ١/ ٣٩٥ الى ابي عبد الرحمن والحسن وابي جعفر وشيبة والاعرج وقتادة بن جبير وهي اختيار ابي حاتم وابي عبيد وفي الجامع ٥/ ٣٢٧ اقتصر على ذكر الاختيار ونسبها الى «الجماعة» وفي البحر ٣/ ٣٢٨ الى غير حمزة والكسائي وهو ما قاله في الكشف ١/ ٣٩٤ ايضا وفي معاني القرآن ١/ ٢٨٣ وحجة ابن خالويه بلا نسبة.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٢٨٣ قراءة عبد الله بن مسعود واصحابه وفي الطبري ٩/ ٨١ الى معظم القراء الكوفيين وفي السبعة ٢٣٦ والتيسير ٩٧ والبحر ٣/ ٣٢٨ الى حمزة والكسائي واغفل منهما في الجامع ٥/ ٣٢٧ الكسائي وزاد عليهما في الكشف ١/ ٣٩٤ انها قراءة « ابن مسعود وابن وثاب وطلحة والاعمش وعيسى وفي حجة ابن خالويه ١٠١ بلا نسبة.

القاعدين[1]. وإنْ جررته فعلى «المُؤمِنِين» وإنْ شئت نصبته اذا أخرجته من أول الكلام فجعلته استثناء وبها نقرأ[2]. وبَلَغَنا انها أنزلت من بعد قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ﴾ ولم تنزل معها، وانما هي استثناء عَنَى بها قوما لم يقدروا على الخروج ثم قال ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ [الآية ٩٥] يعطفه على القاعدين لأن المعنى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾. وقال سبحانه ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ [الآية ٩٦] يقول فعل ذلك درجات منه. وقال: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأنه قال: «فَضَّلهم» فقد أخبر انه آجرهم فقال على ذلك المعنى كقولك: «أمَا واللهِ لأضربنّكَ إيجاعاً شَدِيداً» لأنّ معناه: لأوجِعَنّكَ.

قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ لأنه استثناهم منهم كما تقول: «أولئِكَ أصْحابُكَ إلاّ زَيْداً» و: «كُلُّهم أصحابُكَ إلاّ زيداً». وهو خارج من أوّل الكلام.

وقال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ [الآية ١٠٤] أي: توجعون. تقول: «ألِمَ» «يَألَمُ» «ألَماً».

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ [الآية ١١٤] يقول: «إلاّ في نَجْوى مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ».

وقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ [الآية ١٠٩] فردّ التنبيه مرتين كما قال ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ﴾ [محمد/ ٣٨][3] أراد التوكيد.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا

---

(١) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٤٣ والجامع ٥/ ٣٤٣.

(٢) الرفع قراءة في الطبري ٩/ ٨٥ الى عامة قرأة أهل الكوفة والبصرة وفي السبعة ٢٣٧ الى ابن كثير في رواية والى ابي عمرو وعاصم وحمزة وكذلك في البحر ٣/ ٣٣٠ وفي الجامع ٥/ ٣٤٣ الى أهل الكوفة وابي عمرو وفي التيسير ٩٧ الى غير نافع وابن عامر والكسائي وفي الكشف ١/ ٣٩٦ الى غير من اخذ بالآخريين وفي حجة الفارسي ١/ ١١٦ وحجة ابن خالويه ١٠١ بلا نسبة. أما قراءة الجر ففي الجامع ٥/ ٣٤٣ الى أبي حيوة وفي البحر ٣/ ٣٣٠ زاد الأعمش. أما قراءة النصب ففي الطبري ٩/ ٨٥ الى عامة قرأة أهل المدينة ومكة والشام وفي السبعة ٢٣٧ الى نافع والكسائي وابن عامر وفي رواية الى ابن كثير وفي البحر ٣/ ٣٣٠ أهمل ابن كثير وزاد أنها رويت عن عاصم. وفي الكشف ١/ ٣٩٦ أضاف أنها قراءة النبي الكريم وزيد بن ثابت وأبي جعفر وشيبة وابي الزناد وشبل وابن الهادي وهي اختيار أبي عبيد والطبري وأبي طاهر. وفي التيسير ٩٧ كما في السبعة مع إغفال ابن كثير وفي الجامع ٥/ ٣٤٤ الى اهل الحرمين وفي حجة ابن خالويه ١٠١ وحجة الفارسي ١١٦ بلا نسبة.

(٣) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٥١ والجامع ٥/ ٤٠٨.

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الآية ١٣١] أي بأنْ ٱتقوا الله.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الآية ١٣٤] فموضع «كان» جزم والجواب الفاء وارتفعت «يريد» لأنه ليس فيها حرف عطف. كما قال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ [هود/ ١٥]. في قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى/ ٢٠] جُزِمَ الجواب، لأن الأول في موضع جزم، ولكنه فعل واجب فلا ينجزم، و«يريدُ» في موضع نصب بخبر «كان». وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [الآية ١٢٨] جُعِلَ الاسم يلي «إنْ» لأنها أشدُّ حروف الجزاء تمكنا. وإنّما حسن هذا فيها اذا لم يكن لفظ ما وقعت عليه جزما نحو قوله[1] [من البسيط وهو الشاهد الثامن والسبعون بعد المئة]:

عاوِدْ هَراةَ وإنْ مَعْمُورُها خَرِبا

وقال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [الآية ١٣٥] لأنّ «أوْ» ها هنا في معنى الواو[2]، أو يكون جمعهما في قوله ﴿بِهِمَا﴾ لأنهما قد ذكرا[3] نحو قوله عز وجل: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ [الآية ١٢]. أو يكونُ أضمرَ (مَنْ) كأنه «إنْ يَكُنْ مَنْ تَخاصَم غَنِيّاً أوْ فَقِيراً» يريد «غنيين أو فقيرين» يجعل «مَنْ» في ذلك المعنى ويخرج ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ على لفظ «مَنْ».

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ [الآية ١٣٥] لأنها من «لَوى» «يَلْوِي»[4]. وقرأ بعضهم (وإنْ تَلُوا)[1] فان كانت

---

(١) في الاصل: قولك. والقائل عروي معجم شواهد العربية ٢/ ٥٧٥ ويراجع المقتضب ٤/ ٢٥٦ واشعار الهذليين في قول عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي:

لكنه شاقه ان قيل ذا رجب ... يا ليت عدة حول كله رجب

(٢) نقله في المشكل ١/ ٢١٠ واعراب القرآن ١/ ٢٥٢ والجامع ٥/ ٤١٣ والبحر ٣/ ٣٧٠ والبيان ١/ ٢٦٩.

(٣) نقله في الاملاء ١/ ١٩٧.

(٤) في الطبري ٩/ ٣١٠ هي قراءة عامة قراء الامصار سوى الكوفة وفي السبعة ٢٣٩ الى ابن كثير ونافع وابي عمرو وعاصم والكسائي وفي الكشف ١/ ٣٩٩ والتيسير ٩٧ الى غير حمزة وابن عامر وفي معاني القرآن ١/ ٢٩١ وحجة ابن خالويه ١٠٢ والجامع ٥/ ٤١٣ بلا نسبة.

لغة فهو لاجتماع الواوين، ولا أراها إلا لحناً على معنى «الوِلاية» وليس لـ «الوِلاية» معنى ها هنا الا في قوله «وإنْ تَلُوا عَلَيهِم» فطرح «عَلَيهِم» فهو جائز.

وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [الآية ١٤٨] لأنه حين قال: ﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ [الآية ١٤٨] قد أخبر أنه لا يحل. ثم قال ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[2] إنه يحل له أن يجهر بالسوء لمن ظلمه. وقرأ بعضهم (ظَلَم)[3] على قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [الآية ١٤٧] [فيكون] (إلا مَنْ ظَلَم) على معنى «إلا بِعَذابِ مَنْ ظَلَم».

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [الآية ١٥٥] فـ «ما» زائدة كأنه قال «فبنقضهم».

وقال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [الآية ١٥٦] ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ [الآية ١٥٧] كله على الأول.

وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية ١٦٤] فانتصب لفظ «رسلاً» لأن الفعل قد سقط بشيء من سببه وما قبله منصوب بالفعل.

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [الآية ١٧٠] فنصب ﴿خَيْرًا﴾ لأنه حين قال لهم ﴿ءَامِنُوا۟﴾ أمرهم بما هو خير لهم فكأنه قال: «اعْمَلُوا خيراً لكم» وكذلك ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [الآية ١٧١] فهذا إنما يكون في الأمر والنهي خاصة ولا يكون في الخبر، لأنّ الأمْر والنهي لا يضمر فيهما وكأنك أخرجته من شيء الى شيء. قال الشاعر[4]:

فَـفَـواعِـديـه سَـرْحَـتَـيْ مـالِـكٍ

(١) في تأويل مشكل القرآن ٦٢ الى يحيى بن وثاب والاعمش وحمزة. وفي الكشف ١/ ٣٩٩ والتيسير ٩٧ الى حمزة وابن عامر وكذلك في السبعة ٢٣٩ واستبدل في الجامع ٥/ ٤١٤ بحمزة الكوفيين وفي البحر ٣/ ٣٧١ الى جماعة وابن عامر وحمزة وفي الطبري ٩/ ٣١٠ الى جماعة من قراء أهل الكوفة وفي معاني القرآن ١/ ٢٩١ وحجة ابن خالويه ١٠٢.

(٢) هي في الطبري ٩/ ٣٤٣ الى عامة قراء الامصار وفي الجامع ٦/ ١ والبحر ٣/ ٣٨٢ الى الجمهور.

(٣) في الطبري ٩/ ٣٤٣ الى بعضهم وقال ابن زيد رواها عن أبيه وفي الشواذ ٢٩ و٣٠ الى الضحاك بن مزاحم وفي الجامع ٦/ ١ الى زيد بن اسلم وابن أبي اسحاق وفي البحر ٣/ ٣٨٢ الى ابن عباس وابي عمرو وابن جبير وعطاء بن السائب والضحاك وزيد بن اسلم وابن ابي اسحاق ومسلم بن يسار والحسن وابن المسيب وقتادة وأبيّ ٦٥٢.

(٤) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي. ديوانه ٣٤٩ والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ١٤٣.

أو الـرُّبـا بَـيـنَـهُـمـا أسْـهَـلا[1]

كما تقول: «واعديه خيراً لك» وقد سمعتُ نصب هذا في الخبر. تقول العرب: «آتي البيتَ خيراً لي» و«أتركُهُ خيراً لي» وهو على ما فسرت في الأمر والنهي.

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ [الآية ١٧٦] مثل: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ [الآية ١٢٨] تفسيرهما سواء.

وقال سبحانه ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ الكلام خلق من الله على غير الكلام منك، وبغير ما يكون منك. خلقه الله ثم أوصله الى موسى.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمْ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية ٢٥] أي: الله أعْلَم بإيمان بعضكم من بعض.



(١) في الديوان «صورتي» و«أو» الذي «بدل» «سرحتي» و«أو الربا».



لكل سؤال جواب في سورة «النساء»(*)

إن قيل عن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية الأولى]: إذا كانت حواء مخلوقة من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضا، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد: لأنها متفرعة منه، فتكون أختاً لنا، لا أماً.

قلنا: ثمة قولان: الأول أن بعض المفسرين قالوا: «مِنْ» لبيان الجنس لا للتبعيض، معناه: وخلق من جنسها زوجها كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/١٢٨]. الثاني، وهو الذي عليه الجمهور، أنها للتبعيض، ولكنّ خَلْقَ حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء، فلا يلزم منه ثبوت البِنْتِيَّة والأختية فيها.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الآية ٢] واليتيمُ لا يُعطى مالَه حتى يَبْلُغ اتفاقا؟

قلنا: المراد به إذا بلغوا؛ وإنما سُمُّوا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ما كان، كما تسمى الناقة عُشَرَاء بعد الوضع، وقد يسمى البالغ يتيما باعتبار ما كان، كما يسمى الحي ميْتاً والعنب خمراً باعتبار ما يكون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر] وقال ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف/٣٦] ومنه قولهم للنبي (ص) بعد ما نبأه الله: يتيم أبي طالب.

فإن قيل: أكل مال اليتيم حرام وحده ومع أموال الأوصياء، فَلِمَ وَرَد النهي مخصوصا عن أكله معها لقوله تعالى:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء/٢] أي معها؟

قلنا: لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح، فلذلك خُصّ بالنهي ولأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه، فجاء النهي على ما وقع منهم.

فإن قيل: لمّا قال تعالى ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [الآية ٧] دخل فيه القليل والكثير، فما الحكمة في قوله سبحانه ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ [الآية ٧]؟

قلنا: إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة ينبغي قسمتها، لئلا يُتهاون بالقليل من التركات ويُحتقر، فلا يُقسم وينفرد به بعضُ الورثة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الآية ١١] مع أنه لو كان الولد بنتاً فللأب الثلث؟

قلنا: الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب، وليس للأب مع البنت بالفرض إلا السدس.

فإن قيل: كيف قطع على العاصي الخلود في النار بقوله سبحانه ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [الآية ١٤]؟

قلنا: أراد به من يَعْصِ الله بردّ أحكامه وجحودها وذلك كفر، والكافر يستحق الخلود في النار.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ [الآية ١٥] والتوفي والموت بمعنى واحد، فصار كأنه قال: حتى يميتهن الموت؟

قلنا: معناه حتى يتوفاهنّ ملائكة الموت. الثاني معناه: حتى يأخذهنّ ملائكة الموت وَتَتوفّى أرواحَهنّ.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٧]، ولم يقل إنما التوبة على العبد، مع أن التوبة واجبة على العبد؟

قلنا: معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف. الثاني: أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة، لأن التوبة في اللغة الرجوع.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الآية ١٧]،

ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته؟

قلنا: معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها، لا بكونها معصية وذنبا، وكل عاصٍ جاهل بذلك حال مباشرة المعصية معناه أنه مسلوبٌ كمالَ العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [الآية ١٧] مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد لَقُبِلَتْ توبتهم؟

قلنا: ليس المراد بالقريب مقابل البعيد إذ حكمهما واحد، بل معناه قبل معاينة سلطان الموت، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما بقرينة قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [الآية ١٨].

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [الآية ٢٠]، مع أن حرمة الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطاها المهر بل كان في ذمته أو في يده؟

قلنا: المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ [البقرة/٢٣٣] أي ما غنمتم والتزمتم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ [الآية ٢٠] وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان لأن البهتان الكذب؟

قلنا: ابن عباس وابن قتيبة قالا: المراد بالبهتان الظلم. وقال الزجاج المراد به الباطل، والمشهور في كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله. قالوا: فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوصل بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها. وقيل المراد به إنكاره أن لها مهراً في ذمته.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية ٢٢] فنهى عن الفعل المستقبل، وإلا ما قد سلف ماض، فكيف يصح استثناء الماضي من المستقبل؟

قلنا: قيل إن «إلآ» هنا بمعنى بعد كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان/٥٦] وقيل هو استثناء من محذوف تقديره: فإنكم تعذبون به إلا ما قد سلف. وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره: إنه كان فاحشةً إلا ما قد سلف.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ

﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الآية ٢٢] بلفظ الماضي، مع أن نكاح منكوحة الأب فاحشة في الحال وفي الاستقبال إلى يوم القيامة.

قلنا: كان تارة تستعمل للماضي المنقطع كقوله: كان زيد غنيا، وكان الخزف طينا، وتارة تستعمل للماضي المستمر المتصل للحال كقول أبي جندب الهذلي:

وكُنْتُ إذَا جارِي دعا لِمَضُوفَةٍ
أُشَمِّرُ حتَّى يَنْصِفَ الساقَ مِئْزَرِي

أي وإني الآن، لأنه إنما يتمدح بصفة ثابتة له في الحال، لا بصفة زائلة ذاهبة، والمضوفة بالفاء: الأمر الذي يشفق منه، والقاف تصحيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ - ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وما أشبه ذلك وما نحن فيه من هذا القبيل، وسيأتي الكلام في «كان» بعد هذا إن شاء الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [الآية ٢٣] قيد التحريم بكون الربيبة في حجر زوج أمها، والحرمة ثابتة مطلقا، وإن لم تكن في حجره؟

قلنا: أخرج ذلك مخرج العادة والغالب لا مخرج الشرط والقيد. ولهذا اكتفى في موضع الإحلال بنفي الدخول في قوله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٢٣]، فتأمل.

فإن قيل: لمّا قال تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [الآية ٢٣] ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [الآية ٢٤]، علم، من مجموع ذلك، أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل بأمها، فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٢٣]؟

قلنا: فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب، لا مخرج الشرط كما في الحجر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في نكاح الإماء ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الآية ٢٥] والمهر ملك المولى، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة؟

قلنا: لما كانت الأمة وما في يدها ملك المولى كان أداؤه إليها كأدائه إلى المولى. الثاني أن معناه: وآتوا مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [الآية ٢٥] وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: ذلك أَصْوَب وأصلح لمن خشي العنت منكم فيكون شرطا لما هو الأرشد والأصلح كما في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور/ ٣٣].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الآية ٢٦] والإرادة إنما تقترن بأن يقال: يريد أن يفعل، وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [الآية ٢٨]؟

قلنا: قد ورد في الكتاب العزيز اللام بمعنى «أن» وروداً كثيرا قال الله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى/ ١٥] وقال الله تعالى ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام] وقال تعالى في موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا﴾ [الصف/ ٨] فكذلك هذا.

فإن قيل: كيف خصّت التجارة بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [الآية/ ٢٩] مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها تقتضي الحل أيضاً كالتجارة؟

قلنا: إنما خصّت بالذكر لأن معظم تصرف الخلق في الأموال إنما يكون بالتجارة، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [الآية ٤٢] قالوا معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة تراباً كما جاء في آخر سورة النبأ. وظاهر اللفظ أنهم يتمنون أن تُجعل الأرض مثلهم ناساً كما تقول سويت زيداً بعمرو، ومعناه جعلت زيداً، وهو المُسَوَّى مثل عمرو، وهو المسوى به.

قلنا: قولهم سويت هذا بهذا له معنيان. أحدهما إجراء حكم الثاني على الأول كقولك سويت زيداً بعمرو، وكما تقول ساويت. والثاني أن يكون المُسَوَّى مفعولا والمسوى به آلة كقولك: سويت القلم بالسكين والثوب بالمقراض، بمعنى أصلحته به. قلنا: فقوله ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [الآية ٤٢]

يحتمل وجهين: أن يكون بمعنى ساويت ويكون من المقلوب: أي لو يُسَوَّوْنَ بالأرض بجعلهم ترابا كقوله تعالى ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ [القصص/٧٦] قوله ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة/٦] في قول من لم يجعل الباء زائدة كقولهم: أدخلت الخاتم في أصبعي ونحوه، وأن يكون بمعنى الآلة. معناه: وَدُّوا لو تَمَهَّدُ بهم الأرض وتوطد، بأن يُجعلوا تراباً ويُبَثُّوا في وهادها وحضيضها لتساوى بقاعها وآكامها، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه] لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية بالسطوح، فجعلها متساوية بالسطوح إن كان قبل البعث، فإذا بُعث الموتى من قبورهم، خَلَتْ منهم قبورهم وحُفَرُهم، فحصل في الأرض تفاوت. وإن كان بعد البعث، فيجوز أن يكون هذا التمني سابقاً على جعلها متساوية السطوح.

فإن قيل: قولنا: «هذا خير من ذلك» يقتضي أن يكون في كل واحد منهما خير، حتى يصحَّ تفضيل أحدهما على الآخر، لأن كلمة «خير» في الأصل أفعل تفضيل، فكيف قال ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [الآية ٤٦] بعد ما سبق من قولهم في أول الآية؟

قلنا: المراد بالخير ههنا الخير الذي هو ضد الشر، لا الذي هو أفعل التفضيل كما تقول: في فلان خير.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ والمفعول مخلوق، وأمرُ الله وقوله غير مخلوق؟

قلنا: ليس المراد بهذا الأمر ما هو ضد النهي، بل المراد به ما يَحْدُث من الحوادث، فإن الحادثة تسمى أيضا أمرا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق] وقوله ﴿أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس/٢٤].

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [الآية ٤٨]، مع أن شرك الساهي والمكره والتائب مغفور؟

قلنا: المراد به شرك غير هؤلاء المخصوص من عموم الآية بأدلة من خارج؛ أو نقول قيد المشيئة متعلق بالفعلين المنفي والمثبت، كأنه قال: إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر ما دونه لمن يشاء.

فإن قيل: هذه الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته بل تُرْجى مغفرته، وقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ يدل على القطع بانتفاء المغفرة في الكفر والظلم وهما غير الشرك، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الشرك، قال مقاتل: والشرك يسمى ظلما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان] فكأنه قال: إن الذين أشركوا. الثاني أن قوله تعالى، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الآية ١١٦]، ليس قطعا بالمغفرة لغير المشرك وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة؛ ثم بين، بالآية الأخرى، أن الكافر ليس داخلا فيمن يشاء المغفرة له، فيتعين دخوله فيمن لا يغفر له، لأنه لا واسطة بينهما. الثالث أنه عام خص بالآية الثانية كما خص قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر/٥٣] بالآية الأولى، ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء في عدم المغفرة والتخليد في النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البينة/٦].

فإن قيل لِمَ قال تعالى، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [الآية ٤٩] ذمّهم على ذلك، وقال أيضا: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ٣٢﴾ [النجم]، وقد زكى النبي (ص) نفسه فقال: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض». ويوسف عليه السلام قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥﴾ [يوسف]؟

قلنا: إنما قال ذلك حين قال المنافقون: اعدِلْ في القِسْمة، تكذيبا لهم حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة. وأما يوسف عليه السلام، فإنه إنما قال ذلك ليتوصل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى، ولأنه علم أنه لا أحد في ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل، فكان متعينا عليه، فلذلك طلبه وأثنى على نفسه، ومع ذلك كله فإنه روي عن النبي (ص) أنه قال «رَحِمَ الله أخي يوسف لو لم يَقُلْ اجعَلْني على خزائن الأرض لاستَعْمَله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة».

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [الآية ٥١] إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٥٢] فحصر لعنته فيهم لأن هذا الكلام للحصر، وليست لعنة الله منحصرة فيهم بل هي شاملة لجميع الكفار.

قلنا: قوله سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾، وهذا القول شامل لجميع الكفار، فكانت اللعنة شاملة للجميع.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [الآية ٥٦]، أخبر أنه يعذب جلودهم التي لم تعصِ مكان الجلود العاصية، وتعذيب البريء ظلم؟

قلنا: الجلود المجددة، وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب، وهي غير مجددة بل هي العاصية باعتقاد الشرك ونحوه. الثاني أن المراد بتبديلها إعادة النضيج غير نضيج، والجلود هي الجلود بعينها، وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه، كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم/٤٨] وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات، وكما قال الشاعر:

وما الناسُ بالناسِ الذين عَهِدْتُهم
وَمَا الدارُ بالدارِ التي كُنْتُ أَعْهَدُ

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧﴾ وليس في الجنة شمس ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل؟

قلنا: هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب جرياً على المتعارف بين الناس، لأن بلاد الحجاز شديدة الحر، فأطيب ما عندهم موضع الظل، فخاطبهم بما يعقلون ويفهمون، كما قال عز وجل ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢﴾ [مريم] وليس في الجنة طلوع شمس ولا غروبها فيكونَ فيها بكرةٌ وعَشِيّ، لكن لما كان في عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته: أن يكون حاضراً مهيأ في طرفي النهار عبّر عن حضوره وتهيئته بذلك.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية ٦٩] وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول، وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى؟

قلنا: هذا ليس من الباب الذي

ذكرتموه، بل هو كلامٌ المقصود منه الإخبار عن أن المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف والخواص، ثم كأن سائلاً سأل من الأشراف والخواص، فَفَصّلَ له زيادةً في الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [الآية ٦٩]. وأتى في تفصيلهم بذكر الأشرف فالأشرف والأخص فالأخص، إذ هو الغالب في تعديد الأشراف والخواص كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية ٥٩] وقوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران/١٨] والدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملةً لا تفصيلاً، أنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى أرشدهم إلى طلبه مُجْملا بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة].

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ وقال في كيد النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف] ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النساء؟.

قلنا: المراد أن كيد الشيطان ضعيف في جنب نصرة الله وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر/٤٢] وقال حكايةً عن إبليس ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص] والمراد بالآية الأخرى أن كيد النساء عظيم إذا قيس بكيد الرجال. الثاني القائل: إن كيدكن عظيم هو عزيز مصر، وليس الله تعالى، فلا تناقض ولا معارضة.

فإن قيل: لِمَ عاب على المشركين والمنافقين قولهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [الآية ٧٨] وردّ عليهم ذلك بقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [نفسها] ثم قال بعد ذلك ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [الآية ٧٩] وأخبره بعين قولهم المردود عليهم؟

قلنا: قيل إن الثاني حكاية قولهم أيضا، وفيه إضمار تقديره: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ فيقولون ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ [الآية ٧٩].

وقيل معناه: ما أصابك أيها الإنسان من حسنة، أي رخاء ونعمة، فمن

فضل الله، وما أصابك من سيئة، أي قحط وشدة، فبشؤم فعلك ومعصيتك، لا بشؤم محمد عليه الصلاة والسلام، كما زعم المشركون، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

فإن قيل: لِمَ قيل إن الشر والمعصية بإرادة الله، والله تعالى يقول ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [الآية ٧٩].

قلنا: ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية، بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلف فيه العلماء، ألا ترى أنه جل شأنه قال: ﴿مَآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل ما عملت من سيئة.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ السؤال فيه من وجهين: أحدهما أنه يدل، من حيث المفهوم، على أن في القرآن اختلافا قليلا، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة، مع أنه لا اختلاف فيه أصلا. الثاني أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير في القرآن على أنه من عند الله، أنْ لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير، وليس الواقع كذلك، لأن المراد من الاختلاف إما الكذب والتباين في نظمه، وإما التناقض في معانيه، أو التفاوت بين بعضه وبعضه من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة.

قلنا: الجواب عن السؤال الأول أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة، فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فضلا عن القليل. لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل فكيف يكون من عند غير الله؟ فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لا أن القرآن مشتمل على اختلاف قليل. وعن السؤال الثاني أن كل كتاب في فن من العلوم، إذا كان من عند غير الله وُجِد فيه اختلافٌ ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة يعرف ذلك بالاستقراء. والقرآن جامع لفنون من علوم شتى، فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلافٌ ما، فيصير مجموع الاختلاف اختلافا كثيرا.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ استثنى القليل على تقدير

انتفاء الفضل والرحمة، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته، لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء؟

قلنا: الاستثناء راجع إلى ما تقدم، تقديره أذاعوا به إلا قليلا. وقيل لعلمه الذي يستنبطونه منهم إلا قليلا. وقيل معناه: ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطان في الكفر والضلال إلا قليلا منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، ونحوهما قبل بعث النبي عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص، وهو بإرسال الرسل، اتباع الشيطان، ونفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم حق في الرسول لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان؟

قلنا: لا نسلم أنه لم يرسل إليه رسول، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول. الثاني التقييد في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حق الأمة. أما في حق الرسل ومن آمن بغير رسول، فيكون اللفظ باقيا على ظاهره.

فإن قيل: هذه الآية تقتضي أن فضله ورحمته يمنعان أكثر الناس من اتباع الشيطان، مع أنّ الواقع خلافه، فإن أكثر الناس كفرة، يؤيده قوله (ص) «الإسلام في الكفر كالشعرة البيضاء في الثور الأسود».

قلنا: الخطاب في هذه الآية للمؤمنين لا للناس كلهم.

فإن قيل: إذا كان الخطاب خاصا للمؤمنين فما معنى الاستثناء، فإنه، إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصي، فأكثر المؤمنين متبعون له في ذلك ولو في العمر مرة واحدة في بعض الكبائر. وإن كان المراد به اتباعه في دعائه إلى الكفر، فإنّ أحداً من المؤمنين لم يتبعه في الكفر.

قلنا: معناه: ولولا فضل الله عليكم، أيها المؤمنون، ورحمته بالهداية بالرسول، لاتبعتم الشيطان في الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك، إلا قليلا منكم كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما، فإنهم، لولا الفضل والرحمة بالرسول، لما اتبعوا الشيطان

لفضل ورحمة، خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾، مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق في كونه صدقا كما في القول والعلم لا يقال هذا القول أقول، ولا هذا العلم أعلم، ولا هذا الصدق أصدق، لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق للواقع، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة أو النقصان؟

قلنا: أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول، والقائلان يتفاوتان في الصدق في نفس الأمر وإن تساويا في قصة واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقا فيها. وحاصله أن هذا استفهام معناه النفي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران/١٣٥] معناه لا أحد يغفرها إلا الله، فمعناه هنا: لا أحد أصدق في حديثه من الله، فيكون ترجيحا للمحدث على المحدث في الصدق، لا ترجيحا لأحد الصدقين على الآخر، ولا شك أنه لا أحد أصدق في حديث من الله لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلا، ويقع منه أيضا ولو نادرا، والله تعالى منزه عن الأمرين جميعا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ [الآية ٩١] يقال: ركسه وأركسه: أي رده، فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار.

قلنا: جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار وصار المعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم، فالرد الأول بمعنى الدعاء، والركس بمعنى الرد والنكس.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [الآية ٩٢] مع أنه ليس له أن يقتله خطأ.

قلنا: «إلا» بمعنى و«لا» كما في قوله تعالى ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل] وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة/١٥٠]. الثاني معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن وهو في صف المشركين وإن كان في الأمر نفسه مؤمنا.

فإن قيل: كيف يقال إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

قلنا: معناه متعمدا قتله بسبب إيمانه، والذي يفعل ذلك يكون كافرا. الثاني أن المراد بالخلود طول المكث، لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث، كما يقال: خلد السلطان فلانا في الحبس إذا أطال حبسه.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [الآية ٩٥] ثم قال: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾.

قلنا: المراد الأول التفضيل على القاعدين من الغزاة بعذر، فإن لهم فضلا لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الآية ٩٥] يعني الجنة: أي من المجاهدين والقاعدين بعذر، والمراد بالثاني التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر، وأولئك لا فضل لهم بل هم مقصرون ومسيئون، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم؟

فإن قيل: كيف صح القول كما ورد في النص القرآني: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٩٧] جوابا لقول الملائكة في الآية نفسها: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، مع أنه ليس مطابقا للسؤال، والجواب المطابق أن يقولوا كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟

قلنا: معنى فيم كنتم التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حتى قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا فصار قوله ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ مجازا عن السؤال: لم تركتم الهجرة؟ فقالوا كنا مستضعفين، اعتذارا عما وبخوا به تعللا، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [الآية ٩٧] يعني أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم فقد كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التي تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الآية ١٠٠] أي وجب،

والعبد لا يستحق على مولاه أجرا لأنه ليس بأجير له إنما هو عبد قنّ؟

قلنا: معناه وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، والخلف في وعده عز وجل محال، فالوجوب من هذه الجهة، مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه.

فإن قيل: كيف شرط في إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠١]، والقصر جائز مع أمن المسافر؟

قلنا: خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط، وغالب أسفار رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه لم تخل من خوف العدو فصار نظير قوله تعالى ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور/٣٣]، الثاني أن الكلام قد تم عند قوله تعالى ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [الآية ١٠١] وقوله ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مستأنف، وجوابه محذوف تقديره: فاحتاطوا أو تأهبوا. الثالث أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك، لا من عدد الركعات، وذلك القصر مشروط بالخوف.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴿١٠٣﴾﴾ و«كان» لفظ دال على الماضي، والصلاة في الحال وإلى يوم القيامة أيضا على المؤمنين فرض موقت؟

قلنا «كان» في القرآن العزيز على خمسة أوجه: كان بمعنى الأزل والأبد كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿٩٢﴾﴾. وكان بمعنى المضيّ المنقطع كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل/٤٨] وهو الأصل في معاني «كان» كما تقول: كان زيد صالحا أو فقيرا أو مريضا ونحو ذلك. وكان بمعنى الحال كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴿١٠٣﴾﴾. وكان بمعنى الاستقبال كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿٧٤﴾﴾ [ص] أي صار.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [الآية ١٠٤] والكافرون أيضا يرجون الثواب في محاربة المؤمنين، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ويقاتلون أعداءه، كما يعتقد المؤمنون، فالرجاء مشترك؟

قلنا: قيل إن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح] وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية/١٤] وقول الشاعر:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا

وعلى قول من قال إنه بمعنى الأمل نقول: قد بشر الله المؤمنين في القرآن ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد في سائر الكتب فافترقا. وقيل الرجاء ما يكون مستندا إلى سبب صحيح ومقدمات حقة، والطمع ما يكون مستندا إلى خلاف ذلك؛ فالرجاء للمؤمنين، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [الآية ١١٠] بعد قوله في الآية نفسها: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ وظلم النفس من عمل السوء، فَلِمَ لَمْ يقتصر على الأول مع أن الثاني داخل فيه؟

قلنا: «أو» بمعنى الواو، فمعناه ويظلم نفسه بذلك السوء حيث دساها بالمعصية. وقيل المراد بعمل السوء التَلَبُّس بما دون الشرك، ويظلم النفس الشرك. وقيل المراد بعمل السوء الذنب المتعدي ضررُه إلى الغير، ويظلم النفسَ الذنبُ المقتصرُ ضرره على فاعله.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [الآية ١١٣] ظاهره نفي وجود الهم منهم بإضلاله، والمنقول في التفاسير أنهم هموا بإضلاله، وزادوا على الهم الذي هو القصد القول المضل أيضا، يُعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

قلنا: قوله تعالى: ﴿لَهَمَّت﴾ [الآية ١١٣] ليس جواب «لولا» بل هو كلام مقدم على لولا، وجوابها في التقدير مقول على طريق القسم، وجواب لولا محذوف تقديره لقد همت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك.

فإن قيل: النجوى فعل «ومَنْ» اسم، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل في قوله تعالى ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن

﴿نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ [الآية ١١٤]؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إلا نجوى من أمر بصدقة، فيكون استثناء الفعل من الفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ﴾ [البقرة/١٧٧] تقديره: برّ من آمن بالله.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ ثم قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [الآية ١١٤]؟

قلنا: ذكر الآمر بالخير ليدل به على خيرية الفاعل بالطريق الأولى، ثم ذكر الفاعل ووعده الأجر العظيم إظهارا لفضل الفاعل المؤتمر على الآمر الثاني. انه أراد: ومن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل، وإذا كان الآمر موعودا بالأجر العظيم كان الفاعل موعودا به بطريق الأولى.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [الآية ١١٧] أي ما يعبدون من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها وهي مؤنثة، ثم قال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ أي ما يعبدون إلا الشيطان؟

قلنا: معناه أن عبادتهم للأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان، إما لأنهم أطاعوا الشيطان في ما سول لهم وزين من عبادة الأصنام بالإغواء والإضلال، أو لأن الشيطان موكل بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتها شفاها ويتزيا للسَّدَنة فيكلمهم ليُضلهم.

فإن قيل: كيف يقال إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان، والله تعالى شَرَطَ لذلك العمل الصالح بظاهر قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الآيتان ٥٧ و١٢٢] وقوله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية ١٢٤] وإلا لما كان للتقييد فائدة؟

قلنا: قيل إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص في الإيمان، وقيل الثبات عليه إلى الموت، وكلاهما شرط في كون الإيمان سببا لدخول الجنة.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [الآية ١٢٣] والتائب المقبول التوبة غير مَجزيّ بعمله، وكذلك من عمل سيئة ثم أتبعها حسنة، لأنها مُذهِبة لها وماحية بنص القرآن؟

قلنا: المراد: من يعمل سوءا ويَمُتْ

مُصِرّاً عليه، فإن تاب عنه لم يُجزَ به. الثاني أن المؤمن يجازى في الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب، والمحسن كما جاء في الحديث، والكافر يجازى في الآخرة.

فإن قيل: لِمَ خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله سبحانه ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الآية ١٢٤] مع أن غيرهم لا يظلم أيضا؟

قلنا: قوله تعالى ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾﴾ راجع إلى الفريقين: عمال السوء وعمال الصالحات، لِسَبْق ذكر الفريقين. الثاني: أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر، ولا يظلم المؤمنون بنقصان أعمالهم، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذنوبهم. الثالث: أن المراد بالظلم نفي نقصان ثواب الطاعات، وهذا مخصوص بالمؤمنين، لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب يُنقص من العقاب على ذنوبهم.

فإن قيل: طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل حاصل، فكيف قال جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ١٣٦].

قلنا: معناه: يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد. وقيل معناه: يا أيها الذين آمَنوا يوم الميثاق آمِنوا الآن. وقيل معناه: يا أيها الذين آمَنوا علانية آمِنوا سرّاً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ [الآية ١٤١] ﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ﴾ [الآية ١٤١] لماذا سمى ظفر المؤمنين فتحا وظفر الكافرين نصيبا؟

قلنا: تعظيما لشأن المؤمنين وتحقيرا لحظ الكافرين، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم يتضمن نصرة دين الله وعزة أهله، وتفتح له أبواب السماء حتى ينزل على أولياء الله، وظفر الكافرين ليس إلا حظا دنيئا وعَرَضاً من متاع الدنيا يصيبونه، ولا يتضمن شيئا مما ذكرنا.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أُحُد وفي غيره أيضا إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به السبيل بالحجة والبرهان، والمؤمنون غالبون بالحجة دائماً.

فإن قيل: كيف كان المنافق أشد عذابا من الكافر حتى قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [الآية ١٤٥] مع أن المنافق أحسن حالا من الكافر، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر، ولهذا قال الله تعالى في حقهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية ١٤٣]، فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين؟

قلنا: المنافق، وإن كان في الظاهر أحسن حالا من الكافر، إلا أنه عند الله في الآخرة أسوأ حالا منه لأنه يشاركه في الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله ومخادعة الله والمؤمنين.

فإن قيل: الجهر بالسوء غير محبوب عند الله تعالى أصلا، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [الآية ١٤٨]: أي إلا جهر من ظلم.

قلنا: معناه ولا جهر من ظلم فـ«إلا» بمعنى ولا، وقد سبق نظيره وشاهده في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [الآية ٩٢].

فإن قيل: كيف جاز دخول «بين» على أحد في قوله تعالى ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ١٥٢] و«بين» تقتضي اثنين فصاعدا، يقال فرقت بين زيد وعمرو، وبين القوم، ولا يقال فرقت بين زيد؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة/ ٦٨] في سورة البقرة أيضا.

فإن قيل: ما الحكمة من إعادة الكفر في الآية الثانية بقوله تعالى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ [الآية ١٥٥] بعد قوله سبحانه في الآية نفسها: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

قلنا: لأنه قد تكرر الكفر منهم فإنهم كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فعطف بعض كفرهم على بعض.

فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف أقروا أنه رسول الله بقولهم، كما ورد في القرآن الكريم

﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٥٧]؟

قلنا: قالوه على طريق الاستهزاء، ومثال ذلك ما أورده القرآن الكريم حكاية على لسان فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء].

فإن قيل: لِمَ وصفهم بالشك بقوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [الآية ١٥٧] ثم وصفهم بالظن في الآية نفسها: بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾. والشك تساوي الطرفين، والظن رجحان أحدهما؛ فكيف يكونون شاكين ظانين، وكيف استثنى الظن من العلم وليس الظن فرداً من أفراد العلم بل هو قسيمه؟

قلنا: استعمل الظن بمعنى الشك مجازاً لما بينهما من المشابهة في انتفاء الجزم، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم/٦٢] وقيل لأن المراد بالشك هنا ما يشمل الظن، واستثناء الظن من العلم في الآية منقطع، فـ «إلا» فيها بمعنى لكن كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة]، وما أشبهه.

فإن قيل: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الآية ١٦٥]؟

قلنا: الرسل والكتب منبهة من الغفلة، باعثة على النظر في أدلة العقل، مفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكليف التي لا يستقل العقل بمعرفتها، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجة، لئلا يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه/ ١٣٤]، فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [الآية ١٦٦] ولم يقل أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته، مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدرة؟

قلنا قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي عالما به، أو: وفيه علمه: أي معلومه أو معلمه من الشرائع والأحكام. وقيل معناه: أنزله عليك بعلم منه أنك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه.

فإن قيل: كلام الله صفة قديمة قائمة

بذاته، وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق وحادث فكيف صَحَّ إطلاق الكلمة عليه في قوله تعالى: ﴿رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [الآية ١٧١]؟

قلنا: معناه أن وجوده في بطن أمه كان بكلمة الله تعالى، وهو قوله «كن» من غير واسطة أب، بخلاف غيره من البشر سوى آدم. وقيل المراد بالكلمة الحجة.

فإن قيل على الوجه الأول: لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى صلوات الله على نبينا وعليه لهذا المعنى لصح إطلاقها على آدم (ع): لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضا.

قلنا: لا نُسَلِّم أنه لا يصح إطلاقها عليه لهذا المعنى، بل يصح.

فإن قيل: لو صح إطلاقها عليه، لجاء به القرآن كما جاء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: خص ذلك بعيسى لأن المجيء في حق عيسى (ع) إنما كان للرد على من افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب، ولم يَرِدْ هذا المعنى في حق آدم عليه الصلاة والسلام لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم.

المعاني المجازية في سورة «النساء»(*)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [الآية ١٠].

استعارة. وقد مضى الكلام على نظيرها في البقرة. والمعنى أنهم لما أكلوا المال المؤدي إلى عذاب النار شُبِّهوا، من هذا الوجه، بالآكلين من النار.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [الآية ١٥].

استعارة لأن المتوفي مَلَكُ الموت فنقل الفعل إلى الموت على طريق المجاز والاتساع، لأن حقيقة التوفي هي قبض الأرواح من الأجسام.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [الآية ٣٣].

استعارة. والمراد بها والله أعلم: «أن من عقدتم بينكم وبينه عقداً، فأدوا إليه ما يستحقه بذلك العقد عليكم»، وإنما نسب المعاقدة إلى الأيمان على عادة العرب في ذلك. يقول قائلهم: أعطاني فلان صفقة يمينه على كذا، وأخذت يد فلان مصافحة على كذا، وعلى هذا النحو أيضاً إضافة الملك إلى الأيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [الآية ٣٦] لأن الانسان في الأغلب إنما يقبض المال المستحق بيمينه ويأخذ السلع المملوكة بيده.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [الآية ٤٦].

وهذه استعارة. والمراد بها، والله

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

أعلم، أنهم يعكسون الكلام على حقائقه، ويزيلونه عن جهة صوابه، حملاً له على أهوائهم وعطفاً على آرائهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [الآية ٤٦].

استعارة أخرى. والمراد بها يميلون بكلامهم إلى جهة الاستهزاء بالمؤمنين، والوقيعة في الدين.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [الآية ٤٧].

وهذه استعارة. وهي عبارة عن مسخ الوجوه؛ أي يزيل تخاطيطها ومعارفها، تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُمِّيَتْ سطورها وأشكلت حروفها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [الآية ٧٧].

استعارة. والمراد بها تخسيس قدر ما يصحب الإنسان في الدنيا، وأن المتعة به قليلة والشوائب له كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [الآية ٧١].

استعارة ومجاز لأن الحذر لا يؤخذ على الحقيقة، وإنما يصح الأخذ على ما يتأتى إمساكه بالأيدي من الأجسام، كالأسلحة المتعاطاة والآلات المستعملة، وما يجري مجرى ذلك، والمراد، والله أعلم: «تمسّكوا بالحذر وأديموا استشعاره، كما تتمسكون بالشيء الذي تشتمل عليه أكفكم، وتتعلق به أناملكم».

وقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ [الآية ٩٠].

استعارة. والمراد بها صفة صدورهم بالضيق عن القتال؛ وذلك مأخوذ من الحصار وهو تضييق المذهب والمنع من التصرف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ [الآية ٩٠].

وهذه استعارة وحقيقتها: «إن طلبوا منكم المسالمة وساءلوكم الموادعة»، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ عبارة عن طلبهم السلم عن ذل واستكانة وخضوع وضراعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [الآية ١٢٨].

وهذه استعارة وليس المراد أنّ محضراً أحضر الأنفس شحها، ولكنّ الشحّ، لما كان غير مفارق لها، ولا متباعداً عنها، كان كأنه قد أحضرها، وحمل على ملازمتها، ومثل ذلك.

سورة المائدة

٥



أهداف سورة «المائدة»(*)

١ ـ تاريخ النزول

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك.

ونلحظ أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من السور بالمدينة، فقد روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن المائدة من آخر ما أنزل الله، فما وجدتم فيها من حلال فأحِلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه.

والمتأمّل يرى أن السورة قد امتد نزول آياتها خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة الرسول (ص) بالمدينة. فقد ابتدأ نزولها في السنة السابعة للهجرة، وفيها آية نزلت في حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبي (ص) بثمانين يوماً وهي قوله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣﴾.

وفي كتب التفسير أن سورة المائدة نهارية كلها أي نزلت آياتها جميعها نهاراً. مدنية كلها إلا قوله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [الآية ٣] فإنها نزلت بعرفة.

وعدد آيات سورة المائدة: ١٢٠ آية، وعدد كلماتها: ٢٨٠٤ كلمات.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبدالله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

٢ ـ قصة التسمية

سميت سورة المائدة بهذا الاسم، لأنها السورة الوحيدة التي تحدثت عن مائدةٍ طَلَبَ الحَواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه. وذلك في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

والحواريون هم خلصاء عيسى عليه السلام الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق وبادروا إلى الإيمان بعيسى وتلقوا عنه التعاليم ثم انتشروا في القرى لِبَثّها بين الناس.

المائدة

تكلّم العلماء على المائدة التي سألها الحواريون عيسى: هل نزلت أم لا؟ وجمهور المفسرين منعقد على أنها نزلت بالفعل. وقد تعددت الروايات بعد ذلك عن أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب. وحسبك أن ترجع إلى أي تفسير من كتب التفاسير المتداولة لتقرأ في أوصافها وأوصاف ما وضع عليها الشيء الكثير، مما يجعلك ترجح أن كثيرا مما ورد في أوصاف هذه المائدة إنما هو من افتراء المفترين أو أساطير الإسرائيليين.

وألفاظ القرآن الصريحة تفيد أن عيسى (ع) طلب من ربه أن ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعاً، وتكون عيدا وسعادة لأول قومه وآخرهم. والمائدة طعام ورزق، وكل طعام ورزق إنما هو من عند الله. وقد وعد الله أن ينزّلها عليهم. ولم يذكر القرآن: هل كانت بمفهومها الضيق كما طلبها الحواريون، أو بمفهومها المطلق، كما قد يريده الله، ويفهمه عيسى والحواريون، فيكون حينئذ وعداً بنعمة من الله عليهم، طعاماً ورزقاً، يشمل أولهم وآخرهم، وترجمة للمفهوم الضيق، الذي أرادوه للمائدة، بمفهوم أوسع، قد يشمل الطعام، وسواه من الرزق، ليكون ذلك ابتلاء وفتنة، لأتباع المسيح (ع) بوجه عام.

والله أعلم بما كان مما سكت عنه القرآن، وليس لنا من مصدر آخر نستفتيه، واليقين، في مثل هذه الشؤون، أنه ليس سوى رأي نبديه،

بجوار آراء السلف، عليهم رضوان الله.

٣ ـ ظواهر تنفرد بها سورة المائدة

تنفرد سورة المائدة بجملة من الظواهر لا نكاد نجد شيئاً منها في غيرها من السور، حتى في أطول سور القرآن وهي البقرة، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك، ولا عن المشركين، على النحو الذي أُلِفَ في القرآن: من محاجتهم، وتسفيه أحلامهم، وتحقير شركائهم؛ وأنها لم تعرض، في قليل ولا في كثير، لما عهد في أكثر السور المدنية، التي نزلت قبلها، من الحث على القتال، والتحريض عليه، ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين، كما نراه في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنفال، والتوبة، لأن المسلمين في ذلك الوقت، لم يكونوا بحاجة إلى شيء من هذا الحديث، لقد اندحر الشرك وصار المشركون في قهر وذلة ويأس.

ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم، والمسلمون قد علا شأنهم، فإنّ المسلمين في حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لشؤونهم، على وجه يضمن لهم دوام السعادة، ويحفظ لهم السيادة، ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب، يعيشون في ذمتهم وعهدهم، ويخالطونهم في حياتهم ومعاملاتهم، ومن هنا نتبين أن المسلمين، في ذلك الوقت، كانوا في حاجة إلى ما يعنيهم في الجانبين: جانب أنفسهم، وجانب علاقتهم بأهل الكتاب، وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة، على أمرين بارزين: تشريع المسلمين في خاصة أنفسهم وفي معاملة من يخالطون، وإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة، وبيان الحق في المزاعم التي كان يثيرها أهل الكتاب، مما يتصل بالعقائد والأحكام، وفي سياق هذه المحاجة، تعرض السورة لكثير من مواقف الماضين، من أسلاف أهل الكتاب، مع أنبيائهم تسليةً للنبي (ص) من جهة، وتنديداً بهم عن طريق أسلافهم، من جهة أخرى.

٤ ـ تشريع القرآن

نزل القرآن على رسول الله (ص) لينشئ به أمة وليقيم به دولة ولينظم به

مجتمعاً، وليربي به ضمائر وأخلاقاً وعقولاً وليربط ذلك كله برباط قوي يجمع متفرقه، ويؤلف أجزاءه ويشدها كلها إلى منزل هذا القرآن، وإلى خالق الناس الذي أنزل لهم هذا القرآن.

ومن ثم نجد في كثير من سور القرآن تشريعاً إلى جانب موعظة، وقصة إلى جانب فريضة، ونجد التشريع الذي ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية، الى جانب التشريع الذي يحل ويحرم ألواناً من الطعام أو ألواناً من السلوك والأعمال.

وهذه السورة، سورة المائدة، مَثَلٌ لتلك السور التي تلتقي فيها التربية الوجدانية بالتربية الاجتماعية بتشريع الحلال والحرام في الطعام والزواج، بتشريع المعاملات الدولية في ما بين المسلمين وغير المسلمين، بتعليم بعض الشرائع التعبّدية ببيان الحدود والعقوبات في بعض الجرائم الاجتماعية بالمَثَل والموعظة والقصّة، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة في تناسق واتساق.

٥ ـ الوفاء بالعقود

تبدأ سورة المائدة بنداء إلهي للمؤمنين أن يوفوا بالعقود فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [الآية ١].

والعقود جمع عقد، وهو ما يلتزمه المرء لنفسه، أو لغيره، وأساسه قد يكون شيئاً فطرياً تدعو إليه الطبيعة، وقد يكون شيئاً تكليفياً تدعو إليه العقيدة، وقد يكون شيئاً عرفياً يدعو اليه الالتزام والتعاهد، والعقد العرفي، أي المتعارف عليه لدى عامة الناس، يكون بين الفرد والفرد، كما في البيع والزواج، والشركة، والوكالة، والكفالة، إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفون عليه من وجوه الاتفاقات، والكلمة في الآية عامة تأمر بالوفاء بالعقود، فتشمل العقود كلها على اختلاف أنواعها وأشكالها، وتدخل في العقود والمعاملات، والمعاهدات، بظاهر اللفظ، كما تدخل في إقامة الحدود، وتحريم المحرّمات، بوصفها داخلة في عقد الإسلام، بين الله ورسوله، والذين آمنوا بالله ورسوله.

وعلى وجه العموم، فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق، في شتى صورها، حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة، الوارد في نهاية السورة، نجده سؤالاً عمّا عهد

به اليه، وعما إذا كان قد خالف عنه، كما زعم الزاعمون بعده.

٦ ـ الظروف التي نزلت فيها السورة

نزلت سورة المائدة، بعد أن قلّمت أظفار المشركين، وانزوى الشرك في مخابئه المظلمة، وصار المسلمون في قوة ومَنَعَة، كانوا بها أصحاب السلطان والصولة، في مكة وفي بيت الله الحرام، يحجون آمنين مطمئنين، وقد نُكّست أعلام الشرك، وانطوت صفحة الإلحاد والضلال، وقد أتمّ الله نعمته على المسلمين بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وسورة المائدة، وإن ابتدأ نزولها في السنة السابعة، الا أنّ هذا النزول قد استمر إلى السنة العاشرة، بدليل أن فيها آية من آخر ما نزل من القرآن وهي قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [الآية ٣].

رُوي أن رجلاً من اليهود، جاء إلى عمر رضي الله عنه فقال: إن في كتابكم آية تقرأونها، لو علينا أُنزلت، معشر اليهود، لاتخذنا اليوم الذي أنزلت فيه عيداً، قال عمر: وأي آية؟ قال:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [الآية ٣].

فقال عمر: إني والله لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله (ص) عشية عرفة في يوم الجمعة، والحمد لله الذي جعله لنا عيدا.

وقد روي أن النبي (ص) قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ سُورَةَ المَائِدَة آخِرُ مَا نَزَلَ فَأَحِلُّوا حَلالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَها».

٧ ـ أفكار السورة وأحكامها

انفردت سورة المائدة بعدّة مسائل، في أصول الدين وفروعه، وبتفصيل عدة أحكام، أجملت في غيرها إجمالاً، ومن هذه الأحكام ما يأتي:

١ ـ بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم، الذي ارتضى لهم، بالقرآن وإتمام نعمته عليهم بالإسلام.

٢ ـ النهي عن سؤال النبي(ص) عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم، لما فيها من زيادة التكاليف.

٣ ـ بيان أن هذا الدين الكامل مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد، والهداية في الأخلاق والأعمال، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى.

٤ ـ بيان أن أصول الدين الإلهي، على ألسنة الرسل كلهم، هي الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أي ملة، من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون.

٥ ـ وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه.

٦ ـ هيمنة القرآن على الكتب الإلهية.

٧ ـ بيان عموم بعثة النبي (ص) وأمره بالتبليغ العام، وكونه لا يكلّف من حيث كونه رسولاً إلا التبليغ، وأن من حجج رسالته أنه بيّن لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون من كتبهم، وهو قسمان: قسم ضاع منهم قبل بعثة النبي (ص)، وقسم كانوا يكتمونه اتّباعاً لأهوائهم، مع وجوده في الكتاب كحكم رجم الزاني، ولولا أن محمداً الأمين (ص) مرسل من عند الله، لما علم شيئاً من هذا ولا ذاك.

٨ ـ عصمة الرسول (ص) من أذى الناس، وهذا من دلائل نبوته (ص)، فكم حاولوا قتله، فأعياهم وأعجزهم.

٩ ـ بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم، أفراداً وجماعات، وأنه لا يضرهم من ضل من الناس، إذا هم استقاموا على صراط الهداية.

١٠ ـ تأكيد وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بما بينه الله تعالى مِنْ لَعْن الذين كفروا من بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم، وتعليلُه ذلك، بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

١١ ـ نَفْيُ الحرج من دين الإسلام.

١٢ ـ تحريم الغلوّ في الدين، والتشدد فيه، ولو بتحريم الطيبات، وترك التمتّع بها.

١٣ ـ قاعدة إباحة المحرّم للمضطر، ومنه أخذ الفقهاء قولهم: الضرورات تبيح المحظورات.

١٤ ـ قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب، وكونهما لا يستويان في الحكم، كما أنهما لا يستويان في أنفسهما، وفيما يترتب عليهما.

١٥ ـ تحريم الاعتداء على قوم، بسبب بغضهم وعداوتهم، لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل.

١٦ ـ وجوب الشهادة بالقسط، والحكم بالعدل، والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين، ولو للأعداء على الأصدقاء، وتأكيد وجوب العدل في سائر الأحكام والأعمال.

١٧ ـ الحياة شركة ذات أطراف، لا يجوز أن يجور فيها طرف على طرف.

١٨ ـ التعاون على البرّ والتقوى، بما له من وسائل وسبل، حسب الزمان والمكان، ومنه تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان.

١٩ ـ بيان أن الله تعالى، جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، أي يقوم عندها أمر دينهم ودنياهم، فعندها يُؤَدى الحج والعمرة، وعندها يكون الإحرام، والأمان، والسلام، ولها يتوجه المسلمون في الصلاة. فهي رمز للوحدة والأخوّة والإيمان.

٢٠ ـ النهي عن موالاة المؤمنين للكافرين.

٢١ ـ تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمّم، مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهّر الناس، ويزكيهم بما شرع لهم، من أحكام الطهارة وغيرها.

٢٢ ـ تفصيل أحكام الطعام، وبيان حرامه وحلاله. وما حرم منه لكونه خبيثاً في ذاته كالميتة وما في معناها، والخنزير، وما حرم لسبب ديني، كالذي يذبح لأصنام.

٢٣ ـ تحريم الخمر، وهو كل مسكر، وتحريم الميسر، وهو القمار.

٢٤ ـ بيان محظورات الإحرام في الحج.

٢٥ ـ تفصيل أحكام الصيد للمحرمين وغيرهم، في أوائل السورة وأواخرها.

٢٦ ـ حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض، ويخرجون على أئمة العدل، وحد السرقة وما يتعلق بالحد، كسقوطه بالتوبة الصادقة.

٢٧ ـ أحكام الأيمان وكفارتها.

٢٨ ـ تأكيد أمر الوصيّة قبل الموت، وأحكام الشهادة على الوصية.

٢٩ ـ الأمر بالتقوى في عدة آيات من السورة.

٣٠ ـ بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله تعالى وحده.

٨ ـ النداءات الإلهية للمؤمنين

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداء وُجهت للمؤمنين خاصة، وكل نداء منها يُعَدّ قانوناً ينظم ناحية من نواحي الحياة عند المسلمين تختص بأنفسهم، وتختص بعلاقتهم بأهل الكتاب.

فالنداء الأول: يطلب الوفاء بالعقود:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [الآية ١].

والنداء الثاني: يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم احلالها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢].

والنداء الثالث: يطلب الطهارة حين القيام إلى الصلاة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [الآية ٦].

والنداء الرابع: يطلب القوامية لله والشهادة بالعدل ويحذر من الظلم. والنداء الخامس: يطلب تذكر نعمة الله على المؤمنين بكفّ أيدي الأعداء عنهم. والنداء السادس: يدعو الى تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله. والنداء السابع: يحذّر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين. والنداء الثامن: يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة في موالاة الأعداء ردة عن الدين. والنداء التاسع: يدعو إلى شدة الحذر من موالاة الأعداء. والنداء العاشر: يذكر تحريم الطيبات التي أحلها الله. والنداء الحادي عشر: يحرّم الخمر والميسر. والنداءان الثاني عشر والثالث عشر: يتعلّقان بتحريم قتل الصيد في حالة الإحرام. والنداء الرابع عشر: يتعلق بالنهي عن سؤال ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [الآية ١٠١].

والنداء الخامس عشر: يتعلّق بتحديد المسؤولية التي يحملها المؤمنون في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والنداء السادس عشر: يتعلّق بكيفية الشهادة على الوصيّة في حالة السفر.

وجملة هذه النداءات تربية عملية للمؤمنين، وبيان للطريق السوي التي يجب اتباعها في الشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات. والنداء للمؤمنين بصفة الايمان تذكير لهم بأن عليهم أن يعملوا بمقتضى هذا الإيمان، وقوامه التصديق الباطني بوجود الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

الأمر بالتقوى:

حث القرآن على تقوى الله وطاعته وذيّل كثيراً من أحكامه ببيان شأن التقوى، وأهميتها، وفي النداء السادس من سورة المائدة حث على تقوى الله والتماس الأسباب المساعدة على هذه التقوى فيقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وتقوى الله هي تقدير العظمة الالهية وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وتشريعاته. والتقوى تدفع المؤمن إلى إنعام النظر وقوة التفكير في ملكوت السماوات والارض لمعرفة أسرار الله في كونه، وسننه في خلقه، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده والوقوف على السنن التي ربط بها بين الأسباب والمسببات بين السعادة وأسبابها والشقاء وأسبابه، بين العلم وأسبابه والغنى وأسبابه والعزة وأسبابها... وهكذا.

وبذلك ترى أن التقوى هي ذلك المعنى القلبي الذي تفنى به الإرادات الإنسانية في ملكوت العظمة الالهية، وهي الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي المحققة للإحسان في طاعة الله ورسوله، فهي المبدأ، وهي المنتهى، وهي الأولى، وهي الآخرة.

٩ ـ أهل الكتاب

أرسل الله محمداً (ص) على حين فترة من الرسل، بعد أن دَرَسَتْ معالم الحق والفضيلة، وبعد أن ضيّع أهل الكتاب بعض تعاليمه، وأخفَوْا بعضه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم.

وقد واجهتهم سورة المائدة بأخطائهم، فوصفتهم بالتعصب المقيت، والغلوّ في الدين، واتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم، وادعائهم أنهم أبناء الله

وأحباؤه. وقد بيّن الله لهم حقيقة الأمر، وهي أنهم بشر ممن خلق الله، لا مزية لهم على سائر البشر، في أنفسهم وذواتهم، إنما يمتاز بعضهم على بعض بالعلوم الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة، لا بالنسب والانتماء، إلى الأنبياء والصالحين، وصدق القائل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا
يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

وقد وجّه الله الخطاب لأهل الكتاب عامة، بأن الرسول (ص)، قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه، من كتاب الله الذي استحفظوا عليه، فنقضوا عهدهم مع الله فيه، ويعفو عن كثير مما أثقلهم به الله من تكاليف، وحرمه عليهم من طيبات، عقاباً لهم على مخالفتهم وانحرافاتهم. فالفرصة إذن سانحة ليتداركوا ما فات ولينجوا مما كتب عليهم في الدنيا والآخرة عقاباً لهم على الخلاف والأخلاف:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

وتوالى نداء القرآن لأهل الكتاب ليقطع حجّتهم ومعذرتهم أن يقولوا: إن فترة كبيرة مرت عليهم، لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله، أو نذير يخوفهم الانحراف، فها هو ذا بشير ونذير:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

وقد وصفت سورة المائدة التوراة والإنجيل أحسن وصف، وذكرت من أخبار التوراة قصة ابني آدم بالحق، ومن أحكامها عقوبات القتل وإتلاف الأعضاء والجروح ومن أخبار الإنجيل والمسيح، ما هو حجة على الفريقين وبينت أن الكتابين أنزلا نوراً وهدى للناس وأنهم لو كانوا أقاموهما لكانوا في أحسن حال، ولسارعوا إلى الإيمان

بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقاً لأصلهما، ولكنهم اتخذوا الإسلام هزواً ولعباً، في جملته، وفي عبادته، ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه، فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم.

١٠ ـ اليهود

ناقشت سورة المائدة اليهود خاصة، فذكّرتهم بنعم الله عليهم وبميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل، النائبين عنهم، فما الذي كان من بني اسرائيل؟

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيّتوا الصلب والقتل لعيسى بن مريم، وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بهذا التحريف ثمناً قليلاً من عرض هذه الحياة الدنيا، ونَسُوا بعض شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمداً رسول الله وأحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم، فباءوا بالطرد من رحمة الله وقست قلوبهم، ببعدهم عن هذه الرحمة.

وإنّ من صفات اليهود الغالبة عليهم الخيانة والمكر، وقول الإثم والمبالغة في سماع الكذب وأكل السُحت، والسعي بالفساد في الأرض، في إيقاد نار الفتن والحروب، وقد قتلوا رُسُل الله إليهم، وتمرّدوا على موسى إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين، فعاقبهم الله بالتيه في الأرض، وأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين فعاقبهم الله على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل، وبالغضب والمسخ، وهذه الصفات التي غلبت عليهم في زمن البعثة، وقبل زمن البعثة تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم. ومن المعلوم أنها لم تكن عامة فيهم ولا شاملة لجميع أفرادهم ولذلك قال سبحانه:

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية ٦٦].

١١ ـ النصارى

ممّا جاء في النصارى خاصة، أنهم نَسُوا، كاليهود، حظاً مما ذكروا به، وأنهم قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، وقد ردّ الله عليهم هذه العقيدة بالأدلّة العقلية وببراءة المسيح منها ومن منتحليها يوم القيامة، وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه. ولقد أخذ

الله الميثاق عليهم، أن يلتزموا بتعاليم رسولهم، ولكنهم نَسُوا جانباً من تعاليمه، وأهملوا جانب التوحيد، وهو أساس العقيدة، وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى، التي لا تكاد تعد. إذ أنّ هناك فِرَقاً كثيرة صغيرة، داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة: الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والموارنة اليوم، ومن قبل كان اليعقوبيون والملكانيون والنساطرة.

وقد اشتدت العداوة بين هذه الفرق، وشهدت المسيحية آثارها منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة، وهي اليوم على أشدها بين الفرق القائمة؛ فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذي بين الكاثوليك والبروتستانت، أو بينهم وبين الأرثوذكس، أو بين الموارنة والبروتستانت، أو سواهم قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد بينت سورة المائدة أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين، وأن النصارى أقرب الناس مودة إليهم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

القرآن من عند الله

إنّ جملة الآيات الواردة في أهل الكتاب تشهد لنفسها، أنّها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله، العربي الأمي، الذي لم يقرأ شيئاً من الكتب، على أن تلك الآيات، ليست موافقة لها ولهم، موافَقَةَ الناقل للمنقول عنه، وإنما هي، فوق ذلك، تحكم لهم، وعليهم، وفيهم، وفي كتبهم، حكم المهيمن السميع العليم.

١٢ ـ عدالة أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب

لو كان هذا القرآن من وضع البشر، لشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر، ولا سيما الذين ناصبوا الإسلام العداء عند ظهوره، بأشدّ الأحكام وأقساها.

ولكنه تنزيل من حكيم حميد، أمر في هذه السورة بمعاملتهم بالعدل،

والحكم بينهم بالقسط، وحكم بحلّ مؤاكلتهم، وتَزَوُّج نسائهم وقبول شهادتهم، والعفو والصفح عنهم. وهذه الأحكام التي شرعت هذه المعاملة الفضلى لهم، نزلت بعد إظهار اليهود للمسلمين منتهى العداوة والغدر. ولكن السورة، تضمنت تأليف قلوبهم، واكتساب مودّتهم.

وقد ختم الله سورة المائدة، بذكر الجزاء في الآخرة، وسؤال الرسل عن جواب أممهم لهم. ثم براءة المسيح ممن جعله إلها، وتفويضه الأمر كله لله الحق، فهو سبحانه المتفرد بالعلم، والقدرة، والألوهية.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.





ترابط الآيات في سورة «المائدة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تَبُوك.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأنه ذكر فيها حديث المائدة التي أُنزلت من السماء على حواريّي عيسى عليه السلام، وتبلغ آياتها عشرين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت سورة المائدة بعد صلح الحديبية، وكان النبي (ص) قد قَصَد مكة للعمرة هو وأصحابه، فصدتهم قريش عن عمرتهم، وجرت بين الفريقين حوادث انتهت بصلح رَضِيَهُ النبي (ص)، وكان كثير من أصحابه يرى أن فيه غُبْناً لهم، لأنه جاء على الشروط التي أرادتها قريش، وهي وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين، وأن من جاء المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده، وأن يرجع المسلمون من غير عمرة هذا العام ويقضوها في العام المقبل، وأن من أراد أن يدخل في عهد المسلمين من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فنزلت هذه السورة وفي أولها الأمر بالوفاء بالعقود، لِيَفُوا بما للمشركين في

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز. المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

ذلك العقد وإن كان فيه غبن لهم، ويقوموا بعمرة القضاء ولا يتثاقلوا عنها تهاونا بما استفادوه منه، وقد أطلقت العقود في ذلك إطلاقا لتشمل هذا العقد وغيره من العقود، سواء أكانت بين بعض العباد وبعض، أم كانت بين الله والعباد، ثم ذكر فيها ما أوقعه الله بالأولين من أهل الكتاب وغيرهم لنقضهم عهودهم، ليحذر المسلمين أن يصيبهم إذا نقضوا عهودهم مثل ما أصابهم، وقد جرّ ذلك إلى الكلام على نقض المنافقين واليهود لعهودهم مع النبي (ص)، وما كان من موالاة المنافقين لليهود وإيثارهم عهودهم معهم على عهودهم مع المسلمين.

وقد جاء، بعد الأمر بالوفاء بالعقود في أول السورة، بيان حكم الذبائح والصيد في الحرم وتحريم التعرض لمن يَؤُمُّه للنسك، وما إلى هذا من أحكام المناسك، وقد جاء معها قليل من الأحكام العملية الأخرى، فلما انتهى من الكلام على أهل الكتاب والمنافقين عاد إلى الكلام على تلك الأحكام العملية، وفصّل فيها بعض ما أجمله في أحكام المناسك، ليبين للمسلمين ما يحتاجون إليه من ذلك في عمرة القضاء، وليعلموا الفرق في ذلك بين الجاهلية والإسلام، ثم خُتمت السورة بذكر أحوال يوم القيامة ليبين ما أعد فيها للذين يفون بعهودهم، ويتناسب في هذا بدؤها وختامها.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة النساء لأنها تشبهها في الطول، وفيما جاء فيها من الكلام على أهل الكتاب والمنافقين، كما تشبهها فيما جاء فيها من الأحكام العملية.

أحكام العقود والمناسك
الآيات [١ ـ ٥]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾. فأمرهم بالوفاء بالعقود، وأحل لهم بهيمة الأنعام وهم حُرُمٌ إلا ما يُتلى عليهم، وحُرِّمَ عليهم الصيد وهم حُرُم، ثم نهاهم أن يحلوا شعائره أو الشهر الحرام أو الهدى أو القلائد أو الحجاج والمعتمرين، وأحل لهم ما حرّمه من الصيد إذا أحلوا، ونهاهم أن يحملهم صدُّ المشركين لهم عن العمرة

على الاعتداء عليهم، ثم فصل ما استثناه من بهيمة الأنعام، فحرم الميتةَ وغيرها إلى الاستقسام بالأزلام وهو الميسرُ، وكانوا، إذا اجتمعوا في الحرم، يهلون بذبائحهم للنُّصُب، ثم يلطخونها بالدماء ويضعون اللحوم عليها، ثم ينحرون جزورا ويسهمون عليها بالأزلام، ثم ذكر لهم أن الكفار قد يئسوا من التأثير عليهم في دينهم، ونهاهم أن يخشوهم إذا خالفوهم في مناسكهم، وذكر لهم أنه أكمل لهم دينهم، ورضي لهم الإسلام ديناً، فيجب عليهم أن يرضوا ما يرضاه لهم، ولا يَخْشَوا فيه لومة لائم.

ثم ذكر أنهم سألوا النبي (ص) قولاً جامعاً في ما أحل لهم من ذلك، فذكر أنه أحل لهم الطيبات وصيد ما علموا من جوارح الطير والسباع، وأن ذبائح أهلِ الكتاب حِلٌ لهم، كما أن ذبائحهم حِلٌ لهم، وأنه أحل لهم المحصنات من المؤمنات ومن أهل الكتاب، إذا أعطوهن مهورهن، محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

أحكام الوضوء والتيمم
[الآية ٦]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الآية ٦]. فذكر حكم الصلاة بعد حكم الحج والعمرة، لأنهما ركنان من أركان الإسلام الخمسة، فأمرهم بالوضوء أو التيمم عند القيام للصلاة، ثم ذكر حكمة الوضوء والتيمم فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

التحذير من نقض العقود
[الآيات ٧ ـ ١١]

ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾. فعاد إلى المقصود الأول من السورة، وأمرهم أن يذكروا نعمته عليهم بظهورهم على المشركين، وأن يَفُوا بميثاقه عليهم، وأن يكونوا قوّامين، له شهداء بالعدل، ونهاهم أن تحملهم عداوتهم للمشركين على نقض ميثاقهم، ثم وَعَدَهم على

ذلك بالمغفرة والأجر، وأوعد الكفار بأنهم من أصحاب الجحيم، ثم أمرهم أن يذكروا نعمته عليهم إذ كانوا في مكة مغلوبين للمشركين، فكف أيديهم عنهم وجعلهم يرضَون بصلحهم لشعورهم بقوتهم، ثم أمرهم أنْ يتقوه في ذلك ويتوكلوا عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

الاعتبار بناقضي العقود من الأولين [الآيات ١٢ ـ ٤٠]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الآية ١٢]، فذكر أنه أخذ الميثاق عليهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان برسله الذينَ يبعثهم إليهم. فلما نقضوا ذلك الميثاق، أوقع عليهم لعنته في الأرض، فأذلهم وجعل قلوبهم قاسيةً لا تُبالي بشيء، فحرفوا كتبهم ونَسُوا بعض ما أنزل إليهم، ولا يزال أثر تلك الخيانة فيهم بما فعلوه في عقودهم مع النبي (ص).

ثم ذكر أنه أخذ على النصارى مثل ذلك العهد فلم يَفُوا به أيضاً، فأوقع بينهم العداوة والبغضاء باختلافهم في دينهم، بعد نسيانهم بعض ما أنزل إليهم.

ثم ذكر أنه أرسل النبي (ص) إلى الفريقين ليبين لهم ما أخْفَوْه من كتبهم، وأنزل عليهم كتاباً يُخرجهم من الظلمات إلى النور في أمر دينهم، ثم أظهر ما وقع فيه كل منهما بنقض عهودهم، من قول النصارى: إن الله هو المسيح بن مريم، مع أنه إن أراد أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعاً لم يملك أحد منه شيئاً، ومن قول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، مع أنه يعذبهم بذنوبهم، ولا فرق عنده بينهم وبين غيرهم، ثم ذكر أنه أرسل إليهم النبي(ص) بعد انقطاع الرسل عنهم، ليبين لهم ما أحدثوه بعدهم، ويقطع بذلك العذر عنهم.

ثم ذكر ما كان من موسى (ع) حينما أمر قومه أن يذكروا نعمته عليهم، وأن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها لهم، ليقوموا بما عاهدوا الله عليه من محاربة أهلها، فأبوا أن يحاربوهم خوفاً منهم، ثم ذكر عقابه لهم على ذلك بتحريمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض.

ثم ذكر ما كان من أمر هابيل وقابيل

ابنَيْ آدم عليه السلام، وقد اختلفا في أمر من الأمور، فقدَّم كل منهما قرباناً إلى الله ليحكم بينهما فيه، فَتَقَبَّل الله قربان هابيل دون قابيل، فلم يرض قابيل بذلك وهدد أخاه بالقتل، ولم يَخَفِ الله في ما عَهِدَ به اليهم من تحريم ذلك عليهم، وكف هابيل عن قتله خوفاً من الله تعالى. ثم ذكر أن قابيل قَتَلَ بعد ذلك أخاه فأصبح من الخاسرين، وأدركه من الندم ما ساءت به حياته بعد أخيه.

ثم عقَّبَ على هذا بأنه كتب من أجله على بني إسرائيل أنه من قَتَل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها بإقامة القِصاص فكأنما أحيا الناس جميعاً، فَنَقَضُوا أيضا ما كتبه عليهم من ذلك، وأسرفوا في الأرض بالقتل وقَطْع الطريق والسرقة وغيرها، ثم ذكر أن جزاء الذين يَبْغُون في الأرض بهذا الفساد أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلُهم من خلاف، أو يُنْفَوا من الأرض، واستثنى منهم الذين يتوبون قبل القدرة عليهم، وأمَرَ المؤمنين بالتقوى وابتغاء الوسيلة إليه وجهاد أولئك المفسدين، وأنذرهم بأن لهم من عذاب القيامة ما لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومِثْلَه معه ليَفْتَدوا به منه ما تُقُبِّل منهم، ثم ذكر أن جزاء السرقة من ذلك الفساد قطع الأيدي، وأن من تاب يقبل توبته ولا يعاقبه، لأنه المتفرد بالملك في السماوات والأرض ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

نقض المنافقين واليهود لعقودهم [الآيات ٤١ ـ ٨٦]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [الآية ٤١]. فنهى النبي (ص) أن يَحزَن لمسارعة المنافقين واليهود في نقض عهودهم معه، وذكر من أمر اليهود في ذلك أنهم كانوا يجلسون إليه لكي يسمعوا منه، ويكذبوا عليه، ويتجسسوا لمن لا يحضر مجالسه من رؤسائهم، وأن رؤساءهم كانوا يحذرونهم، إذا تحاكموا إليه، أن يقبلوا منه ما يخالف ما حرفوه من أحكام التوراة في جاهليتهم، وكانوا قد حرفوا أحكامها في القصاص، وعدلوا عنها بالرشوة إلى أحكام جائرة ظالمة، فجعلوا دِيَةَ

القتيل من بني قُرَيْظَة نصف دية القتيل من بني النَّضير، ثم خيره في الحكم بينهم والإعراض عنهم، وأَمَرَهُ عند اختيار الحكم بينهم أن يحكم بالعَدْل الذي أنزله وهو القصاص، ثم عجَّبه من أنهم يحكُمونه وعندهم التوراة فيها حكمه في القتل، ثم يتولَّوْنَ عنه بعد التحكيم إذا علموا أنه سيحكم بينهم بذلك لا بما حرفوه في جاهليتهم، ثم ذكر أنه أنزل التوراة فيها هدًى ونور من الأحكام التي لم يحرفوها، وأن أسلافهم كانوا يحكمون بها لا بتلك الأحكام التي تواضعوا عليها؛ ونهاهم أن يَخْشَوُا الناسَ في الرجوع إلى حكم التوراة في القصاص، وأمرهم أن يَخْشوه وحده ولا يشتروا بآياته تلك الرِّشوة الزائلة، ثم ذكر ما جاء فيها من القصاص في النفس والعين والأنف والأذن والسنّ والجروح، وأن عيسى، عليه السلام، جاء بعد ذلك مصدقاً لأحكام التوراة، وأنه أنزل عليه الإنجيل مصدقاً لها أيضاً، وأنه أنزل القرآن بعد ذلك مصدقاً لأحكام التوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما. وقد توافقت الكتب الثلاثة على القصاص، فيجب الحكم بينهم به، ولا يصح اتباع أهوائهم في الحكم، ثم ذكر أنه جعل لكل من اليهود والنصارى والمسلمين شِرْعةً ومنهاجاً، وله في اختلاف تلك الشرائع حكمة الابتلاء فيها، وقد جعل شِرْعتنا خير الشرائع التي أنزلها، ثم حذر النبي (ص) من اليهود أن يفتنوه عما جاء فيها من القصاص، وعجَّب من أنهم يبغون حكم الجاهلية الذي يفرق بين الدماء ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم نهى المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء لنقضهم عهودهم، ولإيثارهم أعداءهم منهم عليهم، ثم ذكر أن المنافقين يتمسكون بِحِلْفهم ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة من هزيمة أو نحوها فنحتاج إليهم، وكانوا أهل ثروة ومال يقرضونه بالربا وغيره، ثم ذكر أنه سيفتح على المؤمنين فيندم المنافقون على نفاقهم، ويقول المؤمنون متعجبين من أمرهم ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾. ثم ذكر أن من يرتد من أولئك المنافقين عن دينه، فسوف يأتي بقوم خير منهم يجاهدون في سبيله، وأنه يجب أن يكون وليهم الله ورسوله والمؤمنون لينصرهم على أعدائهم.

ثم عاد إلى نَهْي المؤمنين عن موالاة أهل الكتاب والمنافقين ليذكر سبباً آخر

في ذلك، وهو أنهم يتخذون دينهم هزواً ولعباً، ويستهزئون بصلاتهم عند قيامهم بها، ثم أمر النبي (ص) أن يخبر أهل الكتاب بأنهم لا ينقمون منهم إلا أنهم يؤمنون بسائر الكتب المنزلة، وأن أكثرهم فاسقون، وأن يخبرهم بأن هناك من هو شَرٌ مثوبةً عند الله ممن يظنونهم كذلك ويستهزئون بهم، وهو مَنْ لَعَنَه الله وجعل منهم من هو على غرائز القِرَدَة والخنازير في الشره والطمع، ثم ذكر أن منهم من إذا جاءوا المؤمنين قالوا آمنا، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، وأن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكل السُّحت، وقد كان على ربّانيّيهم وأحبارهم أن يَنْهَوْهم عن ذلك، ولكنهم تركوه طمعاً في ما يأخذونه منهم، ثم ذكر أنهم كانوا، إذا طلب منهم الإنفاق في سبيله، قالوا إن الإله الذي يستقرض شيئاً من عباده فقير يَدُه مغلولة، يتهكمون بذلك ويتعللون به في كف أيديهم عن الإنفاق، ويقولون على الله هذا القول الشنيع، وهو الغني المبسوط اليدين بالعطاء، ومن يكون هذا شأنه لا ينتظر منه إلا أن يزيده ما ينزل من القرآن طغياناً وكفراً، ثم ذكر أنه ألقى بينهم العداوة إلى يوم القيامة بسبب تكالبهم على الدنيا، فكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها بتفرقهم وتخاصُمهم، ثم ذكر أنهم، لو آمنوا وأقاموا حكم التوراة والإنجيل في القصاص وغيره، بدل أحكام الجاهلية، لَكَفَّر عنهم سيئاتهم، وَرَزَقَهم سعادة الآخرة والدنيا، وأن منهم من اقتصد في أمره وحافظ على عهده، ولم ينقضه كما نقضه كثير منهم.

ثم أمر النبي (ص) أن يَمْضي في تبليغ رسالته إليهم، وَوَعَدَهُ بعصمته وحفظه منهم، ثم فصل ما يبلغه بأن يقول لهم إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا عهد التوراة والإنجيل والقرآن في القِصاص وغيره من الأحكام، وأخبره بأن تبليغه إليهم ذلك سيزيدهم طغياناً وكفراً، ونهاه أن يحزن على قوم كافرين مثلهم، وذكر ما أعده لمن آمن منهم ومن غيرهم ليقلعوا عن كفرهم، ثم ذكر، من خروجهم على عهد التوراة والإنجيل، أنه أخذ على بني إسرائيل ميثاقهم أن يؤمنوا برسله، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كَذَّبوا بعضهم وقَتَلوا بعضهم، وأن النصارى كفروا بعد إيمانهم، فقال بعضهم إن الله هو المسيح بن مريم،

مع أنه قد أمرهم أن يعبدوا الله ربه وربهم، وقال بعضهم إن الله ثالث ثلاثة، مع أنه ما من إله إلا إله واحد، ثم رد عليهم جميعاً بأن المسيح لم يكن إلا رسولاً، وبأن أمه لم تكن إلا صِدِّيقة، وكانا يأكلان الطعام كما يأكل سائر البشر، ثم وبخهم على أن يعبدوا من دونه ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ونهاهم أن يغلوا في أمر المسيح، وأن يتّبعوا في ذلك من ضل قبلهم فقال بالتثليث ونحوه مما يقولون به.

ثم ذكر أنه لَعَنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، وأن كثيراً منهم كانوا لا يتناهون عن المنكر فيما بينهم، وأن كثيراً منهم يتولون المشركين على المؤمنين، ولو كانوا يؤمنون بالله ونبيهم موسى عليه السلام ما اتخذوهم أولياء، ثم ذكر أن اليهود والمشركين الذين يوالي بعضهم بعضاً أشد الناس عداوة للمؤمنين، وأن النصارى أقرب منهم مودة لهم، لأن منهم قسيسين ورهباناً قد أقبلوا على العبادة ولم يحرصوا على الدنيا حرص اليهود والمشركين، ومنهم من إذا سمعوا ما أُنْزِل على النبي (ص) تفيض أعينهم من الدمع، ويؤمنون بأنه النبي الذي بُشِّروا به في التوراة والإنجيل، فكان جزاؤهم جناتٍ تَجْري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾.

عَوْد إلى ما سَبَقَ من الأحكام [الآيات ٨٧ ـ ١٠٨]

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾ فنهاهم أن يحرموا شيئاً من الطيبات التي أحلها لهم فيما سبق، وأمرهم أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا، ثم ذكر لهم أنه لا يؤاخذهم باللغو في أيمانهم، ولكن يؤاخذهم بما قصدوه منها، وبين لهم كفارته، ثم حرم عليهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وذكر أن الشيطان يريد أن يوقع بينهم العداوة في الخمر والميسر، ثم ذكر أنه لا حرج عليهم فيما طَعِمُوا إذا ما اتقوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم ذكر أنه سيبلوهم في حال الإحرام بشيء من الصيد تناله أيديهم ورماحهم، وأعاد ذكر تحريمه ليبين حكم من يقتله

متعمداً، وأن الذي يحرم صيد البر لا صيد البحر، ثم ذكر أنه جعل البيت الحرام أمناً للناس فلا يحل القتال فيه، وكذلك جعل الشهر الحرام أمناً لهم، وكذلك جعل الهَدْيَ والقلائد لتسير إلى البيت آمنة، ثم ذكر أنه شرع لهم ذلك بواسع علمه وحكمته، وهددهم على مخالفة ذلك بشديد عقابه، وذكر أنه ليس على الرسول (ص) إلا تبليغه لهم.

ثم ذكر أنه لا يستوي الخبيث الذي حرمه عليهم، والطيب الذي أحله لهم، ولو كان في كثرة الخبيث ما يدعو إلى الإعجاب به، ثم نهاهم أن يسألوا عن أشياء من ذلك يريدون التشديد فيها، لأنه قد سألها قوم من قبلهم ثم كفروا بها ولم يَقْوَوْا عليها.

ثم أبطل ما كانوا يهدونه للأصنام، فذكر أنه ما جعل لهم من بَحيرة ولا سائبة ولا غيرهما من هدايا الأصنام، وأنهم يفترون عليه في نسبة تشريعها إليه، وأنهم يقلدون فيها آباءهم ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، ثم أمر المؤمنين أن يعرضوا عنهم لأنهم لا يَضُرّونهم بشيء من ضلالهم، وذكر أن مرجعهم إليه فينبئهم بأعمالهم ثم ذكر أن أحدهم إذا كان مسافراً وحضره الموت، أشهد على وصيته اثنين من المسلمين، فإذا لم يجدهما أشهد عليها اثنين من غيرهم، ثم أكد في الشهادة على الوصية بما أكد به ليأتوا بها على وجهها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

الخاتمة

[الآيات ١٠٩ ـ ١٢٠]

ثم قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾. فذكر أنه يجمع رسله يوم القيامة ليسألهم عما فعله أتباعهم فيما عهدوا به إليهم، فيجيبوا بأنهم لا يعلمون ما أحدثوه فيها بعد وفاتهم، لأنهم غابوا عنهم ولا يعلم الغيب غيره، ثم خَصَّ النصارى بذكر ما أحدثوه في عهدهم لأنهم كانوا أشد انحرافاً من غيرهم، فذكر أنه، في يوم القيامة، يذكر لعيسى عليه السلام ما أنعم به عليه وعلى والدته، وأنه عَلّمه الكتاب والحكمة الخ، ومما ذكره في هذا حديث المائدة التي سميت هذه السورة باسمها، ثم ذكر أنه يسأله بعد

هــــذا ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [الآيــة ١١٦] وأنــه يجيبه بتنزيهه عن أن يكون له شريك، وبأنه ليس له أن يقول مثل هذا الذي نسبه أتباعه إليه، وبأنه إنما أمرهم بعبادة الله ربه وربهم، وكان عليهم شهيداً بذلك في حياته، فلما توفاه كان هو الشهيدَ عليهم، ثم فوض الأمر إليه في تعذيبهم والمغفرة لهم إظهاراً لكمال العبودية، وإن كان الشرك لا يغفر لأصحابه.

ثم ذكر أنه يقول لرسله بعد ذلك ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [الآيــة ١١٩] وهم الذين صدقوا في عهودهم ولم يغيروا فيها بعد وفاة رسلهم، وذكر أن لهم على ذلك جنات يتمتعون فيها برضاه عنهم ورضاهم عنه، وأن ذلك هو الفوز العظيم ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾.



المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «المائدة»(*)

وقد تقدم وجهٌ في مناسبتها.

أقول: هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مُجملات سورة البقرة، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها في البقرة[1]. وكذا ما أخرجه الكفار تبعاً لآبائهم في البقرة موجز[2] وفي هذه السورة مُطنِبٌ أبلغ إطناب في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [الآية ١٠٣].

وفي البقرة ذكر القصاص في القتلى[3]. وهنا ذكر أول من سن القتل، والسبب الذي لأجله وقع، وقال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

(1) قال تعالى هنا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [الآية ٣] الى ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الآية ٥]. أما في البقرة فلم يكن هذا التفصيل، اذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة/ ١٧٢]. ثم قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة/ ١٧٣].

(2) في البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة/ ١٦٨].

(3) من دلائل الترتيب أنه قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ في [البقرة / ١٧٨]. ثم زاده بيانا في السورة نفسها فقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة/ ١٧٩]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [الآية ١٩٤]. ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء/ ٩٢]. وزاد تفصيل القصاص فيما ساقه المؤلف في الآية ٣٢ من المائدة. ثم فصل أحكام القصاص في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [الآية ٤٥].

وهذا تدرج بديع يدل على إحكام الترتيب والتلاحم.

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الآية ٣٢]. وذلك أبسط من قوله تعالى في [البقرة/ ١٧٩]: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

وفي البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة/ ٥٨]. وذكر في قصتها هنا: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [الآية ٥٤].

وفي البقرة قصة الأيمان موجزة، وزاد هنا بسطاً بذكر الكفارة[1].

وفي البقرة، قال في الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة/ ٢١٩]. وزاد هنا في هذه السورة ذمها، وصرح بتحريمها[2].

وفي سورة المائدة من الاعتلاق بسورة الفاتحة: بيان المغضوب عليهم والضالين في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾.

وأما اعتلاقها بسورة النساء، فقد ظهر لي فيه وجه بديع جداً. وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحة وضمنية.

فالصريحة: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ﴾ [النساء/ ٣٣]. وعَقْدُ الأيمان في هذه الآية؛ وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء/ ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾ [النساء/ ٩٢].

والضمنية: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء/ ٥٨]. فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود.

---

(١) قال هنا: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[الآية ٨٩].

وقال في البقرة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

(٢) في هذه السورة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

فكأنه قيل (في المائدة): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [الآية ١] التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت. فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والارتباط.

ووجه آخر في تقديم سورة النساء، وتأخير سورة المائدة، وهو: أن تلك أولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء/ ١] وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب المكي، وتقديم العام[1] وشبه المكي أنسب.

ثم إن هاتين السورتين (النساء والمائدة)، في التقديم والاتحاد، نظير البقرة وآل عمران، فتلكما في تقرير الأصول، من الوحدانية، والكتاب، والنبوة، وهاتان في تقرير الفروع الحكمية.

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك[2].

وافتُتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء[3] فكأنهما سورة واحدة، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى.

ولما وقع في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء/ ١٠٥]. فكانت نازلة في قصة سارق سرق درعاً[4]، فصل في سورة المائدة أحكام السراق والخائنين.

ولما ذكر في سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب للحكم بين الناس، ذكر في سورة المائدة آيات في الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار، وكرر قوله

---

(١) يريد بالعام: الخطاب بـ يا أيها الناس، فهو أعم من: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية ١]. أو ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [النساء/ ١٧١].

(٢) ختام المائدة قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأول النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء/ ١]. وهو دليل القدرة.

(٣) بدء الخلق في أول النساء قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء/ ١]. والمنتهى في ختام المائدة قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [الآية ١١٩].

(٤) قصة الدرع أخرجها ابن كثير في التفسير: ٢/ ٣٥٨، ٣٥٩، وعزاها الى ابن مردويه، من طريق عطية العوفي، ورواها الترمذي في حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح: ٨/ ٣٩٥ ـ ٣٩٩ بتحفة الأحوذي. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨، وانظر ارشاد الرحمن في المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للاجهوري ورقة: ١٣٦ أ، ب لزيادة التفاصيل.

تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الآيات ٤٤ ـ ٤٥ و٤٧].

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات، وحسن ترتيبها، وتلاحُمها، وتناسُقها، وتلازمها.

وقد افتتحت بالبقرة التي هي أول ما نزل بالمدينة، وختمت بالمائدة التي هي آخر ما نزل بها، كما في حديث الترمذي(٥).



(١) أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ٨/٤٣٦، ٤٣٧: (آخر سورة نزلت المائدة والفتح). وقال المباركفوري: روى الشيخان عن البراء: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ [النساء/ ١٧٦]. وآخر سورة نزلت سورة التوبة. وردَّ البيهقي هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بما عنده. وقال الباقلاني: ليس في هذه الاقوال شيء مرفوع الى النبي(ص) وكل واحد قال بضرب اجتهاد (تحفة الاحوذي: ٨/٤٣٦، ٤٣٧). وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني ص ١٣٥).

مكنونات سورة «المائدة»(*)

١ ـ ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الآية ٢].

قال عِكْرِمة: هو ذو القَعْدة. أخرجه ابنُ جَرير[1]. واختارَ أنَّ المرادَ: هو رجب.

٢ ـ ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الآية ٢].

قال عِكْرِمة، والسُّدِّي: نزلَتْ في الحُطَم بن هند البكري. أخرجه ابنُ جَرير[2].

وقال ابنُ زيد: في أُناسٍ من المشركين، من أهلِ المشرق، مرُّوا بالحُدَيْبِية، يريدون العُمْرة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[3].

٣ ـ ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [الآية ٨].

هم قريش.

٤ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٣].

نَزَلَتْ بعد عَصْرِ يَوْمِ عَرَفَة عام حجَّة الوداع، كما في «الصحيح»[4].

٥ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [الآية ٤].

سَمَّى عِكْرِمةُ مِنَ السائلين: عاصِمَ بنَ عدي، وسعد بنَ خَيْثَمة، وعُويمَ بنَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) ٦/ ٣٧.

(٢) ٦/ ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) و«الطبري» نحوه، دون قوله: «من أهل المشرق». ٦/ ٣٩.

(٤) «صحيح البخاري» كتاب التفسير برقم (٤٦٠٦).

ساعدة. أخرجه ابنُ جرير[١].

وقالَ سعيد بنُ جبير: عدي بنُ حاتم، وزيد بن المهلهل.

٦ ـ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [الآية ٨].

أخرج ابنُ جَرير[٢]، من طريق ابن جُريج، عن عبد الله بن كثير قال: نزلت في يهود خَيْبر حين أرادوا قَتْل النبي (ص).

٧ ـ ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟﴾ [الآية ١١].

قال ابنُ عباس: نَزَلَتْ في قوم من اليهود صَنَعُوا لرسولِ الله (ص) طَعاماً ليقتلوه.

وقال عِكْرِمة: في كعب بنِ الأشرف، ويهود بني النضير. أخرجه ابنُ جَرير[٣].

وأخرج عن أبي مالك: في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أنْ يغدروا برسول الله (ص).

وأخرج عن يزيد بنِ أبي زياد: أنَّ منهم حيي بنَ أخطب.

وأخرج عن قتادة: أنها نزلت في قوم من العرب أرادوا الفتك به، وهو في غزوة، فأرسلوا له أعرابياً ليقتله ببطن نخل، وهم بنو ثعلبة، وبنو محارب[٤].

٨ ـ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [الآية ١٢].

قال ابنُ إسحاق: هم شموع بن زكور من سبط روبيل، وشُوقَط ابن جوري من سبط شمعون، وكالب بن يوقنا من سبط يهودا، ويَغوول بن يوسف من سبط أساخر، ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسُف، ويَلْطي بن زُوفو[٥] من سبط بنيامين، وكرابيل بن سُودي[٦] من سبط زبالون،

(١) ٦/ ٥٧. ووقع في النسخ المطبوعة: «عويمر» بدلاً من «عويم»؛ والصواب ما أثبته.

(٢) ٦/ ٩١.

(٣) ٦/ ٩٣. وفي «الإتقان» زيادة: «وحيي بن أخطب».

(٤) «الطبري» ٦/ ٩١.

(٥) «الإتقان»: «يلطي بن روفو».

(٦) «الإتقان»: «سوري» بالراء.

وكَدْى بن سُوسَا[1] من سبط مَنْشَا بن يُوسف، وعمائيل بن كسل من سبط دان، وستور بن مخائيل من سبط شِيرْ[2]، ويُحَنَّى بن وَفُوسي من سبط نَفْتال[3]. وإالُ بن مُوخا من سبط كادَلُوا.

أخرجه ابنُ جَرير[4].

٩ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٨].

قالَها من اليَهُود: نعمان بنُ أحي، وبَحْرِيّ بن عمرو، وشاس بنُ عديّ[5].

١٠ ـ ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الآية ١٩].

قال قَتَادة: كان بين عيسى ومحمد خمسمائة وستون سنة.

وفي رواية عنه قال: ذُكر أنّها ستمائة سنة.

وقال مَعْمَر عن أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة.

وقال الضَّحّاك: أربعمائة سنة، وبضع وثلاثون سنة. أخرجها محمدُ بن جرير.

١١ ـ ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا﴾ [الآية ٢٠].

قال مُجاهِد: المَنّ، والسَّلوى، والحَجَر، والغمام. أخرجه ابنُ جَرير[6].

١٢ ـ ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [الآية ٢١].

قال ابن عباس: الطور وما حوله.

وقال قَتادة: الشام.

وقال عِكْرِمةُ عن ابنِ عَبّاس: أريحا.

وقيل: دِمَشْق، وفِلَسْطين، وبعض الأردن.

أخرج ذلك ابنُ جرير[7].

١٣ ـ ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [الآية ٢٢].

---

(١) «الإتقان»: «سوساس».

(٢) «الإتقان»: «أشير».

(٣) «الإتقان» : «نفتال».

(٤) «الإتقان»: «كاذلو» بالمعجمة ٦/٩٦. وفي ضبط الأسماء اختلاف بين نسخ هذا الكتاب والطبري، نصّلَهما الأستاذ محمود محمد شاكر في تعليقه على «الطبري» ١٠/١١٤ ـ ١١٥ ط دار المعارف.

(٥) أخرجه الطبري ٦/١٠٥ عن ابن عباس.

(٦) ٦/١٠٩.

(٧) ٦/١١٠.

هم العمالقة[1].

١٤ ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ [الآية ٢٣].

قال مُجاهِد: هما يوشع بنُ نون، وكالب بن يوقَنّا أو ابن يوفنّة[2].

وقال السُّدِّي: يوشع، وكالب بن يوفنّه: خَتَنُ[3] موسى. أخرجه ابنُ جرير[4].

قال ابنُ عَسْكَر: يوشع: ابن أُخت موسى، وكالب: صهره. واخْتُلِفَ في اسمه، فقيل: كالوب. وقيل: كلاب. وأبوه: قيل: يوفنا، بالنون بعد الفاء. وقيل بالياء بعدها.

١٥ ـ ﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٢٧].

قال مُجاهِد: هابيل، وهو المُتَقَبَّلُ منه والمقتول؛ وقابيل، وهو القاتل.

أخرجه ابنُ جرير[5].

١٦ ـ ﴿قُرْبَانًا﴾ [الآية ٢٧].

هو كَبْشٌ[6].

فائدة:

أخرج ابنُ عساكر في «تاريخه»، عن عمرو بن خير الشَّعْباني[7] قال: كنت مع كعب الأَحْبار على جَبَلِ دير مُرّان[8]، فأراني لمعةً حمراء سائلةً في الجبل، فقال: ههنا قَتَل ابنُ آدم أخاه، وهذا أَثَرُ دمه جعله الله آيةً للعالمين[9].

---

(١) انظر «الدر المنثور» ٢/ ٢٧٠.

(٢) رواه ابن منيع. قال البوصيري الحافظ. رواته ثقات: «المطالب العالية»(٣٥٩٠) وضبط في «سفر العدد» «يُفُنّه» بفتح الياء وضم الفاء وتشديد النون.

(٣) الخَتَن: كل من كان من قِبل المرأة، كالأب والأخ.

(٤) ٦/ ١١٣.

(٥) انظر «الطبري» ٦/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٦) المصدر السابق الموضع نفسه.

(٧) عمرو بن خير الشَّعْباني، قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٣/ ٢٥٩ وتبعه الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان»: «لا يعرف».

(٨) دير مُرّان: محلة كانت عامرة آهلة بالسكان في دمشق غرب قاسيون، ومحلها اليوم في السفح الواقع أسفل قبة سيار وأعلى بستان الدواسة يطل منها الإنسان على الربوة، وعرفت تلك الجهة بهذا الاسم لوجود دير يدعى بدير مران. انظر «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» ١/ ٤٤ لابن طولون الصالحي.

(٩) في أعلى قاسيون في دمشق، مسجد صغير يسمى بـ «مسجد الأربعين» تقع جانبه لمعة حمراء في الجبل، يزعمون أنها دم هابيل، ولا تزال حتى الآن.

١٧ ـ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [الآية ٣٣].

نزلت في العُرَنيين، وكانوا ثمانية[1].

١٨ ـ ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [الآية ٤١].

قيل: هم اليهود[2].

وقيل: المُنافقون[3].

وقيل: نزلت في عبد الله بن صُوريا[4].

حكاها ابنُ جرير[5].

١٩ ـ ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الآية ٤١].

هم أهلُ فَدَك. كما أخرجه «الحميدي»[6]، وابنُ أبي حاتِم من طريق الشَّعْبي عن جابر بنِ عبد الله.

٢٠ ـ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الآية ٥٢].

قال عَطِيَّة: نَزَلَتْ في عبد الله بنِ أُبَيّ. أخرجه ابنُ جَرير[7].

٢١ ـ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [الآية ٥٤].

قالَ (ص) لما نَزَلَت: «هُمْ قَوْمُ هذا»، وأشار إلى أبي[8] موسى الأشعري. أخرجه الحاكم.

وأخرجه ابنُ أبي حاتِم، من طريق محمد بن المُنْكَدِر[9]، عن جابر قال: سُئل رسولُ الله (ص) عن هذه الآية

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» رقم (٦٧٩٩) في الديات، باب القسامة.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس موقوفاً.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. «الدر المنثور» ٢/ ٢٨١.

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن» وابن المنذر، وابن إسحاق، عن أبي هريرة.

(٥) في «تفسيره» مسندة ٦/ ١٤٩ ـ ١٥١.

(٦) في «مسنده» برقم (١٢٩٥) من طريق زكريا، وهو ابن أبي زائدة، عن الشعبي، عن جابر. وسنده ضعيف؛ لأن زكريا معروف بتدليسه عن الشعبي، وروايته عنه ما لم يسمع منه. انظر «تهذيب التهذيب» ٣/ ٣٣٠.

(٧) ٦/ ١٨٠، وابن المنذر، وابن أبي حاتم «الدر المنثور» ٢/ ٢٩١.

وعطية، راوي الأثر: هو ابن سعد، كما في «تفسير الطبري».

(٨) في «المستدرك» ٢/ ٣١٣ على شرط مسلم وأقره الذهبي، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٦ ورجاله رجال الصحيح، وأبو بكر بن أبي شيبة عن عياض الأشعري كما في «المطالب العالية» برقم (٣٥٩٨) قال الحافظ البوصيري: رواته ثقات.

(٩) والحاكم في «الكنى»، وأبو الشيخ، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، بسند حسن. كما في «الدر المنثور» ٢/ ٢٩٢.

فقال: «هؤلاء قومٌ من أهل اليمن، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُون، ثم من تجيب[1]».

وأخرج من طريق سعيد بن جُبير، عن ابن عباس مثله.

وأخرج[2] عن الحسن قال: هم، والله، أبو بكر وأصحابه.

وأخرج عن الضَّحَّاك مثله.

وأخرج عن مُجاهِد قال: قوم من سَبَأ.

وأخرج عن أبي بكر بن عياش[3] قال: هم أهلُ القادسية.

٢٢ ـ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [الآية ٦٤].

أخرج الطبراني عن ابن عباس: أن قائل ذلك النَّبَّاش بن قيس.

وأخرج أبو الشيخ عنه: أنه فِنْحاص[4].

٢٣ ـ ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [الآية ٨٢].

أخرج ابنُ أبي حاتم، عن مُجاهِد قال: هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة.

وأخرج عن عطاء قال: ما ذكر الله به النصارى من خير، فإنما يُراد به: النجاشي، وأصحابه.

وأخرج عن سعيد بنِ جُبير قال: نزلت في ثلاثين من خيار أصحاب النجاشي.

وأخرج من طرق أخرى عنه: أنهم سبعون رجلاً.

وأخرج عن السدي: أنهم اثنا عشر رجلاً.

وقد سماهم جماعة منهم اسماعيل الضرير[5] في «تفسيره»: أبرهد، وأيمن، وادريس، وابراهيم، والأشرف، وتميم، وتمام، ودريد، وبحيرا، ونافع.

---

(١) تُجيب: بفتح التاء، وضمها، بطن من كندة.

(٢) ابن جرير ٦/ ١٨٢.

(٣) وفي «الدر المنثور»: رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس.
واسمه: «النباش»، كذا وقع اسمه في «تفسير ابن كثير» ٢/ ٧٥: «شاس».

(٤) من يهود بني قينقاع، كما في «الدر المنثور»، والرواية في الطبري عن عكرمة.

(٥) إسماعيل الضرير، إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري، الضرير، المفسر، المقرئ، أحد أئمة المسلمين، والعلماء العاملين، ومن فقهاء الشافعية، من أهل نيسابور، له تصانيف في علم القرآن والقراءات والحديث. ولد سنة ٣٦١، وتوفي نحو ٤٣٠. («طبقات المفسرين» للسيوطي ٣٥، و«الأعلام» ١/ ٣٠٩).

لغة التنزيل في سورة «المائدة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢].

الشعائر جمع شَعيرة، وهي اسمُ ما أُشعِرَ، أي: جُعِلَ شِعاراً وعَلَماً للنُّسُكِ، من مَواقِف الحجّ، ومَرامي الجِمار، والمطاف، والمَسْعَى، والأفعال التي هي علامات الحَجّ يُعرَف بها من الإحرام، والطّواف، والسَّعْي، والحَلْق، والنَّحْر.

ولا بد لنا أن نبسط هذه المادة اللغوية، لنعرف شيئاً مما يتصل بها، ولنبدأ بالشِّعار فنقول:

الشِّعار: العلامة في الحرب وغيرها.

وشِعار العَساكر أن يَسِمُوا لها علامة يَنصِبونها، ليعرفَ الرجلُ بها رفْقَتَه.

وفي الحديث: «إن شِعارَ أصحاب رسول الله (ص) كان في الغزو: يا منصور أمِتْ أمِتْ!» وهو تفاؤل بالنّصر بعد الأمر بالإماتَة. واستَشْعَرَ القومُ: إذا تَداعَوا بالشِّعار في الحرب، قال النابغة:

مُستَشعرينَ قد ألفَوا في ديارِهِمُ
دُعاءَ سُوعٍ ودُعْميٍّ وأيُّوبِ

وشِعارُ القوم: علامتهم في السَّفر. وأشعَرَ القوم في سفرهم: جعلوا لأنفسهم شِعاراً.

قال الأزهري: ولا أدري مَشاعِرَ الحجّ إلاّ من هذا، لأنها علامات له.

أقول: إذا كان من معاني الشِّعار العلامة، فكأن «الشَّعيرة» وهي البَدَنة

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة العربية، بيروت، غير مؤرخ.

المهداة تصبح علامة، فكانت من الشعائر للحاجّ، أي: علامة له، ولأنها تُذْبَح، فقد صار «الإشعار» هو الإدماء، أي: الذَّبح.

وفي حديث مقتل عمر، رضي الله عنه: أن رجلاً رَمَى الجمرة فأصاب صَلَعَتَه بحجر، فسالَ الدمُ، فقال رجل: أُشعِرَ أمير المؤمنين.

وإذا كانت الشعائر عامة مناسكَ الحج، فهي أيضاً الشِّعارة والمَشْعَر، وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة/ ١٩٨].

أي: مُزْدَلفة.

والمشاعِرُ: المعالم التي نَدَبَ الله إليها، وأَمَرَ بالقيام عليها.

أقول: من غير شك أن هذه المواد الاصطلاحية، التي أصبحت شيئاً من المعجم التاريخي الإسلامي، تشير إلى الأصل البعيد، وهو مادة «الشعور» بمعنى «الحسّ»، أو «الإحساس». وعلى هذا يكون «الشِّعار»، وهو العلامة، واسطة يشعر بها الرجل في الحرب وغير الحرب.

ثم كان من هذا الشعيرةُ - وهي البَدَنة - «المُعَلَّمة» بعلامة، التي تُنْحَر هَدْياً، ثم كانت هذه الشعيرة العلامة لعامة ما يتصل بالحج، فأطلقت على المناسك كُلّها.

ثم ماذا من هذه المواد القديمة؟

أقول: استقرّت الشعيرة والشعائر في استعمالها الاصطلاحي في الحجّ. وقد يُتَوَسَع الآن فتطلق «الشعائر» على جميع الواجبات الدينية، فيقال مثلاً: الشعائر الدينية، وهي الفرائض والسنن وغيرها.

أما الشعار والشعارات في عصرنا، فهي ما يُتخذ، من قول أو عَمَل، واسطة، أو مظهراً للإعراب عن حقيقةٍ ما، كأن يقال: شعار الطلاب: السعي والعمل الوطني، وشعار الجندي: الطاعة، وشعار العامل: الإخلاص.

وليس هذا الاستعمال الجديد إلا شيئاً من الاستعمال القديم.

وأما المشاعر، فهي في لغتنا المعاصرة تعني الشعور والإحساس، يقال: أظهر فلان لضيفه مشاعر الودّ مثلاً. وليس لهذه المشاعر مفرد، كما أنه لا مفرد للمحاسن، أو المساوئ، أو المباهج أو غيرها مما شابهها.

٢ - وقال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ﴾ [الآية ٥].

أقول يحسن بنا أن نقرأ [النساء/ ٢٥]:

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾.

والأخدان جمع خِدْن، الذكر والأنثى فيه سواء، والخِدْن والخدين: الصديق. وخِدْن الجارية مُحَدِّثها، وكانوا في الجاهلية لا يمتنعون من خِدنٍ يحدّثُ الجارية فجاء الإسلام بهدمه.

والمخادنة: المصاحبة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ﴾ [الآية ١١].

تُشير الآية إلى أن النبي (ص) جاء قوماً، وهم بنو قريظة، ومعه الشيخان وعلي، يستقرضهم دية مسلِمَين قتلهما عمرو بن أمية الضمريّ خطأ يحسبهما مشركين. فأراد اليهود قتل النبي، والقصة معروفة في كتب السيرة والتفسير ونزلت الآية.

ويقال: بَسَطَ لسانَه إذا شَتَمه، وبَسَط إليه يده إذا بَطَش به.

ومعنى بَسْط اليدِ مَدُّها إلى المَبطُوش به، ألا تَرَى إلى قولهم: فلان بسيط الباع ومديد الباع بمعنىً.

﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ﴾، أي: منعها أن تُمَدَّ إليكم.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة/ ٢].

أي: يبطشوا بكم.

والذي نعرفه من استقرائنا للآيات الكريمة وغيرها من النصوص أن «البَسْط» و«البسطة» تفيد السرور والانبساط والاتساع، جاء في الحديث في الكلام على الزهراء عليها السلام: يَبْسُطني ما يبسُطُها، أي: يَسُرُّني ما يَسُرُّها. والبَسْط ضد القَبْض حقيقةً ومجازاً.

وجاء في الآية ٢٦ من سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾.

وتكرر مثل هذا في تسع آيات أخرى. والمعنى ينشر الرزق ويوسّعُه.

أمّا «بسط اليد» بالمعنى الذي ورد في الآية التي يجري الكلام عليها فهو

استعمال خاص، ورد في سورة الممتحنة، كما ورد في سورة المائدة أيضاً وهو قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ [الآية ٢٨].

ملاحظة:

وبعد، ألا يحق لنا أن نقول: إن الذي جرى عليه عامة أهل المدن في العراق في قولهم: «بَسَطَ فلان وَلَدَه بسطة فأوجعه»، أي: ضَرَبه، له أصلٌ فصيح في قول الأقدمين: وبسط فلان يده إليه، أي: بَطَش به كما صدق ذلك في الآيات الشريفة؟

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الآية ١٣].

أي: هذه عادتهم وهِجِّيرهم، وكان عليهما أسلافهم، كانوا يخونون الرُّسُلَ و«على خائنةٍ»، أي: على خِيانة، وقُرِئَ: «على خيانة».

أقول: والخائنة اسم فاعل، ولذلك قال المفسرون: المعنى فِعلة ذات خيانة، أو على نفس، أو فرقة خائنة.

ولعل الخائنة هنا هي الخيانة كالعافية، وهي اسم فاعل تعني المصدر، ومثلها العاقبة وغيرها.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية ١٤].

المراد بـ«أغرَيْنا» ألصقنا وألزمنا، من «غَرِيَ بالشيء إذا لَزِمَه ولصق به، وأغراه غيره، ومنه الغِراء الذي يُلصَق به»[1].

أقول: والأصل في كل ذلك الغِراءُ وهو الذي تُلصَق به الأشياء، ويُتَّخذ من أطراف الجلود والسَّمَك. وغَروتُ الجلد، الصقتُه بالغِراء.

وإذا كان الفعل غري بالشيء، أي: لصق ولزم فمنه «الإغراء»، وهو الحث على عمل الخير ونحو ذلك.

وهكذا جرَتِ العربية على «الإغراء» بهذا المعنى الحَسَن. وما زال هذا المعنى هو المعروف المشهور، أما ما جاء في الآية من استعمال «الإغراء» بمعنى إلقاء العداوة بينهم، فهو غير معروف في العربية المعاصرة.

٦ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

(١) اللسان: (غري).

آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾.

أي: أهؤلاء الذين أقسموا لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومُعاضِدوكم على الكفار.

والقَسَم جَهْدَ الأيمان هو القَسَم بأغلظ الأيمانِ. وهذا يعني أن المصدر «جهد» بهذا الاستعمال يفيد الغاية كما نقول سَعَى جدَّ السَّعْيِ.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾.

الفعل «يَتَوَلَّى»، في هذه الآية بمعنى يجعل الله وَلِيّاً له، وكذلك الرسول والذين آمنوا، وهذا من الاستعمال الجميل الذي لا نعرفه لهذا الفعل فقد اشتهر الفعل «تولّى» بمعنى ذَهَبَ وانصرف.

وتولّى الأمرَ، أي باشره ولزمه وأخذه. وتَوَلّى الله جَعَلَه ولياً له، أي: ناصراً. وهذا الاستعمال القرآني الأخير مما لا نعرفه في العربية المعاصرة.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [الآية ٥٩].

وقرأ الحسن: (هل تَنْقَمون) بفتح القاف، والفصيح كسرها، والمعنى هل تعيبون منا وتُنكِرون إلاّ الايمانَ بالكتب المنزلة كلها[1].

أقول: ومن هذا الاستعمال قول علي بن أبي طالب (ع):

ما تنقِمُ الحربُ العَوانُ منّي
بازلُ عامَيْنِ فتيٌ سِنّي

ويقال: نَقَمْتُ الأمر ونقِمْته، أي: كرهته، وقال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [البروج/ ٨].

أي: أنكَروا منهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة/ ٧٤].

وليس لنا من الفعل «نقم» إلا المزيد «انتقم»، ومعناه مشهور. فأما المجرد فلا نعرف منه في العربية المعاصرة إلا المصدر «النقمة».

---

(١) «الكشاف» ١/ ٦٥٠.

وما أراانا إلا أن نعود الى هذا الفعل وغيره، فنعيده إلى الاستعمال الحديث.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [الآية ٦٨].

والمعنى: لستم على دين يُعتَدُّ به حتى يُسَمَّى شيئاً لفساده وبطلانه.

أقول: وقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [الآية ٦٨] لبيان أنه لا قيمة له، نظير قولنا: إن هذا ليس بشيءٍ مثلاً، إقراراً منّا بأنه فاقد القيمة.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

موضع الإشكال في هذه الآية مجيء «الصابئون» بالواو وسنعرض لما قيل في ذلك من كلام طويل.

وعندي أن قراءة أُبَيّ غير المشهورة «والصابئين» وجيهة مقبولة تنفي عنا هذا الإشكال، والتعقيد الذي سنعرض له.

ماذا قيل في هذه المشكلة النحوية؟

«الصابئون» رفع على الابتداء، وخبره محذوف، والنيّة به التأخير عما في حيّز إنّ من اسمها وخَبرها، كأنّه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كذا، والصابئون كذلك، وانشدَ سيبويه:

والاّ فاعلموا أنّا وأنتم
بُغاةٌ ما بَقِينا في شِقاقِ

أي: فاعلموا أنا بُغاة وأنتم كذلك

فإن قلت: هلاّ زَعَمتَ أنّ ارتفاعه للعطف على محل إنّ واسمِها؟

قلت: لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر، لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان.

فإن قلت: لِمَ لا يَصحُّ، والنيّة به التأخير، فكأنّك قلت: ان زيداً منطلقٌ وعمرو؟ قلتُ: لأني إذا رفعتُه رفعتُه عطفاً على محل إنّ واسمها، والعامل في محلهما هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجُزأين في عمله كما تنتظمهما «إنّ» في عملها، فلو رَفعتَ «الصابئون» المنويّ به التأخير بالابتداء وقد رَفَعْتَ الخَبَر بانّ، لأعمَلْتَ فيهما رافِعَيْن مُختلفَيْن. فإن قلتَ: فقوله: «والصابئون» معطوف لا بدّ له من معطوف عليه فما هو؟ قُلتُ: هو مع

خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولا محلَ لها كما لا محلَ للتي عُطِفَت عليها، فإن قلتَ: ما التقديم والتأخير إلاّ لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلتُ: فائدته التنبيه على أن الصابئين أَبْيَنُ هؤلاء المعدودين ضلالاً، وأشدُّهم غَيّاً، وما سُمّوا صابئين إلاّ لأنهم صَبَأوا عن الأديان كلها. أي: خَرَجوا...»[1]. وفي حاشية الشيخ أحمد بن المنير الإسكندري المسماة (الانتصاف) جاء: «......... ولكن ثَمّ سؤال متوجِّه، وهو أن يقال: لو عطف «الصابئين» ونَصَبَه كما قرأ ابن كثير لأفاد أيضاً دخولهم في جملة المتوب عليهم، ولَفُهِمَ من تقديم ذكرهم على النصارى ما يُفهَم من الرفع من أن هؤلاء الصابئين، وهم أوغل الناس في الكفر يُتابُ عليهم، فما الظنّ بالنصارى، ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فلِمَ عُدِلَ عن النصب إلى الرفع وجُعِلَ الكلام جملتين.......»[2].

أقول: ما كان أغنانا عن هذه التوجيهات والأقوال النحوية التي لا تخلو من التعسّف والتكلّف، لو أخذنا بقراءة أُبَيّ وابن كثير على نصب «الصابئين»، وهل من حاجة إلى هذه التأويلات لنُجري هذه القراءة المشهورة التي ثبتت في المصحف، ولم يكتب للقراءة الأخرى هذه الشهرة؟

أقول هذا لأني أجد مثل هذه القراءة المرفوضة، أي: على النصب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ [البقرة/ ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج/ ١٧].

أترى الزمخشري وغيره من المفسرين والنحاة، كانوا قد اتبعوا الأسلوب الذي سلكوه في توجيه «الصابئون»، أي الآية التي هي موضع درسنا. ولو أن قراءة شاذة قد وردت في هاتين الآيتين من سورتي البقرة والحج، فجاءت كلمة «الصابئين»،

(١) «الكشاف» ١/ ٦٦٠ ـ ٦٦١.

(٢) المصدر السابق.

مرفوعة على شذوذ القراءة، لكان لهم أن يتبعوا الأسلوب الذي أتينا على ذكره بما فيه من الحذلقة والتزيّد.

كلمة أخيرة:

الذي أراه في توجيه «الصابئون» أن القراءة صحيحة، ولكن أقول: إن نحو العربية في باب الجمع المذكور بالواو والنون والياء والنون، في عصر القرآن، لم يكن قد استقر فتخلص من اللغات الخاصة، وهذا يعني أن الواو والنون كانتا سمة وعلامةً للجمع كيفما كان موضع الكلمة من الإعراب، فالواو والنون علامة الجمع، كما أن الياء والنون علامة أخرى، وأما اختصاص كل منهما بحالة إعراب خاصة فقد استفادته العربية شيئاً فشيئاً حتى استقر على هذا النحو الذي نعرفه في النحو العام المشهور. ثم ألم يقولوا: إن «اللذون» لغة في «الذين»، وأن الواو لازمة في هذا الموصول كما في الشاهد المعروف:

نحن اللّذون صبّحوا الصّباحا

ثم ألم يقرأ الحسن: (تنزّل الشياطون)[1]؟

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٧١].

في هذه الآية مسألة تتصل بـ«كثير» لا بد من الوقوف عليها.

قالوا: «كثير» بَدَلٌ من الضمير، أو على قولهم: أكلوني البراغيث.

أقول:

ما أظن أن القول بأن الآية جرت على لغة «أكلوني البراغيث» قول سديد مقبول، وذلك لأن هذه اللغة قد خُصت بها قبيلة واحدة هي بنو الحارث بن كعب، ولكني أقول: إن الفاعل هو «كثير» وهو أقوى في الفاعلية من «الواو» الذي سُمّي «ضميراً» وليس الواو إلا إشارة إلى أن الفاعل «جمع» أو دالٌّ على الجمع وهو «كثير» في الآية.

---

(١) أقول: ألم يأتنا في كتب البلدان: فلسطون ونصيبون وصريفون في فلسطين ونصيبين وصريفين، أريد أن أقول كما تكون الواو والنون لازمة كذلك الياء والنون لازمة في جمع المذكر العاقل وغيره كالاسم الموصول مثلاً.

المعاني اللغوية في سورة «المائدة»(*)

قال تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [الآية ١]، ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [الآية ١]. ففي قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ نُصِبَتْ (غير) على الحال[1].

وقال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [الآية ٢] واحدها «شعيرة».

وقال ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ [الآية ٢] فـ «الشنئان» متحرك مثل «الدرجان» و«الميلان»، وهو من «شَنِئْتُهُ» فـ «أنا أشنؤه» «شَنَآناً». ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يُحِقَّنَّ لكُمْ[2]. لأنَّ قَوْلَهُ تعالى ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ [النحل/٦٢] إنّما هو حَقٌّ أَنَّ لَهُمُ النارَ. قال الشاعر[3] [من الكامل وهو الشاهد الثمانون بعد المئة]:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً
جَرَمَتْ فَزارةُ بَعْدَها أنْ يَغْضَبُوا[4].

اي: حُقَّ لها.

وقوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن للأخفش»، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في الكشاف١/ ٦٠١ ونقل في زاد المسير٢/ ٢٦٩ واعراب القرآن ١/ ٢٦٥ والجامع٦/ ٣٦ والبحر ٣/ ٤١٤.

(٢) نقله في التهذيب ١١/ ٦٥ «جرم» والجامع٦/ ٤٤و٤٥ واللسان جرم.

(٣) هو أبو أسماء بن الضريبة مجاز القرآن ١/ ٣٥٨ والخزانة ٤/ ٣١٤ واللسان «جرم»، وقيل هو عطية بن عفيف مجاز القرآن ١/ ٣٥٨ والخزانة ٤/ ٣١٤، وقيل هو الفرزدق الخزانة كالسابق، وقيل الفزاري الكتاب، وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٦٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٩ بـ«تغضبا» وفي الخزانة كما سبق« أبا عبيدة» وقد جاء في ٤/ ٣١٠ كما جاء في رواية الأخفش.

[الآية ٢][1] يقول: «لأن صَدُّوكُم» وقد قُرئت (إِنْ صَدُّوكُم)[2] على معنى «إِنْ هُمْ صَدُّوكُمْ» أي: «إِنْ هُمْ فَعَلُوا» أي: إِنْ هَمُّوا ولم يكونوا فعلوا. وقد تقول ذلك أيضاً وقد فعلوا كأنك تحكي ما لم يكن؛ كقول الله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف/٧٧] وكانت السرقة عندهم قد وقعت.

وقال تعالى: ﴿أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [الآية ٢] أي: لا يُحقَّنَّ لَكُمْ شَنَـَٔانُ قوم أَنْ تَعْتَدُوا. أي: لا يَحْمِلَنَّكُم ذلكَ على العُدْوان. ثم قال ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [الآية ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ [الآية ٣] من «وُقِذَتْ» فـ «هِيَ مَوْقُوذَةٌ».

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ [الآية ٣] فيها الهاء [أي التاء المربوطة] لأنها جعلت كالاسم مثل «أَكِيلَةِ الأَسَدِ». وانما تقول «هي أَكِيلٌ» و«هِيَ نَطِيحٌ» لأنَّ كل ما فيه «مَفْعُولَة» و «الفَعِيل» فيه بغير الهاء نحو «القَتيل» و«الصَّريع» اذا عنيت المرأة و«هِيَ جَرِيحٌ» لأنَّكَ تقول «مَجْرُوحَةٌ».

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [الآية ٣][3] ولغةٌ يخففون «السَّبْع»[4].

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [الآية ٣] وجميعه: «الأنصاب».

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ [الآية ٣] يقول: «وَحُرِّمَ ذلكَ» وواحدها «زُلَم» و«زَلَم»[5].

وقال تعالى: ﴿مَخۡمَصَةٍ﴾ [الآية ٣]

---

(١) هي في الطبري ٩/ ٤٨٧ إلى بعض أهل المدينة وعامة قرأة الكوفيين وفي السبعة ٢٤٢ الى نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وفي الكشف ١/ ٤٠٥ والتيسير ٩٨والبحر ٣/ ٤٢٢ الى غير أبي عمرو وابن كثير من السبعة. وفي حجة ابن خالويه ١٠٤ بلا نسبة وفي معاني القرآن١/ ٣٠٠ لم تنسب قراءة.

(٢) في الطبري ٩/ ٤٨٨ الى بعض قرأة الحجاز والبصرة وانتصر لها بقراءة ابن مسعود «ان يصدوكم». وفي السبعة ٢٤٢ والكشف ١/ ٤٠٥ والتيسير ٩٨ الى ابن كثير وابي عمرو وزاد في البحر ٣/ ٤٢٢ ابن مسعود، وزاد في الجامع ٦/ ٤٦ انها اختيار ابي عبيد وأنّ الاعمش قرأ «ان يصدوكم» وفي حجة ابن خالويه ١٠٤ بلا نسبة.

(٣) وعليها في الجامع ٦/ ٥٠ قراءة ابن مسعود وابن عباس.

(٤) وفي الجامع ٦/ ٥٠ قراءة الحسن وابي حيوة وفي البحر ٣/ ٤٢٣ زاد الفياض وطلحة بن سليمان، ورويت عن ابي بكر عن عاصم، ورويت عن الحسن. ويبدو مما في ١٧٣ «اللهجات» أنّ الاسكان لغة تميم، وقياسا على ما جاء في «لهجة تميم» ١٦٦ أيضاً.

(٥) نقله في التهذيب١٣/ ٢١٩ «زلم» منسوبا إلى الأخفش وحده.

تقول: «خمصةُ الجوع» نحو «المَغْضَبَة» لأنه اراد المصدر.

وقال ﴿بِئْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية ٣] مهموزة الياء الثانية وهي من «فَعِل» «يَفْعِل» وكسر الياء الأولى لغة نحو «لِعِبَ»[1]؛ ومنهم من يكسر اللام والعين[2] ويسكنون العين ويفتحون اللام أيضاً[3] ويكسرونها[4] وكذلك «بئس». وذلك أنَّ «فعل»، اذا كان ثانيه احد الحروف الستة[5]، كسروا اوله وتركوه على الكسر، كما يقولون ذلك في «فعيل» نحو «شعير» و«صهيل»[6]. ومنهم من يسكن الثانية ويكسر الأولى نحو «رِحْمَةُ الله» فلذلك تقول: «بِئْس» تكسر الياء وتسكن الهمزة[7]. وقد قرئت هذه الآية ﴿نِعْمَ ما يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء/٥٨][8] على تلك اللغة التي يقولون فيها «لِعِبَ»[9]. وأناس يقولون «نَعِمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ»[10] فقد يجوز كسر هذه النون التي في «نَعِمَ»، لأن التي بعدها من الحروف الستة، كما كسر «لِعِب». وقولهم: «ان العين ساكنة من «نِعِمّا» اذا أُدغمت خطأ لأنه لا يجتمع ساكنان. ولكن إذا شئت أخفيته فجعلته بين الادغام والإظهار، فيكون في زنة متحرك، كما قرئت ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ [يوسف/١٣] يشمون النون الأولى الرفع[11].

---

(١) هي لهجة تميم «لهجة تميم ١٦٧» واللهجات العربية ١٦٧.

(٢) الهامش السابق

(٣) الهامش السابق أيضاً

(٤) الهامش السابق أيضاً

(٥) هي حروف الحلق الستة الهمزة والعين والهاء والحاء والخاء والغين.

(٦) ما جاء في المصادر الطبري ٢/ ٢٣٨ والكتاب ٢/ ٢٥٥ والمخصص ١٤/ ٢١٤ يقول ان هذه لغة تميم.

(٧) في الكتاب كالسابق بلا عزو وفي «لهجة تميم ١٦٧» و«اللهجات ١٦٧» نسبت الى تميم.

(٨) وهي في رسم المصحف الشريف «نِعِمّا».

(٩) هي في السبعة ١٩٠ قراءة ابن كثير وقراءة عاصم ونافع في رواية. وفي الجامع ٣/ ٣٣٤ الى ابي عمرو ونافع في رواية ورش وعاصم في رواية حفص وابن كثير.

(١٠) أورد هذه اللغة في الجامع ٣/ ٣٣٤ وهي لغة قريش «اللهجات ١٦٧و١٦٨و١٦٩».

(١١) قراءة تضعيف النون ولا يكون الاشمام الا بها، هي في البحر ٥/ ٢٨٦ إلى زيد بن علي وابن هرمز وابن محيصن وقراءة الفك الى الجمهور.

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [الآية ٣] لأن الاسلام كان فيه بعض الفرائض، فلما فرغ الله جل جلاله ممّا اراد منه قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [الآية ٣] لا على غير هذه الصفة.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾ كأنه قال: «فإنَّ الله لَهُ غَفُورٌ رَحِيم». كما تقول «عبدُ الله ضَرَبْتُ» تريد: ضربته. قال الشاعر [من الوافر وهو الشاهد الحادي والثمانون بعد المئة]:

ثَلاثٌ كُلُّهُنَّ قَتَلْتُ عَمْداً
فَأَخْزَى الله رابِعَةً تَعُودُ[1]

وقال الآخر[2] [من الرجز وهو الشاهد الثاني والثمانون بعد المئة]:

قَدْ اصْبَحَتْ[3] أُمُ الخِيارِ تَدَّعي
عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ[4]

وقال تعالى: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ﴾ [الآية ٤] فان شئت جعلت «ذا» بمنزلة «الذي» وان شئت جعلتها زائدة كما قال الشاعر[5] [من البسيط وهو الشاهد الثالث والثمانون بعد المئة]:

يا خُزْرَ تَغْلِبَ ماذا بالُ نِسْوَتِكُم
لا يَسْتَفِقْنَ الى الدَّيْرَيْنِ تَحْنانا[6]

فـ «ذا» لا تكون هٰهنا إلاّ زائدة. اذ لو قلت: «ما الذي بال نسوتكم» لم يَكُن كَلاماً.

وقال تعالى: ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾ [الآية ٤] وهي الكَواسِبُ كما تقول: «فُلانٌ جارِحَةُ أَهْلِهِ» و«مالَهُمْ جارِحَةٌ» أي: مالَهم مماليكُ «ولا حافِرَةٌ».

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٤]، فأدخل «من» كما أدخلها في: «كانَ مِنْ حَديث» و«قَدْ

---

(١) الشاهد في تحصيل عين الذهب ١/ ٤٤، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٢٦، والخزانة ١/ ١٧٧ بلا عزو.

(٢) هو أبو النجم العجلي: الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٤، وفي تحصيل عين الذهب وحده ١/ ٢١٨، ومجاز القرآن ٢/ ٨٤.

(٣) في معاني القرآن ١/ ١٤٠ و٢٤٢و٢/ ٩٥ بـ«علقت».

(٤) والشاهد بعد في الكتاب ١/ ٦٩ س٥ و٧٣ س١٠ قطعة منه.

(٥) هو جرير بن عطية بن الخطفي، الديوان ١/ ١٦٧.

(٦) البيت بعد في مغني اللبيب ١/ ٣٠٦.

كانَ مِنْ مَطَرٍ». وقوله ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٧١][(١)] و﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور/ ٤٣][(٢)]. وهو فيما فسر «يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ جِبالاً فيها بَرَدٌ». وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: في السَّماءِ جبالٌ مِنْ بَرَد. أي: يَجْعَلُ الجِبالَ مِنْ بَرَدٍ في السَّماء ويجعل الإنزال منها.

وقال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [الآية ٥] فيعني به الرجال.

وقال تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [الآية ٥] (و) أُحِلَّ لَكُمْ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ من النساء ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: أُحِلَّ لَكُمْ في هذه الحال.

وقال تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [الآية ٦] فردُه الى «الغَسْل» في قراءة بعضهم[(٣)] لأنه قال: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الآية ٦] وقرأ بعضهم: (وأَرْجُلِكُم)[(٤)] على المسح أي: وامسحوا بأَرْجُلِكُم. وهذا لا يعرفه الناس. وقال ابن عباس[(٥)]: «المَسْحُ على الرِّجْلَيْن يُجْزِئُ» ويجوز

---

(١) قد نقل عنه في الاملاء ١/ ٥١ والبحر ١/ ٣٠٦ وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٣ والاشباه والنظائر ٤/ ٤٤ واعراب القرآن للزجاج ٢/ ٦٧٣ والجامع ٦/ ٧٣ وزاد المسير ٢/ ٢٩٤.

(٢) وقد نقل عنه في الاملاء ٢/ ١٥٨ واعراب القرآن ٧٢٦ والجامع١٢/ ٢٨٩ وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤ والتمام لابن جني ١٤٩ والبحر ٤٦٤.

(٣) هي في معاني القرآن ١/ ٣٠٢ قراءة عبدالله بن مسعود، وفي الطبري ١٠/ ٥٧،٥٢ الى جماعة من قرأة الحجاز والعراق، والى علي بن أبي طالب وابن عباس وعروة وعبدالله واصحاب عبدالله ومجاهد والاعمش والضحاك، وفي الجامع ٦/ ٩١ الى نافع وابن عامر والكسائي، وزاد في البحر ٣/ ٤٣٨ والتيسير ٩٨ حفصا، وكما زاد في السبعة ٢٤٢ و٢٤٣، يدل حفص عاصما في رواية ، وفي الكشف ١/ ٤٠٦و٤٠٧ كما في التيسير، وزاد نسبتها الى علي بن ابي طالب وابن مسعود وابن عباس وعروة بن الزبير وعكرمة ومجاهد والسدي.

(٤) انتصر لها في معاني القرآن ١/ ٣٠٢ بحديث وفي الطبري ١٠، ٥٧، ٦٤ الى جماعة من قرأة الحجاز والعراق، وأنس، وقتادة، وعلقمة، والاعمش، ومجاهد، والشعبي، وابي جعفر، والضحاك، وفي السبعة ٢٤٣ الى ابن كثير، وحمزة، وابي عمرو، والى عاصم، في رواية. وفي التيسير ٩٨ الى غير من أخذ بالسابقة، وزاد في الكشف ١/ ٤٠٦ نسبتها الى الحسن والحسين، وأنس بن مالك، وعلقمة، والشعبي، والحسن، والضحاك، ومجاهد، وفي الجامع ٦/ ٩١ الى ابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، وزاد في البحر ٣/ ٤٣٧ أبا بكر، وأنساً، وعكرمة، والشعبي، والباقر، وقتادة، وعلقمة، والضحاك، وفي حجّة ابن خالويه ١٠٤ بلا نسبة.

(٥) عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي الكريم ترجمته في طبقات ابن الخياط ٤، ووفيات الاعيان ٣/ ٦٢، ونكت الهميان ١٨٠.

الجر على الإتباع وهو في المعنى «الغَسْل»[1] نحو «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ». والنصب أسلم وأجود من هذا الاضطرار. ومثله قول العرب: «أكلْتُ خبزاً ولبناً» واللبن لا يؤكل. ويقولون: «ما سَمِعْتُ برائحة اطيبَ من هذه ولا رأيتُ رائحة اطيبَ من هذه» و«ما رأيت كلاماً اصوبَ من هذا». قال الشاعر[2] [من مجزوء الكامل وهو الشاهد الرابع والثمانون بعد المئة]:

يا لَيْتَ زَوجَكِ قَدْ غَدا
مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً[3].

ومثله ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [الآية ٢] ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [الآية ٢].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الآية ٦] أي: ما يُريدُ اللهُ لِيجْعَلَ عَلَيْكُم حَرَجا.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)﴾ كأنه فسر الوعد ليبين ما وعدهم أي: هكذا وعدهم فقال ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ [الآية ١٢] ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الآية ١٢] فاللام الأولى على معنى القسم والثانية على قسم آخر.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [الآية ١٤]. كما تقول: «مِنْ عبدِ اللهِ أخَذْتُ دِرْهَمَه»[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [الآية ٢٢] فعملت «إنَّ» في «القوم» وجعلت الصفة «جَبّارِينَ» لأنَّ «فيها» ليس باسم.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [الآية ٢٦] فهي من «أسِيَ» «يَأسَى» «أسىً شَدِيداً» وهو الحزن. و«يَئِسَ» من «اليَأسِ» وهو انقطاع الرجاء من «يئسوا» وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف/٨٧]: أي

(١) نقل عنه في المشكل ١/ ٣٠١، و٣٠٢ والجامع ٦/ ٩٤، وإعراب القرآن ١/ ٦٤ «المقدمة» و١/ ٢٧٠.

(٢) هو عبدالله بن الزبعري. الكامل ١/ ٢٨٩.

(٣) والبيت في معاني القرآن ١/ ١٢١ و٤٧٣ وفي ٣/ ١٢٣ بـ «ورأيت زوجك في الوغى» وفي الانصاف ٢/ ٣٢٢ بـ «يا ليت بعلك في الوغى».

(٤) هو جرير بن عطية بن الخطفي. الديوان ١/ ١٦٧.

انقطاع الرجاء وهو من: يئست وهو مثل «أيِسَ» في تصريفه. وإنْ شِئْتَ مثل «خَشِيْتُ» في تصريفه. وأما «أسَوْتَ» «تَأسُوا» «أسْواً» فهو الدواء للجراحة. و«أُسْتُ» «أؤوسُ» «أوْساً» في معنى: أعْطَيْتُ. و«أُسْتُ» قياسها «قُلْتُ» و«أسَوْتُ» قياسها «غَزَوْتُ».

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٢٧] فالهمزة لـ«نَبأ» لأنها من «أنْبَأتُهُ». وألف «ابْنَيْ» تذهب لأنها ألف وصل في التصغير. واذا وقفت قلت «نبأ» مقصور ولا تقول «نبا» لأنها مضاف فلا تثبت فيها الألف.

وقال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ [الآية ٣٠] مثل [فطوّقت] ومعناه: «رَخَّصَتْ»[1] وتقول «طَوَّقْتُهُ أمْرِي» أي: عَصَبْتُهُ به.

وقال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ﴾ [الآية ٣١] فنصب «فأُوارِيَ» لأنك عَطَفْتَه بالفاء على «أنْ» وليس بمهموز لأنّه من «وَارَيْتُ» وإنما كانت «عَجَزْتُ» لأنها من «عَجَزَ» «يَعْجِزُ» وقال بعضهم «عَجِزَ» «يَعْجَزُ»[2]، و«عَجَزَ» «يَعْجَزُ»[3].

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية ٣٢]. وان شئت أذهبت الهمزة من ﴿أَجْلِ﴾ وحركت النون في لغة من خفف الهمزة[4].

و«الأَجْلُ»: الجناية من «أَجَلَ» «يَأْجِلُ»، تقول: «قَدْ أَجَلْتَ عَلَيْنا شَرّاً» ويقول بعض العرب «مِنْ جَرّا» من: «الجريرة» ويجعله على «فَعْلَى».

وقال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية

---

(١) نقله في زاد المسير ٢/ ٣٣٧ والبحر ٤٦٤ والصحاح «طوع» اما في «طوق» فقال: «طوقت له نفسه» لغة في طوعت: أي: رخصت وسهلت حكاها الاخفش.

(٢) يبدو مما جاء في ٤٤٥ من «اللهجات»، أنه لا اختصاص لقبيلة، بصيغة من هاتين الصيغتين.

(٣) هي لغة لبعض قيس في رأي الفرّاء، وعدها الكسائي لحنا، والمبمني لغة رديئة اللهجات ٤٤٨، وقد قرأ بها الحسن، كما ذكر ذلك الجامع ٦/ ١٤٥.

(٤) انظر تخفيف الهمزة فيما سبق، وقراءة تخفيف الهمزة في «اجل» وفتح النون هي في حجة ابن خالويه ١٠٥، قراءة نافع برواية ورش، واقتصر في الشواذ ٣٢ على ورش، وفي البحر ٣/ ٤٦٨ كذلك. وفي الكشّاف ١/ ٦٢٧ بلا نسبة. وفي الجامع ٦/ ١٤٥، والكشّاف ١/ ٦٢٧، والبحر ٣/ ٤٦٨ نسبت القراءة، بكسر النون وتخفيف الهمزة، الى ابي جعفر يزيد بن القعقاع.

٣٢] كأنه يقول «أَوْ بِغَيْرِ فَسادٍ في الأرض».

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٣٦] كأنّه يقول: «لَوْ أَنَّ هذا مَعَهُم لِلفداء ما تُقُبِّلَ مِنْهُم».

وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ [الآية ٤١] خفيفة مفتوحة الياء[1] وأهل المدينة يقولون (يُحْزِنْكَ)[2] يجعلونها من «أَحْزَنَ» والعرب تقول: «أَحْزَنْتُه» و«حَزَنْتُهُ».

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الآية ٤١] أي: «مِنْ هؤلاءِ ومِنْ هؤلاء» ثم قال مستأنفاً: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الآية ٤١] أي: هم سماعون. وان شئت جعلته على ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [الآية ٤١] ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ ثم تقطعه من الكلام الأول. ثم قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [الآية ٤٢] على ذلك الرفع للأول وأما قوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [الآية ٤١] فههنا انقطع الكلام والمعنى «وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ[3] يَسْمَعُونَ كَلامَ النَّبِيّ (ص) ليكذبوا عليه سماعون لقوم آخرين لَمْ يأتوك بعد» اي: «يَسْمَعُونَ لَهُم فَيُخْبِرونَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَأْتُوكَ».

وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [الآية ٤٥] اذا عُطف على ما بعد «أنَّ» نُصب[4] والرفع على الابتداء[5] كما تقول: «إنَّ زَيْداً مُنْطَلِقٌ وعَمْرٌو

---

(١) هي في الجامع ٦/ ٨١ قراءة غير نافع. وهي لغة قريش عنده.

(٢) هي في الجامع ٦/ ١٨١ قراءة نافع وهي عنده لغة تميم وفي الكشاف ١/ ٦٣٢ والاملاء ١/ ٢١٥ بلا نسبة.

(٣) نقله في زاد المسير ٢/ ٣٥٧.

(٤) نسبت في معاني القرآن ١/ ٢١٠ الى حمزة، وزاد في السبعة ٢٤٤ عاصماً وزاد نافعاً، في رواية، وفي الكشف ١/ ٤٠٩، والبحر ٣/ ٤٩٤، نسبت الى ثلاثتهم، بلا تمييز، وفي التيسير ٩٩ الى غير ابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وفي حجّة ابن خالويه ١٠٥ بلا نسبة.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٢١٠ الى الكسائي، ورفعها الى الرسول الكريم، وفي السبعة ٢٤٤ الى ابن كثير، وأبي عمرو وابن عامر والكسائي، والى نافع في رواية، وأهمل في التيسير ٩٩ نافعا، والكسائي، وفي الكشف ١/ ٤٠٩ الى غير نافع، وحمزة، وعاصم، وخصّ الكسائي وحده بالذكر، من قرّاتها وفي حجّة ابن خالويه ١٠٥ بلا نسبة. والرأي في معاني القرآن كما سبق.

ذاهبٌ»، وإنْ شئتَ قلت: «وَعَمْراً ذاهبٌ» نصب ورفع.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [الآية ٤٦] لأن بعضهم يقول: «هِيَ الإِنْجيلَ» وبعضهم يقول «هو الانجيل». وقد يكون على ان الانجيل كتاب فهو مذكر في المعنى فذكروه على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟﴾ ثم قال ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء/٨][1] فذكر والقسمة مونثة لأنها في المعنى «الميراث» و«المال»، فذكر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [الآية ٤٨] أي: «وَشاهِداً عَلَيْهِ» بالنصب على الحال.

وقال تعالى: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [الآية ٤٨] فـ «الشِّرْعَةُ»: الدينِ، من «شَرَعَ» «يَشْرَعُ»، و«المِنْهاجُ»: الطريقُ من «نَهَجَ» «يَنْهَجُ».

وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الآية ٥١] ثم قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الآية ٥١] على الابتداء.

وقال تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الآية ٦٠] أي: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٦٠] ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [الآية ٦٣] وقال ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ [الآية ٦٣] بنصبهما بإسقاط الفعل عليهما.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية ٦٤]. فذكروا [ان اليد، هنا] «العَطِيَّة» و«النِّعْمَة». وكذلك ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [الآية ٦٤] كما تقول: إنَّ لِفُلانٍ عِنْدِي يَداً» أي: نِعْمَةً. وقال تعالى ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص/٤٥] أي: أولي النِّعَم. وقد تكون «اليَد» في وجوه، تقول: «بَيْنَ يَدَي الدارِ» تَعْني: قُدَّامَها، وليس للدارِ يدان.

وقال تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الآية ٦٧][2] قرأ بعضهم (رِسالاتِهِ)[3]

(١) النساء ٤/٨ وقد سبق له الاشارة الى هذا في الآية المذكورة.

(٢) هي في السبعة ٢٤٦ قراءة ابي عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، وقراءة عاصم في رواية، وفي الجامع ٦/ ٢٤٤ الى ابي عمرو، وأهل الكوفة، وفي الكشف ١/ ٤١٥ والتيسير ١٠٠ الى غير نافع، وابن عامر، وابي بكر، وفي البحر ٣/ ٥٣٠ إلى غير من قرأ بالأخرى، وفي حجة ابن خالويه ١٠٨ بلا نسبة.

(٣) في السبعة ٢٤٦ الى نافع، والى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٤١٥ والتيسير ١٠٠ والبحر ٣/ ٥٣٠ الى نافع، وابن عامر، وأبي بكر، وفي الجامع ٦/ ٢٤٤ الى اهل المدينة، وفي حجة ابن خالويه ١٠٧ بلا نسبة.

وكلٌ صوابٌ لأنَّ «الرسالَةَ» قد تجمع «الرِّسائِلَ»، كما تقول «هَلَكَ البَعِيرُ والشّاةُ»، و«أهلَكَ الناسَ الدينارُ والدِّرْهَمُ»، تريد الجماعة.

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ [الآية ٦٩]، وقال في موضع آخر ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة/ ٦٢ والحج/ ١٧]، والنصبُ القياس على العطف على ما بعد ﴿إِنَّ﴾ فأما هذه فرفعُها على وجهين، كأن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية ٦٩] في موضع رفع في المعنى لأنه كلام مبتدأ لأنَّ قَوْلَهُ: «إنَّ زَيْداً مُنْطَلِقٌ» و«زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ» من غير ان يكون فيه «إنَّ» في المعنى سواء، فإن شئت إذا عطفت عليه شيئاً جعلته على المعنى. كما قلت: «إن زيداً مُنطلقٌ وعمرٌو». ولكنه اذا جعل بعد الخبر فهو أحسن واكثر. وقال بعضهم: «لما كان قبله فعل شبه في اللفظ بما يجري على ما قبله، وليس معناه في الفعل الذي قبله وهو ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الآية ٦٩] أجري عليه فرفع به وان كان ليس عليه في المعنى[١]، ذلك أنه تجيء اشياء في اللفظ لا تكون في المعاني، منها قولهم: «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ»، وقولهم «كَذَبَ عَلَيْكُمْ الحَجُّ» يرفعون «الحج» «بكَذَبَ» وإنما معناه عليكم الحج نصب بأمرهم[٢]. وتقول: «هذا حَبُّ رُمّانِي» فتضيف «الرُّمّانَ» إلَيكَ وإنما لَكَ «الحَبُّ» وليس لك «الرُّمّانُ». فقد يجوز اشباه هذا والمعنى على خلافه.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٧١] ولم يقل «ثُمَّ عَمِيَ وَصَمَّ» وهو فعل مقدّم، لأنه أخبر عن قوم أنهم عَمُوا وصَمُّوا، ثم فسّر كم صنع ذلك منهم كما تقول «رأيت قَوْمَكَ ثُلُثَيْهِم»[٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء/ ٣] وإن شئت جعلت الفعل للآخر فجعلته على لغة الذين يقولون: «أَكَلُونِي البَرَاغِيثُ»[٤] كما قال[٥] [من

---

(١) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٨٧ والجامع ٦/ ٢٤٦ مشركا معه فيه الكسائي ولعل هذا ما دفع الاخفش الى نسبة الرأي الى «بعضهم» والبيان١/ ٣٠٠ والاملاء ١/ ٢٢٢.

(٢) نقله في الصحاح بشيء من التغيير «كذب».

(٣) نقله في اعراب القرآن ١/ ٢٨٨ والجامع ٦/ ٢٤٨.

(٤) وهي لغة ضعيفة لا يليق ان تُخرّج بها النصّ القرآني.

(٥) هو الفرزدق همام بن غالب. الديوان ١/ ٥٠ وامالي ابن الشجري ١/ ١٣٣.

الطويل وهو الشاهد الخامس والثمانون بعد المئة]:

ولـكـنْ دِيـافِـيٌّ أَبـوهُ وأُمُّـهُ
بِحَوْرانَ يَعْصُرْنَ السَّليطَ أقارِبُه

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [الآية ٧٣] وذلك انهم جعلوا معه «عيسى» و«مَرْيَمَ». كذلك يكون في الكلام اذا كان واحد مع اثنين قيل «ثالِثُ ثلاثَةٍ» كما قال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة/ ٤٠] وانما كان معه واحد. ومن قال: «ثالثُ اثنين» دخل عليه أنْ يقول: «ثانِيَ واحِدٍ». وقد يجوز هذا في الشعر وهو في القياس الصحيح. قال الشاعر[1] [من الوافر وهو الشاهد السادس والثمانون بعد المئة]:

وَلـكِـنْ لا أَخُـونُ الـجـارَ حَـتّـى
يُـزيـلَ اللهُ ثـالِـثَـةَ الأَثـافِـي

ومن قال: «ثانِيَ اثْنَيْنِ» و«ثالثُ ثَلاثَةٍ» قال: «حادِيَ أَحَدَ عَشَرَ» اذا كان رجل مع عشرة. ومن قال: «ثالثُ اثْنَيْنِ» قال: «حاديَ عَشَرَةٍ» فأمّا قَوْلَ العَرَبِ: «حاديَ عَشَرَ» و«ثانيَ عَشَرَ» فهذا في العدد اذا كنت تقول: «ثاني» و«ثالث» و«رابع» و«عاشر» من غير ان تقول: «عاشرَ كَذَا وكَذَا»، فلما جاوز العشرة أراد أن يقول: «حادي» و«ثاني»، فكان ذلك لا يعرف معناه إلاّ بذكر العشرة، فضم إليه شيئاً من حروف العشرة.

وقال تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ [الآية ٩٤] على القسم أي: والله ليبلونَّكُم. وكذلك هذه اللام التي بعدها النون لا تكون إلا بعد القسم.

وقال تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [الآية ٩٥]. أي فعليه جزاء مثل ما قتل من النَّعَمِ.

وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا﴾ [الآية ٩٥] انتصب على الحال ﴿بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [الآية ٩٥] من صفته وليس ﴿بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ بمعرفة لأن فيه معنى التنوين، لأنه اذا قال: «هذا ضاربُ زَيْدٍ» في لغة من حذف النون ولم يفعل بعد، فهو نكرة. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف/ ٢٤] ففيه بعض التنوين غير أنّه لا يوصل اليه من أجل الاسم المضمر.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ

(١) لم أجد ما يشير الى القائل والقول، إلاّ ما جاء في المنصف ٣/ ٨٢ من عجزه: يخون الدهر ثالثة الاثافي.

﴿مَسَٰكِينَ﴾ [الآية ٩٥] أي: أوْ عليه كفارةٌ. رفعٌ مُنوّنٌ[1] ثم فسّر فقال ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وقرأ بعضهم (كفّارةُ طعامِ مساكِينَ)[2] باضافة الكفارة اليه.

وقال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [الآية ٩٥][3] أي: أوْ عَلَيْهِ مثلُ ذلكَ من الصيام. كما تقول: «عَلَيْها مثلُها زُبْداً». وقرأ بعضهم: (أوْ عِدلُ ذلك صياما) فكسر وهو الوجه[4] لأن «العِدْلَ»: المِثل. وأمّا «العَدْل»، فهو المِثلُ أيضاً. وقال ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة/ ١٢٣] أي: مِثْلٌ ففرقوا بين ذا وبين «عدل المتاع» كما تقول: «امرأةٌ رزانٌ» و«حَجَرٌ رَزِينٌ».

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٩٧] ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [الآية ٩٧] أي: وجَعَلَ لكُمْ الهَدْيَ والقَلائِدَ.

وقرأ بعضهم (يَضِرْكُمْ) بدلاً من ﴿يَضُرُّكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم﴾ [الآية ١٠٥] خفيفة، بالجزم لأنه جواب الأمر، من «ضارَ» «يَضِير»[5]. وقرأ بعضهم (يَضِرْكم)[6] فجعل الموضع جزماً فيهما جميعاً، الا انّه حرّك لأنّ الرّاء ثقيلة فأولها ساكن فلا يستقيم إسكان آخرها فيلتقي ساكنان وأجود ذلك ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾[7] رفع على الابتداء لأنه ليس بعلة لقوله تعالى:

---

(١) هي في الطبري ١١/ ٣٠ الى قرّاء أهل العراق، وفي السبعة ٢٤٨ إلى ابن كثير، وعاصم، وابن عمرو، وحمزة، والكسائي؛ وفي البحر ٤/ ٢١ إلى السبعة عدا الصاحبين، وأن الاعرج وعيسى بن عمر قرآ كذلك مع توحيد «مسكين»، وفي الكشف ١/ ٤١٨ والتيسير ١٠٠ الى غير نافع وابن عامر، وفي حجة ابن خالويه ١٠٩ بلا نسبة.

(٢) في الطبري ١١/ ٣٠ إلى عامة قرّاء أهل المدينة، وفي البحر ٤/ ٢٠ إلى الصاحبين، وفي السبعة ٢٤٨، والكشف ١/ ٤١٨، والتيسير ١٠٠ إلى نافع وابن عامر، وفي حجة ابن خالويه ١٠٩ بلا نسبة.

(٣) القراءة بفتح العين في البحر ٤/ ٢١ إلى الجمهور، وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٠ وجه إعرابي لم يُنسب قراءة.

(٤) في الشواذ ٣٥ قراءة منسوبة الى النبي الكريم (ص)، وعبدالله بن عباس، وفي البحر ٤/ ٢١ الى عبدالله بن عباس وطلحة بن مصرف والجحدري، وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٠ لم ينسب قراءةً، بل ذُكر لغةً لبعض العرب.

(٥) في البحر ٣٥ قراءة يحيى وإبراهيم في المحتسب ٢٢٠، والبحر ٤/ ٣٧ على إبراهيم وذكره في الثاني بقلبه، ونقله في اعراب القرآن.

(٦) هي في البحر ٤/ ٣٧ الى أبي حيوة، وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٣ وجه لم يُنسب قراءةً، وفي الكشاف ١/ ٦٨٦ أن قراءة أبي حيوة: يضيركم.

(٧) في البحر ٤/ ٣٧ إلى الجمهور، وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٣ لم يُنسب هذا الوجه قراءة.

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وانما أخبر أنه لا يَضُرُّهُم.

وقال تعالى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [الآية ١٠٦] ثم قال ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الآية ١٠٦] أي: شهادة بينكم شهادة أثنين. فلما القى «الشهادة» قام «الاثنان» مقامها، وارتفعا بارتفاعها، كما[1] ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف/٨٢] يريد: أَهْلَ القريةِ. وانتصبت «القريةَ» بانتصاب كلمة «الأهلِ» وقامت مقامها. ثم عطف ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ [الآية ١٠٦] على «اثنان».

وقرأ بعضهم: (مِنَ الذينَ استَحَقَّ عَلَيهِمُ الأوْلَيِنِ) [الآية ١٠٧][2] أي: مِنَ الأوْلَيْنِ الذينَ اسْتَحَقَّ عليهم. وقرأ بعضهم (الأَوْلَيانِ)[3] وبها نقرأ. لأنه حين قال: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ [الآية ١٠٧] كان كأنه قد حدّهما حتى صارا كالمعرفة في المعنى فقال ﴿ٱلْأَوْلَيَانِ﴾ فأجرى المعرفة عليهما بدلاً[4]. ومثل هذا مما يجري على المعنى كثير. قال الراجز [وهو الشاهد السابع والثمانون بعد المئة]:

عَلَيَّ يَومَ تَملِكُ الأُمُورا

صَومُ شُهورٍ وَجَبَتْ نُذُورا

وَبَدَناً مُقَلَّداً مَنحُورا

فجعله على «أَوْجَبَ» لأنه في معنى «قَدْ أَوْجَبَ».

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [الآية ١١٤] بجعل «تكونُ» من صفة «المائدة» كما ﴿فَهَبْ

(١) نقله في ايضاح الوقف ٢/ ٦٢٦، مع نقص في بعض العبارات وتغيير طفيف.

(٢) في الطبري ١١/ ١٩٤ الى عامة قراءة الكوفة، وفي الكشف ١/ ٤٢٠ والتيسير ١٠٠ الى ابي بكر وحمزة، وفي الجامع ٦/ ٣٥٩ الى ابن سيرين، وفي السبعة ٢٤٨ الى حمزة والى عاصم في رواية، وفي حجة ابن خالويه ١١٠.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٢٤ هي قراءة الامام علي بن ابي طالب وأُبيّ بن كعب، وفي الطبري ١١/ ١٩٦ الى عامة قراءة اهل المدينة والشام والبصرة، وفي السبعة ٢٤٨ الى ابن كثير ونافع وابي عمرو ونافع وابن عامر والكسائي وعاصم في رواية، وفي التيسير ١٠٠ الى غير ابي بكر وحمزة، وزاد في الكشف ١/ ٤٢٠ ان عليه الجماعة، وفي الجامع ٦/ ٣٥٩ الى ابي بن كعب، وفي البحر ٤/ ٤٥ الى الحرميين والعربيين والكسائي والامام علي بن ابي طالب وابي وابن عباس والى ابن كثير في رواية قرة عنه.

(٤) نقله في اعراب القرآن للزجاجي ٢/ ٥٧٧، وشرح الاشموني ٣/ ٦١ والهمع ٢/ ١١٧، والاملاء ١/ ٢٣٠.

لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ [مريم] [1] برفع «يرث» [2] اذا جُعِلَ صفة، وبجزمه [3] اذا جُعِلَ جواباً [4] كما تقول: «أَعْطِنِي ثَوْباً يَسَعُنِي» اذا أردت واسعاً و«يَسَعْنِي» اذا جعلته جواباً كأنك تشترط.

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ [الآية ١١٤] عطف على «العيد» كأنه قال: «يكونُ عِيداً وآيَةً»، وذكر أنَّ قراءة ابن مسعود [5] (تَكُنْ لَنَا عِيداً).

وليس ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ [الآية ١١٢] لأنهم ظنوا انه لا يطيق. ولكن معناه كقول العرب: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَذْهَبَ في هذه الحاجَةِ وتَدَعَنا من كَلامِكَ»، وتقول: «أتَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُفَّ عَنِّي فإنِّي مَغْمُومٌ». فليس هذا لأنه لا يستطيع ولكنه يريد «كُفَّ عَنِّي»، ويذكر له الاستطاعة ليحتج عليه أي: إنَّكَ تستطيعُ. فاذا ذكَره إياها علم أنها حجة عليه. وإنما قرئت (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) [6] فيما لَدَيَّ لغموض هذا المعنى

---

(١) مريم ١٩/ ٦ وقراءة الرفع هي في الطبري ١٦/ ٤٨ الى عامة قراء المدينة ومكة وجماعة من اهل الكوفة وفي السبعة ٤٠٧ الى ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة في الكشف ٢/ ٨٤ والتيسير ١٤٨ الى غير ابي عمرو والكسائي وفي الجامع ١١/ ٨١ الى اهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وفي البحر ٦/ ١٧٤ الى الجمهور وفي المحتسب ٢/ ٣٨ الى علي بن ابي طالب وابن عباس وابن يعمر وابي حرب بن ابي الاسود والحسن والجحدري وقتادة وابي نهيك وجعفر بن محمد.

(٢) قراءة الرفع في آية المائدة في البحر ٤/ ٥٦ الى الجمهور وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٥ بلا نسبة.

(٣) الجزم في آية مريم هو قراءة في معاني القرآن ٢/ ١٦١ يحيى بن وثاب وفي الطبري ١٦/ ٤٨ الى جماعة من اهل الكوفة والبصرة وفي السبعة ٤٠٧ والكشف ٢/ ٨٤ والتيسير ١٤٨ الى ابي عمرو والكسائي وزاد في الجامع ١١/ ٨١ يحيى بن يعمر ويحيى بن وثاب والاعمش وفي البحر ٦/ ١٧٤ الى النحويين والزهري والأعمش وطلحة واليزيدي وابن عيسى الاصفهاني وابن محيصن وقتادة. وفي الشواذ ٨٣ الى ابن عباس والجحدري وفي الحجة ٢٠٩ بلا كشف. أما قراءة الجزم في آية المائدة، ففي معاني القرآن ١/ ٣٢٥ إلى عبدالله وفي الشواذ ٣٦ إلى ابن مسعود والجامع ٦/ ٣٦٨ الى الاعمش وفي البحر ٤/ ٥٦ زاد عبدالله.

(٤) نقله في البحر ٤/ ٥٦.

(٥) هو عبدالله بن مسعود وقد مرت ترجمته فيما سبق.

(٦) هي في معاني القرآن ١/ ٣٢٥ وقراءة الامام علي بن ابي طالب وعائشة، وقرأ بها معاذ ورفعها الى رسول الله (ص) ١/ ٣٢٥ وفي الطبري ١١/ ٢١٨ و٢١٩ الى جماعة من الصحابة والتابعين منهم سعيد بن جبير وتأولت بها عائشة وفي السبعة ٢٤٩ والتيسير ١٠١ الى الكسائي وزاد في البحر ٤/ ٥٤ الامام علي بن ابي طالب ومعاذا وابن عباس وعائشة وابن جبير وفي الجامع ٦/ ٣٦٥ الى النبي الكريم (ص) برواية معاذ وفي حجة ابن خالويه ١٠٩ بلا نسبة. اما القراءة بالياء ففي معاني القرآن ١/ ٣٢٥ الى اهل المدينة وعاصم بن أبي النجود والأعمش=

الآخر والله أعلم. وهو جائز كأنه أضمر الفعل فأراد «هلْ تستَطيعُ أنْ تدعوَ رَبّكَ» أوْ «هلْ تستَطيعُ رَبُّكَ أنْ تَدْعُوَهُ»، فكل هذا جائز.

و«المائدَةُ» الطعام. و«فَعَلْتُ» منها: «مِدْتُ» «أَمِيدُ».

قال الشاعر[1] [من الرجز وهو الشاهد الثامن والثمانون بعد المئة]:

تُهْدِي رُؤوسَ الْمُجْرِمِينَ الأَنْدادْ
إلى أَمِيرُ المؤمِنِينَ المُمْتادْ[2]

و«المُمْتاد» هو «مُفْتَعِلٌ» من «مِدْتُ».



= وفي الطبري ١١/٢١٩ الى عامة قراء المدينة والعراق في التيسير ١٠١ الى غير الكسائي وفي حجة ابن خالويه ١٠٩ بلا نسبة وفي البحر ٤/٥٣.

(١) هو رؤبة بن العجاج. ديوانه ٤٠ ومجاز القرآن ١/١٨٣ و٣٤١.

(٢) ورد المصراع الثاني في مجاز القرآن ١/١٥٩ و١٨٣، والمصراعان في مجاز القرآن ١/٣٠١ بـ تهدي رؤوس المترفين الصداد، وكذلك في الصحاح «ميد» مع «الانداد»، وفي اللسان «ميد» تهدي رؤوس، وفي التاج «ميد» تهدي رؤوس المترفين الانداد، وأيضا تهدي رؤوس المترفين الصداد، وبـ«تهدي» و«الانداد» وبـ«تهدي» و«الصداد» في التكملة «ميد».


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «المائدة»(*)

فإن قيل: كيف الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [الآية الأولى] وقوله تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [نفسها]؟

قلنا: المراد بالعقود عهود الله عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه، فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وقوله بعده ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [الآية ٣].

فإن قيل: ما أكله السبع وعدم أكله وتعذره، فكيف يحسن فيه التحريم حتى قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [نفسها]؟

قلنا: معناه وما أكل منه السبع، يعني الباقي بعد أكله.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [نفسها] يدل من حيث المفهوم عرفاً على أنه لم يرض لهم الإسلام ديناً قبل ذلك اليوم، وليس كذلك، فإن الإسلام لم يزل ديناً مرضياً للنبي (ص) وأصحابه عند الله منذ أرسله عليه الصلاة والسلام.

قلنا: قوله اليوم ظرف للجملتين الأولَيين، لا للجملة الثالثة، لأن الواو الأولى للعطف والثانية للابتداء، فالجملة الثالثة مطلقة غير موقتة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [الآية ٤] كيف صَلُحَ جواباً لسؤالهم والطيبات

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

غير معلومة ولا متفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع؟

قلنا: المراد بالطيبات هنا الذبائح، والعرب تسمي الذبيحة طيباً وتسمي الميتة خبيثاً، فصار المراد معلوماً لكنه عام مخصوص كغيره من العموميات.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعد قوله ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ [الآية ٤] والمكلِّب هو المعلم من كلاب الصيد؟

قلنا: قد جاء في تفسير المكلب أيضاً أنه المضري للجارح والمغري له فعلى هذا لا يكون تكراراً[1] وعلى القول الأول يقول إنما عمم ثم خصص فقال مكلبين بعد قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ لأن غالب صيدهم كان بالكلاب، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم.

فإن قيل: ظاهر قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ يقتضي إباحة الجوارح المعلمة وهي حرام.

قلنا: فيه إضمار وتقديره: مصيد ما علمتم من الجوارح، يؤيده ما في تمام الكلام من قوله ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [نفسها].

فإن قيل: المُؤمَن به هو الله لقوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة/١٣٦] فالمكفور به يكون هو الله أيضاً، ويؤيده قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة/٢٨]. وإذا ثبت هذا، فكيف قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة/٥] مع أنه لا يصح أن يقال آمن بالإيمان فكذلك ضده؟

قلنا: المراد به: ومن يرتدّ عن الإيمان يقال بشأنه: كفر فلان بالإسلام إذا ارتد عنه، فكفر بمعنى ارتد لأن الردة نوع من الكفر، والباء بمعنى «عن» كما في قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج] وقوله تعالى ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان]. وقيل المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة/٩٦]، أي مصيده، وقولهم: ضَرْب الأمير ونسج اليمن.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ

(١) قوله «فعلى هذا لا يكون تكراراً» لا يخفى أن دفع التكرار لا يترتب على مجرد تفسير المكلبين بما ذكر، بل بجعله حالاً من فاعل علمتم المفيد لهذا التفسير كما في البيضاوي، لا من الجوارح المبني عليه هذا الإشكال، فكان الأولى التعبير بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة]، ولم يقل: وعملوا السيئات، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات؟.

قلنا: كل أحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة، وإن كان ممن يعمل الصالحات وهي الطاعات، والمعنى: أن من آمن وعمل الحسنات غُفرت له سيئاته قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود/ ١١٤].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى بعد قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة/ ١٢]، ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة]، مع أن الذي كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل؟

قلنا: نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح، لأن قبح الكفر بقدر عظم النعم المكفورة، فلذلك خصّه بالذكر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة/ ١٤]، ولم يقل ومن النصارى؟

قلنا: لأن هؤلاء كانوا كاذبين في دعواهم أنهم نصارى، وذلك أنهم إنما سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصاراً للشيطان، فقال ذلك توبيخاً لهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الآية ١٥]، أي مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره ولا يبين كتمانكم إياه، فكيف يجوز للنبي (ص) أن يُمسك عن إظهار حق كتموه مما في كتبهم؟

قلنا: إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبع الأمر ولا يفعل شيئاً من الأمور الدينية من تلقاء نفسه، بل اتباعاً للوحي، فما أمر ببيانه بيّنه، وما لم يؤمر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه. وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازاً عن الترك، فيكون قد أعلمه الله به وأطلعه عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك تبيانه لهم. الثاني أن ما كان في بيانه إظهار حكم شرعي كصفته ونعته والبشارة به وآية الرجم ونحوها بيّنه، وما لم يكن في بيانه حكم شرعي

ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا عنه. الثالث أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم، إلا ما كان في إظهاره معجزة له وتصديق لنبوته من نعته وصفته، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه كحكم الزنى ونحوه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ مع أن العبد ما لم يهده أولاً لا يتبع رضوانه فيلزم الدور؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يهدي به الله من علم أنه يريد أن يتبع رضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت/٦٩] أي والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا.

فإن قيل: لم نر ولم نسمع(*) أن قوماً من اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك؟

قلنا: المراد بقولهم أبناء الله خاصة الله، كما يقال أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. وقيل فيه إضمار تقديره: أبناء أنبياء الله.

فإن قيل: كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [الآية ١٨] مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم، ويدعون أن ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار.

قلنا: هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يوماً وهي مدة عبادتهم العجل في غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه، ولذلك قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة/ ٨٠]. وقيل أراد به العذاب الذي أوقعه ببعضهم في الدنيا مِنْ مَسْخِهِم قِرَدَة كما فعل بأصحاب السبت، وخسف الأرض كما فعل بقارون، وهذا لا ينكرونه، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضي في قوله ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم، كأنه قال: فَلِمَ عَذَّبَ آباءكم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم

(*) قوله (لم نر ولم نسمع الخ...) لا يخفى ما في إيراد السؤال على هذا الوجه، مما ينبو عن ساحة الأدب في عظمة التنزيل.

بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية ١٨] إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى، ويعذب من يشاء يلزم جواز المغفرة لهم وأنه غير جائز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء/٤٨]، وإن أريد به يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب من يشاء لا يصلح جواباً لقولهم.

قلنا: المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر. وقيل: يغفر لمن يشاء ممن خلق وهم المؤمنون، ويعذب من يشاء وهم المشركون.

فإن قيل: لِمَ قيل: ﴿يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [الآية ٢٠]، ولم يكن قوم موسى عليه السلام ملوكا؟

قلنا: المراد جعل فيكم ملوكاً، وهم ملوك بني إسرائيل، وهم اثنا عشر ملكاً، لاثني عشر سبطاً، لكل سبط ملك. وقيل المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقة والخادم والبيت فسماهم ملوكاً لذلك. وقيل المراد به أنه رزقهم المنازل الواسعة التي فيها المياه الجارية.

فإن قيل: من أين علم الرجلان أنهم الغالبون حتى قالا، كما روى القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [الآية ٢٣].

قلنا: من جهة وثوقهم بإخبار موسى (ع) بذلك كما ورد في التنزيل: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية ٢١]. وقيل علما ذلك بغلبة الظن، وما عهداه مع صنع الله تعالى بموسى (ع) في قهر أعدائه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمناً، وإلا لضاع التعليق وليس كذلك.

قلنا: «إن» هنا بمعنى إذ، فتكون بمعنى التعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة].

فإن قيل: كيف التوفيق بين قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية ٢١] وبين قوله ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ٢٦].

قلنا: معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد، قيل: فإنها محرمة عليهم. الثاني أن

كل واحد منهما عام أريد به الخاص، فالكتابة للبعض وهم المطيعون، والتحريم على البعض وهم العاصون. الثالث أن التحريم موقت بأربعين سنة والكتابة غير موقَّتة، فيكون المعنى أن بعد مضي الأربعين يكون لهم. وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة وجعلها ظرفاً. فأما من جعل الأربعين ظرفاً لقوله تعالى (يتيهون) مقدماً عليه، فإنه جعل التحريم مؤبداً فلا يتأتى على قوله هذا الجواب، لأن التقدير عنده: فإنها محرمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون والقراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرمة ويتيهون، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة، ونقل أن التحريم كان مؤبداً، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقي منهم وذرية من مات منهم، ويعضد الوجه الأول كون الغالب في الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذي هو عدد، لا تَأَخُّرُه عنه، يقال: سافر زيد أربعين يوماً وما أشبه ذلك، وقلَّما يقال على العكس.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [الآية ٢٧]، ولم يقل قربانين لأن كل واحد منهما قرب قرباناً؟

قلنا: أراد به الجنس فعبر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة/١٧]. الثاني: أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق] وقال الشاعر:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

تقديره: فإني بها لغريب وقيار. كذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة/٦٢]. وقيل إنما أفرده لأن فعيلاً يستوي فيه الواحد والمثنى والمجموع.

فإن قيل: أصلح قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ جوابا لقوله ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

قلنا: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل، قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب وتعريضاً، معناه إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا مِنّي فلم تقتلني؟

فإن قيل: كيف قال هابيل لقابيل كما ورد في التنزيل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ [الآية ٢٩] أي تنصرف بهما مع أن إرادة السوء والوقوع في المعصية للأجنبي حرام، فكيف للأخ؟

قلنا: فيه إضمار حرف النفي تقديره: إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل/١٥]، أي أن لا تميد بكم وقوله تعالى ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف/٨٥] وقول امرئ القيس:

* فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً *

الثاني أن فيه حذف مضاف تقديره: إني أريد انتفاء أن تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة/٩٣]، أي حب العجل. الثالث أن معناه: إني أريد ذلك إن قتلتني لا مطلقاً. الرابع أنه كان ظالماً، وجزاء الظالم تحسن إرادة من الله تعالى فتحسن من العبد أيضاً.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ يدل على أن قابيل كان تائباً لقوله عليه الصلاة والسلام «الندم توبة» فلا يستحق النار.

قلنا: لم يكن ندمه على قتل أخيه، بل على حمله على عنقه سنة، أو على عدم اهتدائه إلى الدفن الذي تعلمه من الغراب، أو على فقد أخيه لا على المعصية، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه، ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبة في شريعتهم بل في شريعتنا، أو نقول: التوبة تؤثر في حقوق الله تعالى لا في حقوق العباد، والدم من حقوق العباد فلا تؤثر فيه التوبة.

فإن قيل: كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل[1]، وإحياء الواحد كإحياء الكل والدليل يأباه من وجهين: أحدهما أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة، هذا هو مقتضى العقل والحكمة. الثاني أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوي قتل الواحد والكل في الإثم والعقوبة، أو تقاربهما، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثاني أو الثالث وهلم جراً أن لا يكون عليه إثم آخر، ولا يستحق عقوبة أخرى لأنه أَثِمَ إِثْمَ قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل

(٢) اشارة الى الآية ٣٢ من سورة المائدة.

بمجرد قتل الأول أو الأول والثاني، لأن قتل الواحد إذا كان يساوي قتل الكل أو يقاربه، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جراً، ولو قتل الكل عن إثم، فلا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إِثْمَ قتل الكل، وبقتل الكل إثم قتل الكل؟

قلنا: أقرب ما قيل فيه أن المراد من قتل نفساً واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه في الدنيا إن لم يكن له ولي، وفي الآخرة مطلقاً لأنهم من أب وأم واحدة. وقيل: معناه من قتل نفساً نبياً، وإماماً عادلاً، فهو كمن قتل الناس جميعا من حيث إبطال المنفعة على الكل، لأن منفعتهما عامة للكل. وقيل المراد بمن قتل هو قابيل، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أول من سن القتل، فكل قتل يقع بعده يلحقه شيء من وزره بغلبة التسبيب لقوله عليه الصلاة والسلام «من سن سنة حسنة» الحديث، وهذا أحسن في المعنى، ولكن اللفظ لا يساعد عليه وهو قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الآية ٣٢] لأن هذا المعنى إذ أريد به قابيل لا تختص كتابته ببني إسرائيل.

فإن قيل: كيف وجه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الآية ٣٣]، وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يحاربون أولياء الله. وقيل أراد بالمحاربة المخالفة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ [الآية ٣٦] ولم يقل بهما، والمذكور شيئان؟

قلنا: قد سبق جواب مثله قبيل هذا في قوله تعالى ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [الآية ٢٧]، وهنا جواب آخر وهو أن يكون وضع الضمير موضع اسم الإشارة كأنه قال ليفتدوا بذلك، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنين والجمع.

فإن قيل، ما فائدة قوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الآية ٤٢] وحال النبي عليه الصلاة والسلام مع أهل الكتاب لا يخلو عن هذين القسمين، لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم؟

قلنا: فائدته تخيير النبي عليه الصلاة والسلام بين الحكم بينهم وعدمه، ليعلم أنه لا يجب عليه أن يحكم بينهم كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه؛ وقيل إن هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٤٨] وهو القرآن يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الآية ٤٨]، أي في الحكم بالتوراة.

فإن قيل: لما أنزل الله القرآن صار الإنجيل منسوخاً به، فكيف قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [الآية ٤٧]؟

قلنا: هو عام مخصوص: أي ما أنزل الله فيه من صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بعلاماته المذكورة في الإنجيل، وذلك غير منسوخ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [الآية ٤٩] مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم؟

قلنا: أراد به عقوبتهم في الدنيا، وهو ما عجله من إجلاء بني النَّضِير وقيل بني قُرَيظة وذلك جزاء بعض ذنوبهم لأنه جزاء منقطع، وأما جزاؤهم على شركهم فهو جزاء دائم لا يتصور وجوده في الدنيا وقيل أراد بذلك البعض ذنب التولي عن الرضا بحكم القرآن، وإنما أبهمه تفخيماً له وتعظيما.

فإن قيل: حسن حكم الله وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة إلى الموقنين وغير الموقنين، فكيف قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قلنا: لما كان الموقنون أكثر انتفاعاً به من غيرهم، بل هم المنتفعون به في الحقيقة لا غير، كانوا أخص به، فأضيف إليهم لذلك، ونظيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٥١] يقتضي أن يكون من وادّ أهل الكتاب وصادقهم كافراً وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة/٨].

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾: المنافقون، لأنها نزلت في شأنهم وهم كانوا من الكفار في الدنيا ضميراً واعتقاداً، ومعناه أنه منهم في الآخرة جزاء، وعقابه أشد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] وكم من ظالم هداه الله تعالى فتاب وأقلع عن ظلمه؟

قلنا: ههنا ثلاثة معانٍ: الأول أنه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم؛ الثاني أن معناه: لا يهدي من قضى في سابق علمه أنه يموت ضالاً؛ الثالث أن معناه: لا يهدي القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة: أي المشركين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٥٤] ولم يقل أذلة للمؤمنين، وإنما يقال ذل له لا ذل عليه؟

قلنا: لأنه ضمن الذل معنى الحنو والعطف فعداه تعديته، كأنه قال حانين على المؤمنين عاطفين عليهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وكم مرة غلب حزب الله تعالى في زمن النبي (ص) وبعده إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به الغلبة بالحجة والبرهان لا بالدولة والصولة، وحزب الله هم المؤمنون غالبون بالحجة أبداً.

فإن قيل: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٦٠].

قلنا: لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالاحسان، بل هو الجزاء مطلقا بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين] أي هل جوزوا، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران/١٥٣]. وهو كلفظ البشارة لا اختصاص له، لُغَةً، بالخير السار، بل هو عام شامل للشر، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران].

فإن قيل: ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال تعالى في حقهم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الآية ٦٤].

قلنا: فائدته إلزام الحجة عليهم. الثاني تبجيل الكتاب والرسول إذا كان مرسلا إلى الخلق كلهم، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [الآية ٦٦]،

يقتضي تَعَلُّق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه، وليس كذلك فإن كثيراً من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها ما لم ينسخ، عيشهم في الدنيا منكد ورزقهم مُضَيَّق.

قلنا: هذا التعليق خاص بحق أهل الكتب، لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا (يدُ الله مغلولة) فأخبرهم الله تعالى أن ذلك التضييق عقوبة لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة في حق بعض عباده، ونقمة في حق بعضهم، وكذلك الرخاء والسعة فيعاقب بهما على المعصية، ويُثيب بهما على الطاعة، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام، ولا من تضييقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضا، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر/١٥] إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر/١٧] أي ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع الرزق دليل الكرامة، وتضييقه دليل الإهانة، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [الآية ٦٧]. ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة؟

قلنا: المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معايب اليهود ومثالبهم. فالمعنى بلغ الجميع، فإن كتمت منه حرفاً كنت في الإثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئاً البتة، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل. وقيل أمر بتعجيل التبليغ كأنه (ص) كان عازماً على تبليغ جميع ما نزل إليه، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفاً على نفسه وحذرا مع عزمه على تبليغه في ثاني الحال، فأمر بتعجيل التبليغ، يؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

فإن قيل: كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ثم إنه (ص) شُجَّ وجهه يوم أُحد وكُسِرَتْ رباعيته؟

قلنا: المراد به العصمة من القتل لا من جميع الأذى، فإن جميع العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم

جامعون مكارم الأخلاق ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى. الثاني أن هذه الآية نزلت بعد أُحُد، لأن سورة المائدة من آخر ما نزلت من القرآن.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1] مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبي (ص) يوم القيامة فيكون ناصراً لهم؟

قلنا: المراد بالظالمين هنا المشركون، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها[2].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بعد قوله في الآية نفسها: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾

قلنا: المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل، وبالضلال الثاني ضلالهم عن القرآن.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [الآية ٧٩] والنهي عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له؟

قلنا: فيه إضمار حذف مضاف تقديره: كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله كما يرى الإنسان أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فينكر، ويجوز أن يريد بقوله ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه ويداومون، يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد: أي امتنع عنه وتركه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ والمراد بقوله منهم المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين وكلهم فاسقون؟

قلنا: المراد به فسقهم بموالاة المشركين ودسّ الأخبار إليهم لا مطلق الفسق، وذلك الفسق الخاص مخصوصٌ بكثير منهم، وهم المذكورون في أول الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية ٨٠]، وليس شاملاً لجميعهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ

---

(١) ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ في موضعين آخرين هم: [البقرة/ ٢٧٠] و[آل عمران/ ١٩٢].

(٢) يقصد الآية ٧٢ من سورة المائدة.

﴿وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية ٩٠] وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى فأين عمل الشيطان في وجودها؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما تعاطي الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته الخ.

فإن قيل: مع هذا الإضمار كيف قال تعالى من عمل الشيطان، وتعاطي الخمر والقمار ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة؟

قلنا: إنما أضيف إلى الشيطان مجازاً لأنه هو السبب في وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق، فصار كما لو أغرى رجل رجلاً بضرب آخر فضربه، فإنه يجوز أن يقال للمُغْرِي هذا من عملك.

فإن قيل: لِمَ جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في الآية الأولى ثم خص الخمر والميسر في الآية الثانية؟

قلنا: لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيراً بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسد لا توجد فيها، وإن كانت فيها مفاسد أُخَر. وقيل إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط لأن الخطاب للمؤمنين بدليل قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهم إنما يتعاطون الخمر والميسر فقط، وإنما جمع الأربعة في الآية الأولى لإعلام المؤمنين، وأن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية، وأنه لا فرق بين من عبد صنماً أو أشرك بالله تعالى بدعوى علم الغيب، وبين من شَرِب الخمر أو قامر مُسْتحِلاً لهما.

فإن قيل: كيف يَحْسُن أن يفعل الله تعالى فِعْلاً يتوسل به إلى تحصيل علم حتى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية ٩٤].

قلنا: معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس. وقيل معناه ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب وهو قريب من الأول. وقيل معناه ليعلم الخوف واقعاً كما علمه منتظراً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [الآية ٩٥]، ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء، فإنه لو قتله ناسياً أو مخطئاً وجب الجزاء أيضاً؟

قلنا: عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء، فلا برد عليهم السؤال، وأمّا على قول الجمهور، فإنما قيّده بوصف العمدية، لأن الواقعة التي كانت سبب نزول الآية، كانت عمداً على ما يروى عن الصحابة، أنه اعترض حمار وحش بالحديبية وهم محرمون، فطعنه ابو اليسر برمحه، فقتله، فنزلت الآية، فخرج وصف العمدية، مخرج الواقع لا مخرج الشرط. وقال الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنّة بالوجوب في الخطأ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [الآية ٩٥] مع أن الشرط بلوغه الى الحرم لا غير؟

قلنا: لمّا كان المقصود من بلوغ الهدي الى الحرم تعظيم الكعبة، ذكر الكعبة تنبيها على ذلك. وقيل معناه بالغ حرم الكعبة.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾، أي دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما في السماوات وما في الارض، وأنه بكل شيء عليم.

قلنا: ذلك إشارة الى كل ما سبق ذكره، من الغيوب في هذه السورة، من أحوال الانبياء والمنافقين واليهود، لا الى المذكور في هذه الآية. الثاني ان العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال، فإذا دخل الشهر الحرام، أو دخلوا الى البلد الحرام كفّوا عن ذلك، فعلم الله تعالى أنّه لو لم يجعل لهم زماناً أو مكاناً يقتضي كفهم عن القتل، ونهب الأموال لهلكوا، فظهرت المناسبة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [الآية ١٠٣] والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر/٦] وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام/الآية الأولى]، وخالق هذه الاشياء هو الله تعالى؟

قلنا: المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر: أي ما أوجبها ولا أمَرَ بها. وقيل المراد بالجعل التحريم.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الآية ١٠٥] يدل

على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما واجبان.

قلنا: معنى قوله ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: أي أهل دينكم كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء/٢٩]، أي أهل دينكم. وقيل المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان، وتعذّر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو زماننا هذا.

فإن قيل: كيف يقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [الآية ١٠٩]، إذا قال الله تعالى لهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [نفسها] وهم عالمون بماذا أُجيبوا؟

قلنا: هذا جواب الدهشة والحيرة، حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم، نعوذ بالله تعالى منها، ومثله لا يفيد نفي العلم ولا إثباته. الثاني: أنهم قالوا ذلك تعريضاً بالتشكّي من قومهم ولإظهار الالتجاء الى الله تعالى في الانتقام منهم، كأنهم قالوا: أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب. الثالث معناه: لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به لأنا نعلم ظاهره وانت تعلم ظاهره ومضمره، ويؤيد ما بعده.

فإن قيل: أيّ معجزة لعيسى (ع) في تكليم الناس كهلاً حتى قال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [الآية ١١٠].

قلنا: قد سبق جوابه في سورة آل عمران[1] مستقصى.

فإن قيل: كيف قال الحواريون ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ١١٢] شكّوا في قدرة الله تعالى على بعض الممكنات وذلك كفر، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه، لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح؛ والحواريون خلّص أتباع عيسى (ع)، والمؤمنون به، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قلنا: هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة، كما يقول الفقير للغنيّ القادر: هل تقدر ان تعطيني شيئاً، وهذا يسمّى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة، والمعنى: هل يسهل عليك ان تسأل ربك؟ كقولك لآخر: هل تستطيع ان تقوم معي؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك.

فإن قيل: لو كان المراد هذا

---

(١) هو قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران/٤٦].

المعنى، فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؟

قلنا: إن إنكاره عليهم إنّما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته، وإن كانوا لم يريدوه.

فإن قيل: كيف قال عيسى (ع): ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [الآية ١١٦] وكل ذي نفس فهو ذو جسم، لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلّق بالجسم تعلّق التدبير، والله تعالى منزه عن الجسم.

قلنا: النفس تطلق على معنيين: أحدهما هذا، والثاني حقيقة الشيء وذاته كما يقال: نفس الذهب والفضة محبوبة: أي ذاتهما، والمراد به في الآية ثانياً هذا المعنى. [والنفس ترد بمعنى عند، أي تَعْلَم ما عِندي، ولا أعلم ما عِندَكَ ولعل هذا المعنى أقرب المعاني للآية الكريمة][1].

فإن قيل: كيف قال عيسى (ع): ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [الآية ١١٧]، مع أنه قال لهم كثيراً من الكلام المباح غير الأمر بالتوحيد؟

قلنا: معناه قلت لهم فيما يتعلق بالاله.

فإن قيل: إذا كان عيسى لم يمت، وإنما هو حي في السماء فكيف قال ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [الآية ١١٧].

قلنا: أراد بالتوفّي إتمام مدة إقامته في الأرض، وإتمامه قد سبق في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران/٥٥] والسؤال إنما يتوجّه على قول من قال: إن السؤال والجواب وُجِدا يوم رفعه الى السماء، وأمّا من قال: إن السؤال إنّما يكون يوم القيامة وعليه الجمهور، فالجواب مطابق ولا إشكال فيه.

في قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فإن قيل: لو قال عيسى عليه السلام: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك، كانَ أظهر مناسبة؟

(١) راجع لسان العرب، مادة نفس.

قلنا: معناه إن تعذّبهم فإنهم عبادك، وتَصَرُّف المالك المطلق الحقيقي بعبيده مباح: أيّ تصرف كان، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، الذي لا ينقص من عزه شيء، بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه، الحكيم في كل ما يفعله من العذاب او المغفرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [الآية ١١٩] يعني يوم القيامة، والصدق نافع في الدنيا والآخرة، ولفظ الآية في قوة الحصر؟

قلنا: لمّا كان نعت الصدق في الآخرة، هو الفوز بالجنّة والنجاة من النار، ونفعه في الدنيا دون ذلك، كان كالعدم بالنسبة الى نفعه في الآخرة، فلم يقيّد به في مقابلته.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [الآية ١١٩] إن أراد به صدقهم في الآخرة، فالآخرة ليست بدار عمل، وإن أراد به صدقهم في الدنيا، فليس بمطابق لما ورد فيه، وهو الشهادة لعيسى (ع) بالصدق، فيما يجيب به يوم القيامة؟

قلنا: أراد به الصدق المستمرّ، بالصادقين في دنياهم وآخرتهم وعن قتادة رحمه الله: متكلمان صدقاً يوم القيامة، فنفع احدهما صِدْقُه دون الآخر: أحدهما إبليس الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم/٢٢]. وصدق يومئذ فلم ينفعه صدقه، لأنه كان كاذباً قبل ذلك، والآخر عيسى (ع) الذي كان صادقاً في الدنيا والآخرة، فنفعه صدقه.

فإن قيل: ما في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فلماذا لم يُغَلِّب العقلاء على غير العقلاء ولم يأت بالموصول «مَنْ»، بل أتى بالموصول «ما» فقال، جل من قائل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [الآية ١٢٠]؟

قلنا: لأن كلمة «ما» تتناول الاجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع، و«مَنْ» لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال «ما» في هذا الموضع أوفى.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني المجازية في سورة «المائدة»(*)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [الآية ٢]. وهذه استعارة، والمراد مستبعداتِ الله التي أشعرها للناس، أي بينها لهم. من قولهم: أشعرت البَدَنة، إذا جرحتها في سنامها ليسيل دمها، فيُعلم أنها هَدْيٌ لبيت الله سبحانه: وهذا الفعل علامة لها، ودلالة عليها.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [الآية ١٦] وهذه استعارة. والسلام ههنا جمع سلامة. فالمراد أنه تعالى، يدلّ من أطاعه على طريق نجاته، وسبيل أَمَنَته، لأن طاعته تعالى إمام[1] السلامة، فمن اتبع قياده نجا، ومن تقاعس عنه ضلّ وغوى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الآية ١٩] وهذه استعارة. والمراد على انقطاع الإرسال الى الامم و . . . الزمان من . . . . .[2] الرسل. تشبيهاً بحال إرسال الانبياء إلى اممهم، ثم حال توقيهم بعد أداء شرائعهم بثقوب النار ثم خُمُودها، واضطرامها ثم فتورها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾. وهذه استعارة. ونظيرها قوله تعالى: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق: محمد عبدالغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في الأصل «إدام» ولا معنى للإدام هنا لأنه ما يؤتدم به. ولعل ما استظهرناه هو الصواب، لأن الإمام له مكان القيادة. فكأن الطاعة تقود الى السلامة.

(٢) موضع النقط كلمات لم تتبين بالأصل (المحقق).

أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٤٤] أي لا تولّوا عن دينكم وتشكوا بعد يقينكم، فتكونوا كالمتقهقر الراجع، والمتقاعس الناكص.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد: سوّلت له، وقرّبت عليه نفسه، ففعل. وطوّعت: فعّلت من الطوع، اي سهلت نفسه عليه ذلك، حتى أتاه طوعاً، وانقاد إليه سمحاً.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الآية ٣٢] وأحياها هنا استعارة. لأن إحياء النفس بعد موتها لا يفعله إلا الله تعالى. وإنما المراد: من استبقاها وقد استحقت القتل، واستنقذها وقد أشرفت على الموت. فجعل سبحانه فاعِلَ ذلك بها كمُحْيِيها بَعْدَ موتها. إذ كان الاستنقاذ من الموت، كالإحياء بعد الموت.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية ٤١]، وهذه استعارة. لأن صفة الإيمان والكفر إنما يوصف بها الإنسان دون القلب. والمراد: أنهم آمنوا بالظواهر، وكفروا بالبواطن.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [الآيـــة ٤٨]. وهذه استعارة. وقد تقدّم مثلها. والمعنى: مصدّقاً بما سلف قبله من الكتاب الذي هو الإنجيل الصحيح. واستعير ذكر اليدين ههنا، كما يقول القائل إذا سأله غيره عن راكب مرّ به: هو بين يديك. أي قد سار أمامك. ومهيمناً عليه: أي شاهداً عليه. فهذه أيضاً استعارة أخرى. والمراد: أنّ ما في هذا الكتاب من وضوح الدلالة، يقوم مقام النطق بصحة الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الآية ٤٨]. وهذه استعارة. والمراد: ولا تطع أمرهم، ولا تجب داعيهم، فأقام سبحانه أهواءهم مقام الدعاة إلى الرّدى، والهداة إلى العَمَى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية ٤٨]. وهذه استعارة عجيبة: والمعنى: فبادروا فعل الخيرات إن كنتم على غير أمان من حضور الأجل، وتضييق الأمل. وذلك شبيه بسباق الخيل، لأن كل واحد من فرسانها

يشاحُ غيره على بلوغ الغاية المقصودة، وينافسه في الإسراع الى البغية المطلوبة.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [الآية ٥٤]. وهذه استعارة. لأن الحُبّ الذي هو ميل الطباع لا يجوز على القديم سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الآية ٦٤]. وهذه استعارة. ومعناها أن اليهود اخرجوا هذا القول مخرج الاستبخال لله سبحانه، فكذّبهم تعالى بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ وليس المراد بذكر اليدين ههنا الاثنتين اللتين هما اكثر من الواحدة، وإنما المراد به المبالغة في وصف النعمة. كما يقول القائل: ليس لي بهذا الأمر يدان، وليس يريد به الجارحتين، وإنما يريد المبالغة في نفي القوة على ذلك الأمر. وربما قيل إن المراد بذلك نعمة الدنيا و نعمة الآخرة. والله أعلم أيّ ذلك أصوب. وقد أشبعنا الكلام على هذا المعنى في كتابنا الكبير.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [الآية ٦٤] وهذه استعارة.

لأن الحرب لا نار لها على الحقيقة، وإنما شُبّهت بالنار لاحتدام قراعها، وجِدّ مِصاعها[1]، وأنها تأكل أهلها، كما تأكل النار حطبها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [الآية ٦٦]. فهذه استعارة. لأن التوراة لا يصح عليها القيام، وإنما المراد لو أنهم اتبعوا حكمها. وقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [الآية ٦٦] استعارة اخرى على احد التأويلين، وهو أن يكون المراد بهذا القول العبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش. كما يقول القائل: فلان مغمور في النعيم والنعمة من قرنه الى قدمه. والتأويل الآخر لأكلوا من فوقهم، أي من ثمار الشجر التي تفوت بسطة اليد، ومن تحت أرجلهم، أي من نبات الأرض الذي يباشر موطئ القدم. وقيل المراد بذلك ما يكون عن مساقط الغيث من إخصاب منابت الأرض.

(١) ماصَعَهُ مِصاعاً: جالده بالسيف أو نحوه، اللسان، مادّة مصع.

فهذا كقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف/ ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [الآية ٨٩]. على قراءة من قرأ عَقَدْتم، وعقَدْتم بالتخفيف والتشديد، دون من قرأ عاقدتم. فهذه استعارة. والمراد بها، تأكيد الأيمان، حتى تكون بمنزلة العقد المؤكد، والحبل المحصَد. أو يكون المراد، أنكم عقدتموها على شيء، خلافاً لليمين اللغو، التي ليست معقودة على شيء، لأنّ الفقهاء يسمّون اليمين التي على المستقبل، يميناً معقودة، فهي التي يأتي فيها البِرُّ والحِنْثُ، وتجب فيها الكفّارة. واليمين على الماضي عندهم ضربان: لَغو، وغموس، فاللغو كقول القائل: والله ما فعلت كذا. وفي شيء يظنّ انه لم يفعله، ووالله لقد فعلت كذا. في شيء يظنّ أنه قد فعله.

فهو اليمين على الماضي إذا وقعت كذبا. نحو قول القائل: والله ما فعلت. وهو يعلم انه قد فعل. ووالله لقد فعلت. وهو يعلم انه لم يفعل. فهذه اليمين كفّارتها التوبة والاستغفار لا غير.

وقوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [الآية ٩٤]. وهذه استعارة: لأنّ الفارس هو الذي ينال القنيص برمحه. ولكن الرمح، لما كان مباشراً، حَسُن لهذه الحال أن يُسمى نائلاً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ [الآية ١٠٨]. وهذه استعارة. لأن الشهادة لا وجه لها. وإنما المراد أن يأتوا بالشهادة على جليتها وحقيقتها. وخبّر تعالى عن ذلك بالوجه لأن به تعرف حقيقة الجملة، ويُفهم كنه الصورة، كما قلنا فيما تقدّم. وهذه من الاستعارات البديعة.

وقوله تعالى حاكياً عن المسيح (ع): ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [الآية ١١٦]. وهذه استعارة. لأن القديم سبحانه لا نفس له. والمراد: تعلم ما عندي ولا اعلم ما عندك، وتعلم حقيقتي ولا أعلم حقيقتك، أو تعلم مغيبي ولا أعلم مغيبك. فكأن فحوى ذلك: تعلمُ ما أعْلَمُ ولا اعلم ما تعْلَمُ. وقد استوفينا الكلام على ذلك في (حقائق التأويل).

الفهـــرس

سورة «آل عمران»

المبحث الأول

سورة النساء

المبحث الأول

المبحث الثاني

سورة المائدة

